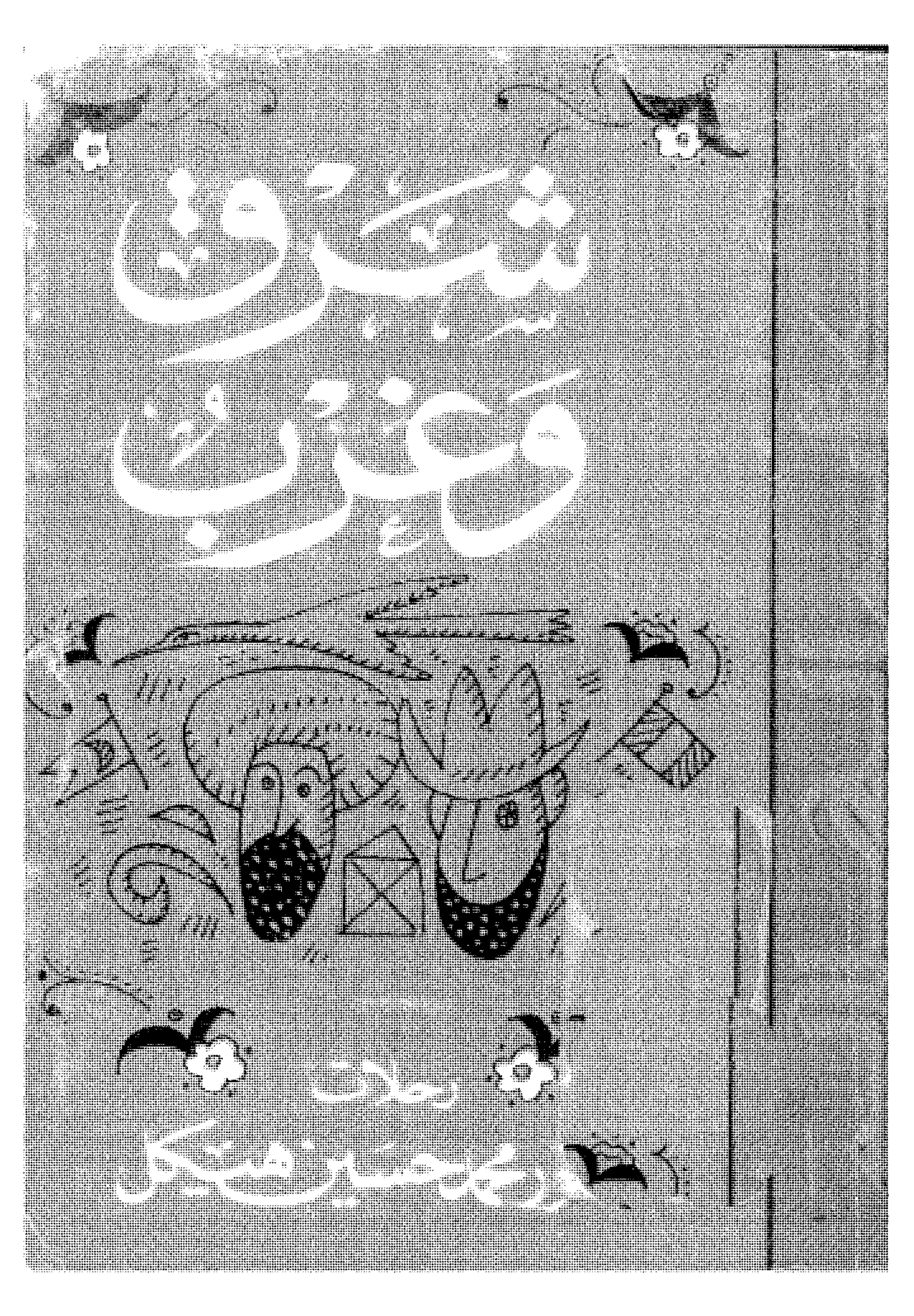

شرق
وغرب
رحلات
محمد حسين هيكل



سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مج ... د
نائب رئيس ... ب
رشيد ... ل
سكر... ... د

مركز الإدارة.

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط
KITAB AL-HILAL
No 519 - MA 1994 العدد ٥١٩ - رمضان - مارس ١٩٩٤
FAX 3625469 فاكس

أسعار بيع العدد فئة ٣٠٠ قرش

سوريا ١٠٠ ليرة - لبنان ٦٦٠٠ ليرة - الأردن ٢٤٠٠ فلس - الكويت ١٥٠٠ فلس - السعودية ١٢ ريالا - تونس ٢ دينار - المغرب ٢٥ درهماً - البحرين ١,٢٠٠ ... - ... ١٢ ... أبو ظبي ١٢ درهما - مسقط ١,٢٠٠ ريال -

اهداءات ٢٠٠١

المهندس/ محمد عبد السلام العمري

الإسكندرية

شرق وغرب

رحلات

د. محمد حسين هيكل

تقديم :

حافظ محمود

●

دار الهلال

الغلاف للفنان
حلمى التونى

مقدمة

قلّ أن يكون هناك كاتب عربى يتعدد الجوانب كالدكتور محمد حسين هيكل فى فكره وإنتاجه ... ومن هذه الجوانب التى سجلّها فى إنتاجه جانب «الرحلات» . ويمتاز أدب الرحلات عند الدكتور هيكل على غيره من الكتّاب الذين عنوا بهذا الجانب قديماً وحديثاً بأنه قد انتقل بأدب الرحلات إلى شىء آخر نستطيع أن نسميه ثقافة الرحلات فهو فى كل موقع يذهب إليه لا يكتفى بعبقرية الوصف للطبيعة أو الناس ، إنما هو حريص على أن يقدّم لك فكرة تكاد تكون كاملة عن ظروف هذا الموقع سياسية كانت أو اجتماعية وما تعكسه هذه الظروف على أهله .. ولعل هذا المعنى أوضح ما يكون عبر هذا الكتاب فى باب «الأقليات الإسلامية» .

فى هذا الفصل تجد تحقيقاً صحفيا عميقا عن ظروف الأقليات الإسلامية فى بعض بلاد أوروبا .. ثم هو لا يتوقف عند هذا التحقيق بل إنه يعلق على الأحداث فى هذا المجال بما كان ينبغى أن يتعامل به العالم الإسلامى مع هذه الأقليات قبل

أن تستفحل مآسيها ، وأنت تقرأ هذا الفصل الذى كتب فى العشرينات فيخيل إليك أنه يتحدث عن أحداث التسعينات فى جمهورية البوسنة والهرسك !!

ولو أن العالم الإسلامى كان مؤهلا فى تلك الأيام لأن يستجيب لهذا النداء الهيكلي لما حدث ما نراه الآن من فواجع لهذه الأقليات .

●●●

لقد كانت الرحلات فى مسار حياة الدكتور هيكل جزءا لايتجزأ من برنامج حياته .. فهو منذ كان فى باريس يستعد للحصول على أول دكتوراه فى الحقوق - لشاب من مصر بل من الشرق - كان حريصا على أن يقضى أيام إجازته فى لندن ولم يكن يذهب إلى لندن وهو فى عز صباه ، لكى يسرح ويمرح بل لكى يتابع أعمال مجلس العموم البريطانى ومجلس اللوردات البريطانى .. وفى مذكراته الخاصة الشىء الكثير عن مشاهداته هناك . وكانت تلك إشارة مبكرة من القدر لما كان ينتظر هذا الشاب فى مستقبله من مسئوليات سياسية جعلته أحد حكماء السياسة فى بلاده وأحد زعماء هذه البلاد فى مرحلة من أدق مراحل التاريخ المصرى : مرحلة ما بين الثورتين ثورة ١٩١٩ وثورة يوليو سنة ١٩٥٢ .

أذكر حينما بدأت عملى فى مهنة الصحافة مع الدكتور هيكل فى جريدته الشهيرة «السياسة الأسبوعية» - وكان ذلك سنة ١٩٣٧ - لاحظت أنه يعنى بتدريبى على تحمل مسئوليات الجريدة رغم أننى كنت مبتدئا ثم تبينت أنه عنى معى بذلك لأنه كان مزمعا السفر فى رحلة إلى بريطانيا ومنها إلى غيرها .



والمؤكد أن رحلات الدكتور هيكل التى أفاد منها قراء العربية الشىء الكثير أمس واليوم ، قد أفاد هو نفسه منها الشىء الكثير أيضا ، وهذا واضح من كون النقاد والمعلقين قد تكلموا كثيرا عن تفوق أسلوب الدكتور هيكل فى أدب الوصف ولكن حصيلته من هذه الرحلات لم تقف عند عبقرية الوصف ، بل امتدت إلى عبقرية الحياة ذاتها .. وأذكر بهذه المناسبة أن لورد ستانسجيت الذى جاء إلى مصر سنة ١٩٤٦ ليبدأ المفاوضات بين مصر وبريطانيا مع رئيس الحكومة المصرية آنذاك وهو إسماعيل صدقى باشا المشهود له بالحكمة السياسية - أن هذه المفاوضات حين أخذت تتعثر - قال اللورد ستانسجيت : لو كان رئيس الوفد المصرى هو الدكتور هيكل لما تعثرت هذه المفاوضات .

لقد كان اللورد ستانسجيت قد تعامل مع هيكل باشا فى

المؤتمر البرلماني الدولى الذى كان يرأسه اللورد وكان هيكل باشا رئيس وفد مصر فى هذا المؤتمر .. وتشاء المقادير أن يخلف الدكتور هيكل اللورد ستاتسجيت على رئاسة هذا المؤتمر الذى انعقد بالقاهرة بدعوة من هيكل باشا رئيس مجلس الشيوخ المصرى ...

وفى حفلة عشاء أقامها هيكل باشا لأعضاء المؤتمر بفندق هليوبوليس بالقاهرة وقف اللورد ستاتسجيت يهتف «يحيا الدكتور هيكل» .

إننا إلى اليوم وإلى الغد نبحث عن المشروع الذى قدمه هيكل باشا للمؤتمر البرلمانى الدولى وللجمعية العامة للأمم المتحدة وكان يرأس وفد مصر أيامها وهو مشروع «إعادة تدوين الأخلاق الدولية» ولو ظهر هذا المشروع الذى قدم باسم مصر لوجدنا فيه التشخيص الكامل والعلاج الكامل لما نشكو منه الآن دولياً .. لكن الدول صاحبة النفوذ أمس واليوم حاربت هذا المشروع حتى أخفته عن الأنظار .



ولقد كانت لرحلات الدكتور هيكل بصمات كثيرة فى حياتنا السياسية العامة ، وقد نبهنى لذلك المرحوم الرئيس السودانى الأول إسماعيل الأزهرى وهو يقول لى فى وقت مبكر. «إن

كتاب الدكتور هيكل – عشرة أيام فى السودان – جدير بأن يكون مرجعاً أمام كل سياسي فى وادى النيل يتعرض للمسألة السودانية ، مع أنه كان كتاب رحلة ولم يكن كتاب سياسة !!»

هذه واحدة من البصمات التى شغلت الأفكار من آثار رحلات الدكتور هيكل . أما الثانية فهى أنه قد اشترك فى ربيع سنة ١٩٢٩ فى مؤتمر للصحافة العالمية ببرلين ، وعاد من هذه الرحلة مبشراً بضرورة إنشاء معهد لتخريج الصحفيين الجدد بمصر بعد أن صارت الصحافة علماً . وشاء القدر أن تستجيب جامعة القاهرة لهذه الرغبة .. فى حين صار الدكتور هيكل وزيرا للمعارف وذلك فى العام الدراسي ١٩٣٨ -١٩٣٩ وكان من المشاركين فى الدعوة وإنشاء هذا المعهد صديقاه الدكتور طه حسين الذى كان آنذاك عميداً لكلية الآداب التى تبع لها المعهد ، والدكتور محمود عزمى أول من رأس إدارة هذا المعهد الذى تخرج فيه كبار علماء الصحافة والإعلام الذين عملوا فى هذا المجال .



على أن هناك جانباً آخر من رحلات الدكتور هيكل ، هو جانب رحلاته الفكرية أو حركاته الفكرية التى خاضها بقلمه ولسانه فى مصر والعالم العربى .

إننى هنا سأتجاوز عن مرحلة النشأة لأصل مباشرة إلى الرحلة الفكرية الكبرى التى بدأها بكتاب «حياة محمد» سنة ١٩٣٥ ولعل الكثيرين لا يعرفون أن كتاب «حياة محمد» كان فى بدايته رداً على تهاويل بعض المستشرقين .. ثم عظمت هذه الحركة بما تبعها من كتبه عن الخلفاء الراشدين ، ولم تكن هذه المجموعة من كتبه الكثيرة مجرد إحياء للتراث إنما كانت عرضا لهذا التراث بالأسلوب العلمى الذى يفهمه المعاصرون مما حدا بكل كبار الكتاب المصريين أن يحذوا حذوه فى هذه الحركة المباركة والتى حفظت التوازن بين الأصالة والمعاصرة والتى ردت شباب الأجيال المعاصرة عما كان قد احتواها قبل ذلك من الافتتان بالحضارة الغربية وحدها بعد أن أظهرت هذه الحركة أن لنا تاريخاً عريقا فيه كل عناصر الحضارة الروحية التى لا غنى عنها لاستقامة البحث الحضارى المعاصر .

إننا ، نحن الذين نعيش معارك الفصل الأخير من القرن العشرين ، أكثر الناس إحساساً بما كان لتلك الحركة من ضرورة ثقافية مباشرة فلنقرأ هذا الكتاب ، كتاب «رحلات الدكتور هيكل» لنشاهد فيه بعض ملامح الفكر المصرى الذكى الذى نظر إلى ما فى أيدى غيرنا نظرة عميقة صادرة من عيون الذين ورثوا حضارة الإنسان من قديم الزمان .

«حافظ محمود»

الباب الأول

رحلات بين الأدب والسياسة

فى وطن شكسبير

لست أقصد وطنه إنجلترا ، وإنما أقصد وطنه فيها ، أقصد مدينة ستراتفورد القائمة على نهر إيفون إن صح أن يسمى هذا البلد الصغير مدينة ، وأقصد ما يحيط بها من طبيعة هى أول ما تفتحت عليه إنسانية الشاعر النابغة الخالد خلوداً لا سبيل إلى أن يجنى عليه الزمان . فقد زرت هذه المدينة ، أو هذا البلد ، أثناء مقامى وزملائى الصحفيين بانجلترا ، وقد أقمنا به يومين كاملين تجولنا أثناءهما فيه وفيما حوله ، وأتيح لى أن أضرب أنا وزميلى الشاب الأستاذ عبداللطيف صادق فيما يتصل به من أحراش وزرع وطبيعة نضرة . وفى هذه الجولات القصيرة استطعت أن أفهم من شكسبير أضعاف ما كنت أفهم منه من قبل ، وأن أنفذ إلى روحه من خلال هذه الطبيعة التى خلعت على شعره وعلى عبقريته من إلهامها ما يثير فى النفس النشوة التى تسحرها أكثر مما تثير فيها الإعجاب والتى تشيع فى جوانب الفؤاد من الطرب ما يبعث إلى الحياة بسمة النعمة فى أشد مواقف الحياة عبوسا وبأسا .

زرت ستراتفورد فى أوائل أيام الخريف ، فلم أكد أراها حتى وقفت دهشاً مأخوذاً ... إذا كان هذا جمالها في الخريف فما عسى يكون جمالها فى الربيع ؟ وإذا كانت بسامة الخضرة في أخريات سبتمبر مثل هذا الابتسام فما عسى يكون زهرها وأريجه الفياح وألوانه البديعة فى شهر مايو إذ يتنفس الشجر عن أوراقه الزاهية المزهرة بعد عبوس الشتاء القمطرير. لقد بلغ من أثر هذا الجمال فى نفسى أن توجهت إلى الله بصلاتى موليا وجهى شطر النافذة التى كشفت فى بكرة الصبح عن هذا السحر الرائع من خلق الله جاعلاً منها قبلتى ، لأننى لم أعرف اتجاه البيت الحرام لأولى وجهى شطره. وذكرت إذ وقفت للصلاة قوله تعالى : (فأينما تولوا فثم وجه الله) . تعاليت ربى سبحانك ، إن فى كل شىء لك آية تدل على عظمتك وعلى جلالك ، وعلى أنك أبدعت من خلقك ما يوحي لمن وهبتهم أسباب النبوغ خير ما يخلد على الأجيال ليكون للإنسانية غذاءها النفسى الذي يعاونها على إدراك الحقيقة من أمر هذا الكون .

إذا كان هذا جمال ستراتفورد فى الخريف فماذا عسى يكون جمالها فى الربيع ؟ لم أكن بحاجة إلى ما قصه لى أهل المنطقة لأتصور هذا الجمال وفتنته ، فقد خلده شكسبير فى

شعره حين حديثه عن شهر الجمال والحب · مايو ، خلده فى أنغام لاتزال أصداؤها الشجية تتجاوب فى سمعي على طول العهد بينى وبين قراءة شكسبير ، أنغام ساحرة تقفك عندها وتدعوك أن تستعيدها وتبقى فى ذهنك زمناً طويلاً بعد تلاوتك إياها . وهى تبقى أنغاماً أكثر منها كلاماً ، وصوراً أكثر منها ألفاظاً . بل هى تبقى صورة كاملة لهذه الطبيعة البديعة التى أراها اليوم فى زينة الخريف وقد كستها صورة الشاعر زخرف الربيع وبهاءه ، وكأنما نفث فيها من روحه الحياة التى يخلعها الربيع على الطبيعة فى أبهى ألوانها ، فإذا هذه الحياة استحالت أنغاماً لا يجنى عليها الخريف ولا يخفت صوتها الشتاء ، بل تبقى ربيعية ضاحكة رغم تعاقب الفصول وماله فى الطبيعة من أثر .

جلت فى أنحاء المنطقة التى تفتحت عليها عبقرية شكسبير، أين طبيعة الريف الإنجليزى فى أنحائه المختلفة منها فى ستراتفورد وفى وارك وفى لمجنتن وفى تشبنج كامدن ، وفى تكسبرى ، وفى هذه المنطقة الساحرة كلها . الريف الإنجليزى جميل ما بعدت عن المناطق الصناعية فى إنجلترا وعن دخانها وضجتها . ولقد بلغ من جماله أن قال غير واحد من كتاب أوروبا ورجال الفن فيها : إن إنجلترا حديقة متصلة من جنوبها

إلى شمال اسكتلندا . لكن منطقة ستراتفورد ليست الريف الجميل وكفى ، بل هى الفتنة الساحرة التى تلعب باللب وتأخذ بالفؤاد ، لقد سمعتهم يقولون إن فى إنجلترا مناطق أبرع منها جمالا وما أدرى كيف يكون هذا الجمال الذى يتحدثون عنه . إنه ربما اختلف عن جمال هذا الوطن الذى أنبت شكسبير وأوحى إليه من آيات الشعر الخالد ما أوحى ، أما أنه أبرع فتنة من منطقة ستراتفورد فذلك ما يدهشنى ، وذلك ما جعلنى أفكر في زيارة هذه المناطق من إنجلترا يوم كنت بها . ولولا أننى وضعت برنامج رحلتى من مصر وإليها يوم ركبت البحر أقصد العاصمة الإنجليزية ، ثم كان فى هذا البرنامج ما لم ترض نفسى بالعدول عنه ، إذن لزرت بلاد الغال ومنطقة البحيرات وشمال اسكتلندا لأرى هذه الجهات التى يفضل بعضهم جمالها على جمال الوطن الذى أنبت شكسبير .

ليست منطقة ستراتفورد جبلية كسويسرا أو كمناطق الأوفرن والسافو العليا في فرنسا . وليست بها بحيرات كليمان ولوسرن ولا كالبحيرات الإيطالية . لكنها كذلك ليست منطقة مستوية استواء مصر . بل هي منطقة متموجة يقع النظر فيما حولها على جبال ليست شاهقة ، وتتفاوت الطبيعة فيها بين الانخفاض والارتفاع تفاوتاً سريع الاطراد يعلو بك ويهبط

ويريك كلما علا وكلما هبط جديداً من سحر هذه الطبيعة ، فهي ساحرة حقاً . خضراء نضرة كأنها بساط من سندس ، ترتفع الأشجار فوق مرتفعاتها ، وتنبسط الخضرة فيما استوى منها ثم لا تبلغ الأفق إذ ترتفع فيها سلاسل من آكام وهضاب أو تنبت فيها غابات وأدغال . وقد نجد أحيانا جدولاً من الماء ينساب هادئاً ، ليس له من الجلبة ما للايفون عند قلعة وارك ، وله مثل هدوء الايفون إذ يمر تحت مسرح شكسبير التذكارى بستراتفورد دون أن يكون له مثل سعته ، وسعة الايفون لا تزيد على سعة ترعة صغيرة فى مصر ، لكنه فى وسط هذه الطبيعة الساحرة أشبه شيء بالابتسامة ينفرج عنها ثغر الحسناء . وها هنا وهناك تقوم قرية ظريفة قليلة المنازل جميلة البناء تبعث فى جو هذه الحياة الطبيعية البديعة معنى إنسانياً فيه فن وفيه اتساق مع هذا الجمال الفاتن ، وتقوم كذلك قصور كانت من قبل حصوناً لأصحابها ، وهى اليوم أدنى إلى أن تكون متاحف ينعم الشعب برؤية ما فيها منذ أصبح الشعب سيداً له الكلمة بعد أن كان مجاميع فى حكم أصحاب القصور والقلاع تؤمر فتطيع ، ولصاحب القصر عليها حق الحياة والموت.

قلت فى نفسى : أفكانت هذه الطبيعة بالغة من السحر فى عهد شكسبير مبلغها اليوم ؟ لم تكن فيها هذه الطرق البديعة

الرصف تخطفها السيارات مسرعة حيناً ، مبطئة ليتمتع من فيها بهذا الجمال حيناً آخر . هذا أمر لا ريب فيه ، ولعل شيئاً قليلاً أو كثيراً من هذا التنظيم الذى قضت به حياة عصرنا لم يكن كذلك قد أدخل عليها . وهى لاريب كانت أدنى إلى الطبيعة كما صورها بارىء الطبيعة . وأحسبها لذلك كانت أعظم وجه لهذا الشريد الطريد شكسبير . فلا وحى كوحى الطبيعة البكر، ولا شىء أبعث للإنسان على أن يندمج فى أحضان الطبيعة وعلى أن يدمجها فى نفسه من أن يراها حية حياته لم يعدُ عليها أحد قبله، ولم يعبث بها غيره باسم الفن أو باسم النظام. هنالك يقيم الإنسان الموهوب من وحيها صروحاً فنية قوية شامخة ثابتة على وجه الزمان كما يقيم البناء قصراً من أحجار نحتها من الجبل نحتاً ، أما الطبيعة المهذبة المنظمة بعمل الإنسان فدون تلك الطبيعة البكر لم تهذب ولم تنظم فى أخذها رجل الفن عن نفسه فى وحيها إليه . وما يقيمه رجل الفن من وحى الطبيعة المهذبة المنظمة أشبه بالبناء الذى يقام من أنقاض بناء سبقه . لاجدال فى أن الطبيعة المنظمة أدنى إلى منفعة الجماهير ، ولعلها أبعث بالمتاع إلى نفوس الكثيرين منهم . لكن النابغة ليس من الجماهير إلا ما تكون الشجرة الضخمة الكثيرة الثمر من النبات القائم حولها تعبث به الرياح

وتغذيه الصناعة بأسمدتها ، أما الشجرة الضخمة فتضرب بجذورها فى أعماق الأرض إلى حيث لا تصل أسمدة الصناعة لتستمد من هذه الأعماق غذاءها ، فيكون ثمرها بهذا الغذاء المبكر أشهى وأكثر للنفس إمتاعاً .

أتممت هذا الحديث فيما بينى وبين نفسى وتصورت الصبى وليم شكسبير يضرب بين أحضان هذه الطبيعة وكانت بكراً كما أضرب أنا وأصحابى فيها بعد أن هذبتها الصناعة ويضرب فيها على قدميه لا تمر به سيارة أو قل ما يستوقفه عربة يجرها الجياد ها هو ذا أمامى يسير وعيناه الزرقاوان الجميلتان تلتهمان كل ما حوله ، وتقعان على فراشة تارة فيسرع الطفل ثم يجرى لكى يقتنصها ، فإذا ظفر بها أو فاتته عاد يمشى الهوينا أو يجلس إلى ظل شجرة يشم شذا أزهارها وأريج ما حولها من زهور الربيع المنثور حوله وهو ينهل من هذا كله بكل حواسه ويدمجه فى نفسه ، وليس يعلم ما كتب له القدر فى لوحه ، ويعود فى المساء إلى داره يقرأ قصصاً قديمة عن إيطاليا والحياة فيها تبعث فى ذهنه بهذا الوصف البارع ، وهو فى أثناء هذا كله يرى الناس ويتصل بهم ويلاحظ بنظرته أحوالهم وشئونهم وكما أنه يرى الطبيعة بغير العين التى يراها بها سائر أهله ، فهو يتمثلها فى دخيلة

نفسه حتى لتصبح جزءاً منه. كذلك شأنه مع الناس يراهم ويمثل في أطواء قلبه صورة منهم وتتقدم به السن ويزداد بهذه الطبيعة البارعة اتصالاً ، فإذا تم له هضم ذلك كله لم يكن له بد من أن يتنفس بما في قلبه وأن يترنم بالأنغام التي سلكتها هذه الطبيعة إلى نفسه ، فيكون من ذلك الشعر الرائع الخالد الذي تقرأ له والذي كتب على القدر الخلود .

هذا وحي الطبيعة وأثره في شعر شكسبير . وإنما هي إلمامة بما رأيت ، لم أقصد فيها إلى تحليل للشاعر ولا لشعره، ولكني سحرت بهذه الطبيعة الفاتنة ، فرأيت أن أشرك قراء هذه الجريدة في سحرها وحسبي ما قدمت من ذلك ولعلى أعود له .

تطور الكوميدى فرانسيز
مداه ودلالته

ما أسرع ما تتغير أوروبا فى هذه السنوات الأخيرة ، لم تمض بعد سنوات ثمانية منذ زرتها للمرة الأخيرة . وهاأنذا مع ذلك أرى فيها من التبدل ما أستعد للتفكير فيه قبل الحكم عليه ، أصالح هو أم غير صالح . بلغت باريس صبح السبت الحادى عشر من هذا الشهر - شهر سبتمبر سنة ١٩٣٧ - وحرصت أن أرى الكوميدى فرانسيز فى المساء ، فليس أحب على نفسى فى حياة باريس أثناء الصيف من مسارحها ، وليس بينها مسرح بلغ من الكمال ما بلغته الكوميدى . وأعجبت بما رأيت يومئذ أيما إعجاب ، ثم زرت الكوميدى يوم الإثنين الثالث عشر من سبتمبر ، وأعجبت أيضا ، لكن ... لكن هذه الكوميدى فرانسيز ليست الكوميدى فرانسيز التى ألفت أيام كنت طالباً من سنة ١٩٠٩ إلى سنة ١٩١٢ والتى رأيت بعد ذلك فى الصيف من السنوات الأربعة المتعاقبة التى زرت فيها باريس بين سنتى ١٩٢٦ و ١٩٢٩ ، كانت الكوميدى صلة

الحاضر بالماضي فكان ما يمثل فيها أكثره لمؤلفين يرجعون من عهد لويس الرابع عشر إلى القرن الماضي ، وكان ما يمثل فيها لمؤلفين معاصرين لا يمثل فيها إلا بعد أن ينال إعجاب النقاد الفنيين وإعجاب الجمهور على مسارح مختلفة . بعد ذلك يمكن أن تقر الكوميدى فرانسيز تمثيله على مسرحها . وإذا قلت بعد ذلك فأنا أقصد بعد سنين من تمثيله ، فلم يكن يكفي رضا النقاد أو إعجاب الجمهور بالرواية أول ظهورها ، فكم رواية أعجب الناس بها أول أمرها ثم عرضت للسنة الثانية على المسرح فإذا الجمهور يعرض عنها وإذا النقاد الذين لم يتكلموا أول الأمر يتناولونها بنقدهم بما يحط من قدرها وما يحول بينها وبين الوصول إلى هذا المسرح القومي الذي يعتبر عنوانا من عناوين مجد فرنسا .

كذلك كان شأن الكوميدى كما ألفتها فيما مضى ، أما اليوم فقد فتحت الكوميدى أبوابها للألوان الجديدة من روايات المسرح ، وهى روايات لها من غير شك قيمتها الفنية السامية فى نظر النقد الحديث ، وهى تنال من تحبيذ النقاد ومن الجمهور حظاً عظيما لكنها قد أحدثت من الانقلاب الثورى فى النفس المسرحى ما كانت الكوميدى تتئد عادة أزماناً طويلة قبل إقراره ، ترى أى شيء أحدث فيها هذا الانقلاب وقد

ترددت في قبوله إلى عهد قريب ؟ النقاد والجمهور لاريب ، فقد علت الصيحة بأن المسرح القومى لابد أن يمثل الذوق القومى كما هو أيا ما كان ، وليكن مسرح الأديون ، وهو المسرح القومي الثاني ، هو الحفيظ على تقاليد الماضى بعد أن يصبغها بصبغة الحاضر قدر المستطاع ، فمن شاء أن يسمع تمثيل راسين وكورنى وموليير وفولتير وفكتور هوجو فعليه بالأديون ، أما الكوميدى فيجب أن تساير العصر وأن تعيش معه وأن تظهر الناس على خير ما تنتج القرائح الفرنسية ، والقرائح العالمية من آثار الفن المسرحى التى يصبو إليها أبناء هذا الجيل .

هل لهذا التطور فى الكوميدى فرانسيز دلالة اجتماعية خاصة ؟ أود قبل أن أجيب عن هذا السؤال أن أذكر أن موجة الجديد لم يقف أمرها فى الكوميدى فرانسيز عند الروايات التى تمثل على مسرحه ، بل لقد طغت كذلك على حياته الداخلية . كان بيت موليير – وذلك اسم الكوميدى عندالأدباء الأقدمين – وقوراً فى كل مظاهره ، حتى مقهاه الذى كان يتناول الناس فيه المرطبات فيما بين الفصول قد كان منزوياً فى ناحية من طابقه الأول قليلة الأنوار يشعر الإنسان إذ يغشاها أنها ليست مكان إقامة طويلة ، فكان الناس لذلك

يسرعون إلى تناول ما يريدونه منها ، ثم يذهبون إلى بهو الطابق الأول . هذا البهو الفخم الجميل الذى يشعرك عظمة فرنسا المسرحية بالتماثيل المقامة حول جدرانه يتوسطها تمثال فولتير كاملاً جالساً على مقعده فوق نصب كبير ، أما من أراد أن يدخن فقد وجب عليه أن يهبط إلى الطابق الأول وأن يذهب منه إلى دهليز متصل بالطريق فيه تماثيل عدة كذلك ، أحدها تمثال صاحب الدار موليير . أما اليوم فقد نقل المقهى ، أو البار إن شئت ، فاسم البار أجدر بالمكان الحالى ، إلى غرفة فتح لها باب من ذلك البهو الجميل ، بهو فولتير ، وأضيئت إضاءة قوية تستهوى النظر . بذلك لم يبق بهو فولتير هذا البهو المهيب الذى كان مرتاد المتأنقين والمتأنقات بل صار مجالا للبار ورواده لذاته . أما التدخين فقد صار مباحاً في الردهة الكبرى من مدخل التياترو ، ولم يبق مقصوراً على دهليز موليير .

طبيعي أن لا يعنى الناس إذ يذهبون إلى الكوميدى اليوم بتغيير ملابسهم . وهم قد عدلوا عن هذا التقليد الذى كان متبعاً قبل الحرب وبعد أن انتهت ، وبعد أن جعلت الأزمة الاقتصادية الناس أدنى إلى عدم التدقيق في أمر الملابس واختيار النفيس منها لهذه الحفلات ، لكن الأزمة الاقتصادية زال بأسها فكان حرياً أن يعود الناس إلى نظامهم الأول لولا

أن كان التطور الاجتماعى وتطور التفكير أقوى من الأزمة الاقتصادية . فهم يدفعون اليوم أسعاراً عالية للدخول إلى بيت موليير ، وهم يزحمونه كل يوم فما تجد به مقعداً خالياً بعد بدء التمثيل بدقيقة أو دقائق . لكن التطور الاجتماعى بقى على عدم العناية بتغيير اللباس والتردى فيما وراء ذلك إلى تقاليد البقاء فى المقهى والتدخين ثم تناول هذا التجديد المسرحيات المعروضة على النظارة .

وملاحظة أخرى أبديها قبل الكلام عن الدلالة الاجتماعية لهذا التطور . كان بيت موليير شديد الحرص على أن لا يمثل من المسرحيات إلا ما اتفق فى صفاء اللغة مع (الكلاسيك) وكان يرى نبواً على تقاليده أن تمثل فيه رواية تنزل إلى لغة الحديث الدارج . لذلك كان لممثليه من الشهرة فى جمال الإلقاء ما يجعل هذه اللغة الفرنسية التى صقلت على الزمان فصفاها من كل شائبة وكأنها الموسيقى ، وكان الممثلون يقفون ولا يتكلمون ، وهم إنما يتكلمونها كما يجب أن يتكلم بالفرنسية أبناؤها المهذبون ، لذلك لم يكن تزيين المسرح فى الكوميدى فرانسيز بالأمر الجوهرى إلى الحد الذى يوقف النظر ويبهره ، وكان الناس إذا تحدثوا عن سلفان أو مدام بارتيه أو ألبير لامبير وغيرهم من ممثلات الكوميدى وممثليها تحدثوا عن

قواعد الإبداع فى الإلقاء والدقة فى التعبير عن العواطف الإنسانية والتفكير الإنسانى أكثر مما يتحدثون عن دقة الموافقة للطبيعة وللبيئة المحيطة بأهل العصر . أما اليوم فقد أصبح تزيين المسرح والإبداع فيه أمراً جوهرياً فى الكوميدى حتى لقد برزت فيه أحدث المسارح وأصبحت الدقة فى موافقة الواقع حولنا أمراً جوهرياً إلى حيث لا يصل جمال اللغة ولا السمو فى التعبير عن الإحساس والعواطف ، صار الإنسان ثمرة بيئة وصار المسرح فى بيت موليير يعنى بتمثيل البيئة وأثرها فى الإنسان ، ويعنى بتصوير الإنسان كما تثمره هذه البيئة دون تقدير لما وراء ذلك من أمر اللغة وصفائها وجمال رنينها . لم يبق رجل الصحراء يعبر عن حياته بلغة فرنسية جميلة يصف بها وصفا شعرياً ما يلاقى فى الصحراء ، بل صار ابن الصحراء بالفعل ، يتكلم كما يتكلم أبناء الصحراء ، وتحيط به بيئة صحراوية بالغ مزين المسرح فى إتقانها ، بذلك جارى بيت موليير حياة هذا العصر وخرج من ثم على تقاليده.

دلالة هذا التطور عندى أن ثورة الحاضر بالماضى بلغت فى هذا العهد الأخير من القوة أن طأطأ الماضى هامته للحاضر تاركاً المكان له ، مكتفياً بأن يبقى فى ركن من أركان باريس ، هو ركن الأديون ، متحفاً يراه الناس فيه مصوراً لا

كما كان ، ولكن كما يفهمه أهل هذا الجيل . ولا عجب فى أن ينتصر الحاضر فى عصرنا على الماضى ، وأن يسلبه أقداسه، فقد أسرع التطور فى حياة العالم منذ بدأت الحرب الكبرى فى سنة ١٩١٤ إلى وقتنا الحاضر حتى لا يبالغ من يقول إن العالم خطا فى هذه السنوات العشرين التى مرت منذ الحرب أكثر مما خطا فى بضعة قرون فى أى عهد من عهوده . عبر بليريو المانش فى سنة ١٩٠٩ على طائرته فكان عبوره المانش على الطيارة يومئذ أعجوبة الأعاجيب ، ومجازفة المجازفات . وكنا نسمع الفونوغراف فى ذلك العهد على اسطوانات قلما تبين إلا إذا وضع الإنسان السماعة فى صمام أذنه . وكان الحديث فى أمر التليفون اللاسلكى ، بله الراديو خرافة يتسلى بها الناس لقضاء الوقت حين لا يكون لديهم ما يعملونه . وكانت القيم الخلقية مقررة على صورة لا تحتمل الجدل . وها نحن أولاء فى عشرين سنة ننكر ماضينا فإذا قصصنا ذلك على أبنائنا خيل إليهم أننا نحدثهم عن أساطير الماضى أو يدور بخلد أحد من هؤلاء الأبناء أن باريس ولندن كانتا قبل سنة ١٩١٤ لا تعرفان السيارات إلا مظهراً من مظاهر الفخامة والعظمة وأن عربات الخيل هى التى كانت تتولى النقل لمن أراد أن يتخذ مطية للسير غير قدميه . أو يصدق أحدهم أن الراديو

والتليفون اللاسلكى وهذه الألوان البديعة العجيبة من الإضاءة الكهربائية لم تكن معروفة أول صبانا ، وهذا مع ذلك هو الواقع، ونحن مضطرون للانحناء أمامه ولإقرار سلطانه ، ونحن لا نسلم له أنه فكرة تسلطت وفي المقدور التغلب عليها للعود إلى فكرة سبقتها وإن اقتضى ذلك أجيالاً ، بل نسلم به على أنه الأمر الملموس الذى لا يغلبه إلا أمر ملموس مثله يكون أعظم منه أو أبعد في الحياة أثراً . أما وقد انتقلنا على الأجيال بهذه السرعة التى تتضاءل سرعة البرق أمامها فلن يستطيع بيت موليير أن يحتفظ بعرفان ماضيه أو يزعم أنه يستطيع أن يسقط بهذا الوفاء على الحاضر السريع المدد والتغير ، المندفع إلى هذه الحياة الجديدة اندفاع الطفل إلى لعبة استهوته فهو يستهين بكل شىء فى سبيلها .

يقول الشيوخ إذ يرون هذا كله ، ويرون سلطان الماضى الذى ألفوا يذوى وينزوى . ولكن ! أنحن بهذا التطور أسعد حالاً ؟! ولعل أجدادهم الذين سبقوهم إلى العالم الآخر يبتسمون هم الآخرون حين يسمعون هذا السؤال . فهم قد سألوا مثله ، وتحدثوا كما نتحدث نحن عن السعادة ثم عرفوا آخر الأمر أن السعادة ليست غايتنا من هذه الحياة ، وإنما غايتنا منها أن نعرف . نعم المعرفة ، العلم ، هذه هى الغاية .

إليها يسعى الطفل ، والصبي ، والشاب ، والرجل ، في سبيلها نحتمل كل شيء وتضحى بكل شيء ، وأوفرنا منها حظاً أرفعنا في الإنسانية درجة . ولا ريب أن هذا التطور الحديث فيه من معرفة العالم شيء لم يكن معروفاً من قبل ، وهو من هذه الناحية دون سواها يدل حقيقة على مظهر يفرح له كل محب لهذه الإنسانية .

من شأن كل تطور أن يقف يوم يبلغ مداه . ويومئذ يبدأ التفكير في تنظيمه والطمأنينة إليه وما يسمونه السعادة به ، عند ذلك تبدأ عيوبه تتضح للناس . وعندئذ يبدأ سلطان الماضي يملأ مقاييس قدره من جديد لنقيس بها عيوب التطور وفضائله. لكني أحسبنا بعيدين عن هذا المدى . وأحسب الكوميدي فرانسيز لاتزال لذلك تمثل التطور الحديث في صلته بالماضي وغلبته إياه فإذا جاء الوقت الذي يبدأ فيه النقد والتقدير خطت الكوميدي خطوة غير خطوتها الحاضرة . ماذا عسى أن يكون اتجاهها يومئذ ؟ هل تعرض موليير وراسين مرة أخرى ؟ أيندرس عصر راسين ويبقى أثراً شأنه شأن عصر الرومان وعصر اليونان وعصر الفراعنة الذي سبق هؤلاء وأولئك . علم ذلك عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى .

فى برلين
نظرة عامة سريعة

للمدن الكبيرة روح تميز كل واحدة منها عن الأخرى وتبعث إلى نفسك ، لأول ما تتصل بإحداها ، شعوراً يختلف عن شعورك حين اتصاله بغيرها من المدائن . ولقد أذكر ملاحظة سمعتها من كثير من المصريين الذين قصدوا إلى باريس تعبر عن شعورهم أول ما اتصلوا بروح باريس . سمعت هذه الملاحظة من رجال وسيدات لما تمض عليهم فى العاصمة أيام رأوا فيها خلالها ضجة المدينة وازدحامها وحركتها الدائمة ونشاطها الذى لا يعرف الونى ، وما يشتمل ذلك كله من ابتسامة لا تفارق ثغر مدينة النور : «هل هذا مولد النبى» ! بهذه الجملة عبر غير واحد عن شعوره كما عبر غيره بما يقرب منها . والحق أنك تشعر وأنت بباريس بمثل شعورك وأنت فى

فى الوقت الذى عادت فيه ألمانيا إلى وحدتها وقررت العودة إلى اتخاذ برلين عاصمة لها ، لعل من المناسب أن يطلع القارىء على صورة لما كانت عليه قبل الحرب العالمية الثانية استكمالا لما كتبه الدكتور هيكل عنها فى كتابه «ولدى» (الناشر - ١٩٩٢)

أحد هذه الأعياد التى تقام فى مولد النبى والتى يؤمها ألوف ألوف الخلائق ، فكلهم مشغول من غير شغل ، وكلهم طائر لايدرى إلى أين ، وكلهم نشيط أعظم النشاط ، وكلهم مع ذلك قرير النفس باسم الثغر ، لأن ما حوله من دواعى الحياة باسم قرير برغم نشاطه وحركته ، ذلك بأن روح باريس مرح ونشاط وغبطة بالحياة ، أو استخفاف على الأقل بها وحرص على النهل من مواردها إلى غاية ما تستطيع النفس ، إلى الغاية التى تجعلك - على حد قول آنسة مصرية - تستيقظ أربعاً وعشرين ساعة فى اليوم لأنك واجد في كل ساعة منها متاعاً ترد منهله .

روح لندن تختلف عن روح باريس .. باريس هى التى تجذبك إليها وتجلى عليك جمالها وتحدثك بروعة ما فيها ولو حاولت أنت أن تغمض عينك عن ذلك كله . هى معطاء وهوب وإن كانت آخر الأمر تسترد أكثر مما أعطت عن جذل منك بما تهبه لها وشكر إياها على حسن قبولها . فأما لندن فلا تبتسم لك ولا تغازلك . يجب أن تبحث عنها أكثر مما تبحث هى عنك . ويجب أن تكلف نفسك فى البحث غير قليل من العناء إن كنت ممن لا يقنعون بالفتات . فإذا أنت أحسنت التعرف إليها ووصلت إلى مكان العطف منها أسلمت نفسها فى غير رياء ولا

تحفظ ، وبلغت في ذلك أن جعلتك أسيرها بأن أطلعتك من خباياها على ما لا تراه معروضا في الأسواق ولا مشاعاً لكل زائر مولد النبى . على أنك يجب ألا تطمع من عطفها فى متاع أربع وعشرين ساعة كل يوم . بل يجب ألا يعدو هذا العطف ساعات معدودات أنت في حل بعدها من أن تجعله صداقة عمل صريحة لا يتظنن أحد بها . وروح العمل فى لندن أنشط وأكثر وضوحاً منها في باريس . فأنت ترى حتى فى متاجر الحديد في باريس زينة للنظر على حين ترى متاجر أقمشة السيدات فى لندن متاجر عمل جد ونشاط متصل . ذلك بأن نشاط السعى والعمل يستقل عن الفن وجماله والعاطفة وميولها فى لندن ، على حين يخضع كل ما فى باريس لجمال الفن وميول العاطفة .

برلين تريد أن تكون لندن وأن تكون باريس معاً ، بل تريد أن تكون أعظم من لندن وأبهى من باريس . ويكفى أن تعلم أن الميزانية البلدية لبرلين فى هذا الوقت الدقيق من حياة ألمانيا الاقتصادية تبلغ خمسين مليوناً من الجنيهات لترى مبلغ ما يريد أهلها لها من عظمة وجمال . ولم لا ؟ وماذا في لندن من عظمة وفى باريس من جمال مما لايستطيع المال والعمل تحقيقه متعاونين ؟ فى باريس قوس النصر على مدخل

الشانزليزيه فليكن في برلين قوس للنصر على مدخل الأنتردن ليندن وفى ميدان يسميه الألمان خصيصا ميدان باريس ، وفى باريس عماد الفندوم مطلاً من بعد على حدائق التويلرى من ناحية وعلى ميدان الأوبرا من الناحية الأخرى ، فليكن فى برلين عماد النصر مطلاً من ناحية على التيرجارتن ، وهى أضعاف حديقة التويلرى وفيها من التماثيل ما يزين شارعاً بأكمله زينة ناطقة بتاريخ المانيا المجيد ، ومطلاً من ناحية أخرى على الريخستاج وتحيط به من مظاهر الجمال ما لا يحيط بالفندوم شيء من مثله ، وبرلين فيها كنائس لا تقل روعة ولا جمالاً عن كنائس لندن ولا كنائس باريس . ونهر الاسبرى يخترق برلين كما يخترق التيمس لندن والسين باريس . ولندن تمتاز على باريس بنظافتها التي يضرب بها المثل فلتمتز برلين على لندن نفسها في نظافتها وفى شوارعها . والحق أنه ليس فى أوروبا كلها مدينة بلغ نظام شوارعها من الدقة ، وبلغت هذه الشوارع نفسها كما بلغت المدينة كلها من النظافة مبلغ برلين . غادرناها إلى الجبل فى الخامس والعشرين من أغسطس سنة ١٩٢٨ ثم ذهبنا إلى باريس فى الثانى عشر من سبتمبر ، فبدت باريس رغم الزمن الذى فصل بين وصولنا إليها ومغادرتنا برلين قذرة حتى فى أجمل أحيائها ، حتى فى

ميدان الكونكورد والشانزليزيه . وإذا ذكرت لك أن باريس قذرة وهي المدينة التي تغسل شوارعها كل مساء حتى لتكون كالمرآة ترى فيها خيال كل ما يمر بها ، كان لك أن تقدر نظافة برلين ورونق شوارعها وبديع النظام فيها .

لكن ! ما روح برلين من روح لندن ومن روح باريس ؟ لست أدرى ما يقول عنه أهل العاصمة الإنجليزية . أما أهل باريس فيقولون : إنه روح المحدث الذى جمع مالاً فحسب . إنه بالمال يقيم له حسباً ويقيم له تاريخاً ، فبنى قصراً وأنشأ حدائق وغرسها وجمع حوله بطانة من رجال ونساء وحاشية وحشماً وخدماً وظلت نفسه مع ذلك نفس المحدث برغم ما يحاول من اصطناع أخلاق ذوى الجاه والحسب . ولقد كنت من قبل سريعاً إلي تصديق هذا إذ كانت برلين مدينة حديثة لم تمض على عمارتها فى صورتها الحاضرة أكثر من مائة سنة . لكننى الآن أعترف بأن هذا المحدث الذى بنى برلين جمع إلى الذكاء المثابرة والنشاط فاستطاع بقوة جلده وصبره وبمداومته الجد والعمل أن ينشىء فى المدينة روحاً هى روح النظام وأن يسمو فى تقليده لندن وباريس على كثير مما فى لندن وباريس وإن بقى برغم سموه مقلداً ، وإن كانت حداثته قد جعلت عظمة برلين وجمالها لما يأخذا طابعاً خاصاً ولم يخلع عليهما الزمن

من قداسة القدم ما يبعث إلى روح باريس بنوع خاص قوة وروعة تشهدهما فى طرقها الضيقة المحاطة بالمبانى القديمة الجميلة أكثر مما تشهدهما فى الأحياء المحدثة البرلينية .



هبطت بنا الطيارة من برلين فى مطار تمبلهوف يوم ١٣ أغسطس سنة ١٩٢٨ بعد أن أرتنا نظرة الطائر منها غابات تلمع من خلالها مياه بحيرات تمتد حولها مروج فسيحة وأحراش واسعة تحيط بها منازل وعمائر . وأقمنا بعد ذلك ببرلين إثنى عشر يوماً نجوس خلال الغابات والبحيرات والمروج والأحراش وخلال المدينة العظيمة كلها . ولعل أول ما يلفت النظر فى العاصمة الألمانية إرادة العظمة . فالألمان ميالون للضخامة فى كل شىء . وميلهم هذا يبدو أمامك صريحاً واضحاً فى كل ما ترى . فهذه التيرجارتن غابة فسيحة جميلة النظافة تنبسق أشجارها وسط برلين وتقوم منها - على حد تعبير الألمان - مقام الرئة من الإنسان . وخلال هذه الغابة تتقاطع الشوارع العريضة المتقنة الرصف المحدثة عن إرادة العظمة وعن الحرص الدقيق على النظام ، والتيرجارتن يقصد منها ، كما قدمت ، إلى مضاعفة غاب بولونيا فى باريس . لذلك تجد فيها ما تجده فى غاب بولونيا من أسباب الرياضة

والمسرة . تجد فيها الطرق المرصوفة للاتومبيلات كما تجد الطرق الفسيحة المتروكة من غير رصف لرياضة راكبي الخيل. وتجد في ناحية منها حديقة الحيوانات كما تجد حديقة «الأكليماتاسيون» في غاب بولونيا وتجد متصلاً بها بعض البحيرات على نظام يختلف بعض الشيء عن بحيرات غاب بولونيا التي تتوسط الغاب فتزيده روعة وجلالاً . على أن لهذا الخلاف سببه . فالتيرجارتن ببرلين تتوسطها على خلاف غابة بولونيا الواقعة خارج باريس . وبرلين يقع خلالها وخارجها من الغابات والأحراش والبحيرات الشيء الكثير مما لا تجد له نظيراً في باريس ، وإن كنت تجد مشابهة في الهيدبارك والكنزنجتون بارك وسائر رياض لندن المتصلة بعضها ببعض أو تكاد . وتكثر هذه الغابات في الأحراش ببرلين كثرة ما أحسبها اجتمعت لعاصمة غيرها . وهذا هو ما يخلع عليها نضرة وبهاء وشبابا غضاً قد يتنافر بعض الشيء مع إرادة الضخامة والعظمة البادية في جميع نواحيها . فإذا أنت قصدت إلى أي طرف من أطرافها قابلتك غابات وأحراش أخرى فسيحة ممتدة إلى ضواحيها وإلى ما بعد الضواحي . وهذه الجرونفالد تكاد تكون غابة لا يدرك لها النظر حدوداً ، وهي ليست بعد من أحياء برلين الواقعة في أطرافها . فإذا

أنت خرجت بعد ذلك قاصداً بوتسدام أو غير بوتسدام من الضواحي انفسحت أمامك مروج وتوسطت المروج بحيرات وخطرت فوق البحيرات زوارق وقوارب وقامت على شواطئها مقاه ومحال اجتماع تراها في أيام الآحاد والعطلة مكتظة بالحاشدين إليها من أهل المدينة يبتغون عندها مذهبات الشجن من خضرة وماء ووجه حسن ويستمتعون حولها بجمال الهواء وشذى الزهور ومسرة الاجتماع وعبث السوابح بصفحة الماء المتألقة تحت أشعة الضياء .

وكما ترى هذا الجلال في المروج والغابات ترى جلالا وعظمة تفوقه في شوارع برلين . فهي أكثر فسحة واتساعاً من شوارع ما سواها من المدن . وما يجري الترام خلاله منها يجري منه في وسطه فوق زروع من الحشيش البهيج الخضرة والذي يفصل بين ناحيتي الطريق التي تسير فيها العجلات ويسير على أفاريزها المارة . ولئن كان حقاً أنك لا تجد في برلين ولا في غير برلين مجموعة كمجموعة التويلري وميدان الكونكورد بمسلته المصرية وبتماثيله ونافوراته والشانزليزيه بحدائقه عن الجانبين وقوس النصر تتفرع عنده شوارع باريس الكبرى وينبعث منه شارع الغاب لينتهي إلى غاب بولونيا ، فأنت واجد برغم ذلك في برلين من الشوارع الفسيحة الممتدة

الطول إلى غير نهاية مالا تجد له فى غير برلين شبيهاً . وسبب ذلك أن برلين بلد حديث وضع نظامه متفقاً مع مطالب هذا العصر الحديث ، فلم يجد واضعوه ما يحول دون تنظيمهم مدينتهم على ما يريدون . فأما برلين القديمة فيقف فيها النظام أمام ما يقف من عقبات فى كل بلد قديم ، فهنا جامعة وهناك كنيسة وثم أثر محبوب من الشعب ، والطرق بين هذه ضيقة أو ملتوية ولا سبيل إلى الإصلاح فيها ، وهذا ما تجده فى أنحاء كثيرة فى لندن وفى باريس حيث وقف النظام عاجزاً أمام أقداس خلّفها الماضى لها من الروعة والجلال والجمال ولها من الذكرى المحببة إلى نفوس الشعب أكبر مما للنظام الحديث من أثر فى الصحة وفى الرفاهية وفى حسن المتاع بالحياة .

نظام المرور فى هذه الشوارع الكبرى ببرلين عجيب . كنت أعتقد أن ليس فى العالم كنظام لندن نظام . والحق أن البوليس الإنكليزى مثل أعلى للبوليس فى العالم كله . والحق كذلك أن برلين ليس بها من حركة المرور مثل ما بلندن وباريس زحاماً ونشاطاً مستمراً ، لكن نظام المرور فى برلين يرجع إلى روح النظام القائمة بنفس الشعب الألمانى أكثر مما يرجع إلى شىء آخر . لذلك كانت الحاجة فيه إلى البوليس أقل من حاجة النظام إليه فى مدن غيرها . ولذلك لجأت بلدية برلين إلى تنظيم

المرور على طريقة أوتوماتيكية تخفف من عبء العمل على رجل البوليس بمقدار كبير : ففي كل تقاطع للشوارع الكبيرة مصباح كهربائي فيه أنوار ثلاثة تضيء على التعاقب فترات غير طويلة : أخضر وأصفر وأحمر . فالأحمر يقف حركة المرور ولو لم تكن في الطريق عربة ، والأصفر ينبه إلى أن اللون الآخر وشيك الظهور كي يستعد السائق للوقوف أو المسير . وكذلك تسير العربات ، وفق هذا النظام الآلي فتتقي بذلك كل تصادم أو خطر . ولما كان النظام في الروح الألمانية بعض فطرتها فليس يرى أحد في هذا التنظيم إلا ما يستحق كل ثناء وإعجاب . وليس يتبرم أحد لأنه وقف في طريقه دقيقة أو دقائق من غير حاجة إلى هذا الوقوف .

على أن هذا النظام والجمال في شوارع برلين لا يقابلهما جمال ونظام مثلهما في عمارتها . فأنت تسير في شوارعها الكبرى فلا يأخذ بنظرك شيء من مبانيها ولا يسترعي نظرك إلا المباني العامة الفخيمة بطبعها . فأما منازلها ومصارفها وحوانيتها فلا تجذب الناظر إليها كما تجذبه مباني باريس وعماراتها جميعاً . فأنت إذ تسير في شوارع باريس الكبرى لا تفتأ ترى ما يستوقفك عنده من جمال البناء ، وما يستوقفك أكثر من ذلك من جمال عرض ما في المتاجر . وفي الأحياء

التى لا تطغى التجارة فيها على المساكن ، تراك فى كثير من الأحيان أمام منازل فى عمارتها جمال جذاب . وكثيراً ما يسترعى نظرك وأنت بباريس نظام تخطيط العمارة فى شارع أو حى بأكمله ، فأنت لا ترى نافذة أعلى من نافذة ولا منزلاً متواضعا إلي جانب عمارة كبيرة . فأما برلين فيظهر أن التخطيط فيها لا وجود له أو يكاد . ففى كثير من الشوارع الكبيرة الفخيمة منازل عالية وأخرى منخفضة عنها . ونوافذ المنازل المتجاورة لا تكون فى كثير من الأحيان على خط واحد . وأشهد لقد كنت أشعر لذلك بغضاضة على النظر حين يقع على هذا الاضطراب الذى لا نظم ولا عناية فيه بالجمال إلى أى حد. وكان يزيد شعورى بالغضاضة هذا جمال الشوارع التى تقوم هذه المبانى على جانبيها . فأما تنظيم ما يعرض فى المتاجر فلا يأخذ بالنظر ولا يثير من الاعجاب شيئاً بالقياس إلى ما فى باريس . ولقد حدثنا مدير مكتب الصحافة الألمانية يوماً عن برلين وذكر لنا متجرها الكبير (فيرتهايم) الذى يضارع اللوفر وغير اللوفر من متاجر باريس الكبرى ويزيد عليها ، بل الذى يضارع سلفردج وهارودز من متاجر لندن ، ولقد قصدنا إلى فيرتهايم وجسنا خلاله فوقفنا مأخوذين أمام ضخامته وعظمته ، وأمام ما اجتمع فيه من كل أنواع البضائع

وصور التعامل لكنا دهشنا مع ذلك إن لم نجد فى تنظيمه هذه الروعة الحلوة الجذابة التى تستهويك إلى حوانيت باريس والتى يفر الكثيرون منها بسبب ما تستنفده من أموالهم .

بل إن أكثر ما حول برلين من قصور لايقاس جماله إلى ما فى باريس ولندن ، وإذا كان الوصف يقصر عن أن يصف حديقة قصر بوتسدام وروعة الجمال الباهر فيها فإن القصر لذاته يتضاءل إلى جانب قصور فونتنبلو وفرساى ووندسور وإلى جانب قصر الهابسبورج فى بودابست وقصرى فيينا وشنبرن ، فأما بيت رئيس الجمهورية الألمانية ببرلين فهو فى ظاهره بسيط غاية البساطة حتى لتمر به مرات فلا تلتفت إليه إلا أن يذكر لك من يعرفه ما هو .

على أن ذلك كله ينسى حين تتخطى ميدان باريس إلى الانتردن ليندن فتمر به حتى تبلغ الأسبرى فترى أمام نظرك الكاتدرائية وترى حولك القصر الملكى والجامعة والأوبرا الكبيرة والمتاحف ، ويتخلل ذلك كله حديقة اللستجارتن نثرت خلالها التماثيل فى نظام بديع وتوسطها تمثال فردريك غليوم الثالث . هذه حقاً مجموعة من أبدع ما تقع العين عليه فى مدائن العالم ، وكلها اجتمع فيها الجلال والجمال والبهاء ، وتجلت فيها الروح الألمانية روح النظام والجدية ، وتجلت هذه

الروح فى الكاتدرائية (الدوم) . وإنى ما أزال أذكر المرات العديدة التى مررت أثناء مقامى القصير ببرلين خلال هذه المجموعة البديعة فتهيج هذه الذكرى من نفسى أعظم الإعجاب الممزوج بشىء غير قليل من الدهشة ، ومعظم دهشتى يرجع إلى الكاتدرائية . فلقد عنيت فى كل مدينة زرتها بزيارة كنيستها ، إذ كانت الكنائس هى المثل الأعلى للعمارة فى بلاد النصرانية ، كما أن المساجد هى المثل الأعلى للعمارة فى البلاد الإسلامية . وكانت عمارة الكنائس كلها تبعث إلى نفسى شيئاً غير قليل من الرهبة والإجلال لعظمتها ودقتها وبديع تلوين زجاجها ولهذه الظلمة التى تشتمل كل أنحائها . بذلك شعرت حين زرت كنيسة القديس بطرس فى روما وحين زرت كنائس ميلانو كولونيا وأثناء ترددى على كنائس باريس، فأما كاتدرائية برلين فشعرت فيها بإجلال ولكن عن غير رهبة . ذلك بأن النور الذى يسقط إليها من السقف يجعلها مضيئة لا رهبة للظلمة فيها ، ولأن الروح الدينية فيها تخضع للروح الجندية وتجعل من هذه الكنيسة لذلك معرضاً لتمثال بسمرك وغير بسمرك ممن لا صلة لهم بالدين ولا بما يبعث به الدين إلى النفس من رهبة .

لكن هذه المجموعة البديعة الجميلة عبوسة الظاهر فيها روح الجندية والنظام وتنقصها الرقة التى تجتليها نظرتك حين تقف على نهر السين عند كوبرى الإسكندر فتحيط نظرتك بالانفاليد والقصر الكبير والقصر الصغير ، وكلها على عظمتها وجلالها أنيقة رشيقة يحدثك ظاهرها عن جمال لا يقل عما يحتويه داخلها من الجمال . ولست أدرى هل يشعر الذين أكثروا التردد على برلين أو أقاموا بها ما أقمت أنا بباريس بمثل هذا الشعور أم أنهم يرون غير رأيى . فقد أعلم أن للمدن سحراً يتغلغل فى النفس أثره كلما ازددنا بها معرفة ووثق ما بيننا وبينها من اتصال ، لكنى على كل حال أعتقد أن هذا الرواء البهيج الذى يزين مجموعة باريس ليس منه فى مجموعة برلين كثير ، وإن كانت المجموعة الألمانية كما قدمت مما يثير فى النفس الإعجاب أكبر الإعجاب .

وما دمنا قد عرضنا إلى هذه المجموعة وتعرضنا بذلك للعمارة الألمانية فلا نستطيع أن نغفل مبنى البرلمان الألمانى (الرايخستاج) فهو ضخم فخيم ككل ما فى برلين ، ولكنه تنقصه كذلك الرشاقة وتنقصه الرقة . وهو بعد – كأكثر برلمانات أوروبا – دون برلمان بودابست جمالاً وغنى وروعة أخاذة بالنظر .

على أن ما تشعر به في مباني برلين من نقص في الجمال يعوضه تعهد أهل هذه المباني إياها وحرصهم على نظافتها إلى أقصى حدود الحرص . وإني لا أزال أذكر خدم فندق «الاسبلاناد» الذين كانوا لا يفتأون به تعهداً وتنظيفاً وتنظيماً في كل ساعة من النهار ، نخرج من غرفتنا في الصباح فإذا هم يقومون بعملهم في نشاط وجد ، ونعود ساعة الظهيرة فإذا هم لايزالون جادين نشيطين ، وننزل العصر وهم ، أو من حلوا محلهم ، قائمون بعملهم بالجد والنشاط عينه ، ولقد أبديت ملاحظتي هذه لبعض من عرفنا ببرلين فذكر لي أن الشعب الألماني كله ، غنيه وفقيره ، مموله وعامله ، يقدس النظافة أعظم تقديس ، وإنك إذا ذهبت لمنازل أهل الطبقة الوسطى أو الطبقة الفقيرة وجدتها رغم ما قد يكون من صغرها أو ضيق غرفها أنيقة نظيفة ، وأن هذه العقلية هي التي جعلت شوارع برلين على ما ترى من نظافة ليس لها في غير برلين من المدن مثيل .



قد يصح بعد الذي تقدم أن يسائل الإنسان نفسه ، أليس للفن إذن عند أهل برلين مقام ؟ وأحسبني لا أخطئ كثيراً إذا قلت إن فن التصوير والنحت مقامهما في برلين دون مقامهما في باريس وفي روما ، فأما الفنون المتصلة بالأذن فللألمانيين

فيها على غيرهم تبريز معروف . ولقد حاولت لذلك أن اسمع الموسيقى والغناء فى العاصمة الألمانية فكان حظى من ذلك غير عظيم فأربع من دور الأوبرا الخمس فى برلين تقفل أبوابها فى الصيف والخامسة كانت قد عادت إلى العمل بعد نزولنا برلين بأيام . لذلك لم نكد نرى فى برنامجها (كفالريا رستكانا) وقطعة أخرى صامتة حتى قصدنا إليها نسمع ونرى . وأشهد لقد كان بديعاً ما سمعنا وما رأينا وإن لم نفهم من ألفاظ الغناء شيئاً . كانت الموسيقى ساحرة وكان التمثيل باهراً ، وكانت تهيئة المسرح بدقة وإتقان يفوقان ما شهدنا فى أوبرا باريس نفسها ويزيدان الموسيقى والتمثيل سحرا وبهراً ، والرواية الصامتة كانت تجرى بين طائفة من الشياطين وبعض الحور العين . وكان الرقص فيها وحسن أداء المعانى عن طريقه يطرب العين بمقدار ما تطرب الموسيقى السمع . وأشهد لقد كانت الأضواء المختلفة تلقى على المناظر ما يزيدها روعة ووضوحاً . ولا عجب فتهيئة المسرح الألمانى مشهود لها بالسبق على غيرها من تهيئات المسارح .

ولست أستطيع أن أحيط فى هذه الكلمة السريعة بتفاصيل عن ذلك ولا عن غيره . ولكنى إنما أردت أن أضع أمام القارىء فكرة مجملة عن العاصمة الألمانية أوضح بها شيئاً من روح تلك العاصمة بمقارنتها إلى العاصمتين الفرنسية والانكليزية.

المسلمون فى المجر
وقبر جل بابا

زرت بودابست من عشر سنوات وليس يجول بخاطرى أن بها أحداً من المسلمين ، أو أن بها منهم عدداً يذكر . ودارت الأيام بعد ذلك دورتها واتصلت بالأستاذ جول جرمانوس الذى أسلم وتسمى باسم عبد الكريم وزار مكة وأتم فرائض الحج ، فعلمت منه أن ببودابست عدداً من المسلمين يتجاوز الخمسمائة أو الستمائة . وأن بالمجر عدداً يزيد على ثلاثة آلاف . فلما كنت ببودابست هذا العام بين ممثلى مصر فى مؤتمر بلاد المياه المعدنية جمعتنى الصدفة فى بلاتون الحمامات برجل ذكر لى أنه يعنى بأمر المسلمين ، وأنه يعرف مفتى بودابست الأكبر الأستاذ حسنى حلمى ، وأنى كمسلم يجمل بى أن أزور قبر جل بابا ، فهو قبر يجله مسلمو أوروبا جميعاً ويجله عدد عظيم من المسيحيين فى بلاد المجر ويزورونه ويتبركون به .

وعدت إلى بودابست من بلاتون ثم لقيت صاحبى هذا فاستصحبنى وصديقاً من إخواننا المصريين المسلمين حتى

بلغنا منزل المفتى الأكبر وذهب يلتمسه ثم جاء به وذهبنا جميعاً نزور قبر جل بابا . وكان موعد الزيارة مثيرا للدهشة . كانت الشمس قد غربت لساعتين مضتا . وكنا نجوب طرقاً لاتكاد تكون مطروقة . والمفتي يحدثنا أثناء ذلك عن مسلمى المجر وعما يعتزمه من إقامة مسجد لهم يقيمون فيه صلواتهم ، ويذكر ما اكتتب به المسلمون من الهند ومن غير الهند لهذا الغرض . ولما سألته عن حال هؤلاء المسلمين المجريين بدت فى نبرة صوته رنة الأسف وقال فى عربية تشوبها العجمة : «نحن مساكين فقراء ، والمسلمون هنا جهلاء لا يعرفون شيئا من أمر دينهم ، فليست لنا مدارس إسلامية ولسنا نملك ما نتعلم به فى غير هذه البلاد . والأموال التي اكتتب بها المسلمون لاتزال محجوزة عنا ننتظر إذن إنجلترا بالسماح لها أن تدخل المجر . وبعد هنيهة صمت كرر : «نحن مساكين . واكثر المسلمين لا يعرفون من أمرنا شيئاً ومن عرف منهم إنسانا لم يفد منه أكثر من السماع به . ولذلك نخاف على الإسلام فى المجر» .

وقفت السيارة في خانة طريق يكاد يكون مهجورا . وتقدم الرجل الذى لقينا فى بلاتون إلى باب فى جانب الطريق الفسيح فدخل منه مسرعاً وسرنا يحدثنا المفتى متمهلين ، فلما اجتزنا الباب كان صاحبنا قد سبقنا إلى اليسار فأردنا

أن نتبعه . لكن المفتى تيامن قائلاً : لقد ذهب يجيء بمفتاح القبر من حارسته . وارتقينا سلماً أمامنا ثم تيامنا وارتقينا سلما آخر ، ثم إذا بناء إلى يسارنا يبدو عليه أثر القدم . وسأل صاحبى عن البناء فأجاب المفتى · هذه تكية قديمة بنيت فى عهد الأتراك . وأنا أعتزم أن أقيم المسجد ها هنا ، ولذلك سنهدمها . قال صاحبى : إنكم لا تحسنون بهدمها صنعاً ، فهى أثر قديم ، وللآثار حديث عميق المغزى ، وليتكم تجدون الوسيلة لإقامة المسجد دون هدمها .

وسرنا إلى جانب الجدار ثم ارتقينا سلما ثالثاً أو رابعاً ، فالمكان هضبة من الهضبات المحيطة ببودابست ، والتى يقع أكثرها بناحية بودا . وبعد مسيرة بضع مئات من الخطى تقدمتنا امرأة فى يدها شمعة تضىء لنا الطريق ، وإن أضاء لنا هذه اللحظة ضوء القمر بما اتاح لنا السير فيه دون كبير عناء . وبلغنا بناء وقفت هذه المرأة أمام بابه وفتحته فدخلنا مقصورة جل بابا .

والمقصورة غرفة بسيطة يتوسطها القبر ، وقد بنى على طراز قبورنا المصرية ، فجعلت عليه تركيبة ووضع على شاهده غطاء رأس أشبه بالعمامة لعله هو الذى كان يلبسه جل بابا ، من أربعمائة سنة . وقد حدثنى المفتى عن تاريخه فلم يزد على

أنه كان رجلاً عادلاً بلغ من عدله أن النصارى لا يزالون يذكرونه بالخير ولا يزال ألوفهم يجيئون إلى قبره للتبرك به . وبعد حديث بالعربية المعجمة عن فضائل هذا الفقيد الذى يذكّر المفتى المسلم بعهده الذى كان المسلمون أثناءه بالمجر أصحاب الكلمة النافذة لم يكونوا «مسكينين» كما هم اليوم ، طلب الرجل إلينا أن نقرأ الفاتحة على روح هذا الفقيد العادل ، وسبقنا إلى تلاوتها بصوت لم يرفعه ولم يخافت به . بعد ذلك درنا فى أنحاء الغرفة البسيطة التى ليست فيها نافذة يدخل منها الهواء ثم خرجنا نتحدث فى أمر المسلمين بالمجر وما هم عليه من فقر وجهل ، وما يجهل المسلمون فى أنحاء العالم المختلفة من أمرهم حتى ليظنوا حديثهم حديث خرافة .

خرجنا تتقدمنا المرأة بمصباحها ، فلما بلغنا سيارتنا عدنا بالمفتى إلى مقره فى أوتيل اسبلاناد ثم رجعنا أدراجنا إلى فندق صاحبى.



تحدثنا أثناء الطريق عن هؤلاء المسلمين فى أوروبا ، فلما بلغنا الفندق ومقهاه وضجته نسيناهم وتحدثنا فى شئون أخرى وتحدثنا فى وليمة الليلة التى أقامتها البرنسيس جوزفا فرانسيس بفندق جران لأعضاء مؤتمر المياه المعدنية ، على

أننى ما لبثت حين خلوت إلى نفسى أن عدت أفكر فى المسلمين وأمرهم ، هؤلاء جماعة قليلون من إخوانهم المؤمنين ألقت بهم أيدى المقادير فى بلاد مسيحية ، وعهدنا بالأقليات أن تتعاون وأن يعاونها إخوانها فى البلاد الأخرى بحياتهم وبمالهم وجاههم . فمالنا لا نعرف من أمر هذه الأقلية المسلمة بالمجر شيئاً . ومالنا لا نمد إليها يد المعونة . والأقليات المسلمة فى بلاد العالم المختلفة كثيرة . ففى بولونيا عدد لا يستهان به من المسلمين . وفى روسيا عدد من المسلمين غير قليلين . وفى أنحاء العالم كله من يذكر الله ويذكر التوحيد ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .أفبلغت بنا الأنانية فى البلاد الإسلامية ، ولا أخص مصر وإن كنت أحملها النصيب الأوفى، أفبلغت من الأنانية ألا نعرف إلا أنفسنا ولا نفكر إلا فى أنفسنا ولا نذكر إخواننا هؤلاء فى الدين ولا يدور بخاطرنا أنهم قد يصبحون بنا قوة حاسمة الأثر فى حياة العالم ، وإنا قد نصبح وإياهم عنصراً فعالاً لخير الإنسانية ؟ ! أم أن اليأس تولانا من صلاح أنفسنا فكنا أشد يأسا من إصلاح غيرنا أو مد اليد إليه بأى نوع من أنواع المعاونة.

إن هؤلاء المسلمين من أهل المجر غير ملومين لفقرهم وجهلهم . فهم أقلية لا يمكنها أن تحيا حياة استقلال ما لم

تجد عوناً وعطفاً من أمة أخرى، والأكثرية المسيحية من أهل المجر غير ملومة إذا لم تعلم المسلمين تعليماً إسلامياً .فلا تطالب حكومة فى أمة من أمم العالم بأن تعلم أبناءها ديناً غير دينها الرسمى . والأقليات التى تبلغ من القوة فى أمة ما بحيث يصبح لها الحكم والتصرف فى أمر الأكثرية، هى التى تستطيع أن تفرض تعليم دينها فى مدارس الدولة . فلابد إذن من أن يجد هؤلاء المسلمون المقيمون بالمجر وأن يجد غيرهم من أقليات المسلمين فى بلاد مسيحية أو غير مسيحية عطفاً عليهم من إخوانهم فى بلاد العالم الإسلامية لتكون لهم مدارس تعلمهم دينهم وتفقههم فيه وليكون لهم إلي جانب المدارس مستشفيات وجمعيات تقوم بأعمال البر والخير ، وليجدوا ما ينقذهم من مخالب الفاقة والجهل وليستطيعوا المعاونة على النهوض الإنسانى والقيام من ذلك بحظ محمود .

أعلم أن قوماً سيزعمون أنى أكتب من ذلك ما أكتب بدافع دينى إسلامى لعلهم يسمونه التعصب . ولو أن الأمر كان كذلك لما تبرأت منه ولا اتقيته . لكننى أقول مع ذلك لهؤلاء أنتم مخطئون . إنما هو عامل إنسانى يدفعنى إلى تحريض المسلمين على معاونة هذه الأقليات لخير الإنسانية ولمصلحة السلام العالمى . فكما أن هذا السلام لا يتم فى عالمنا الحاضر

ما لم يوجد التوازن السياسى بين الأمم فهو كذلك لايوجد مالم يوجد التوازن بين الأديان ، وبين أسباب المعيشة فى الحياة الاقتصادية . والمسلمون إذ يسمعون بما عليه إخوانهم فى الدين ممن يقيمون بالمجر وبغير المجر من البلاد ذات الأغلبية المسيحية لا ينظرون إلي ما عليهم من تبعة التقصير فى حق إخوانهم بل ينظرون إلى الأمر على أنه ظلم المسيحيين للمسلمين . هنالك تغلى فى النفوس حفائظها ويظل السلم بذلك معرضاً للقلاقل .

ولو أن المسلمين نظروا إلى الأمر من ناحية ما عليهم فيه من تبعة فعملوا لإزالة تقصيرهم إذن لرأيت هذه الأقليات الإسلامية المهددة بالفقر والزوال تنهض من كبوتها لتعود إلى الحياة بعودها إلى نور العلم وبمعرفتها طريق الحياة الروحية. إذ ذاك تنفض عنها غبار الجمود وتصبح قوة عاملة للخير والسلام، وبذلك ينتفى هذا القلق القائم بنفوس المسلمين فى أنحاء الأرض وينتفي من نفوسهم الظن بأن المسيحية تعمل للقضاء على أقلياتهم كيما تعفى على الإسلام ما استطاعت ، كما فعلت من قبل مع المسلمين فى أسبانيا وغير أسبانيا فى العصور الماضية .

إذا دعوت المسلمين إذن فى مشارق الأرض ومغاربها

ليمدوا يد المعونة إلى هذه الأقليات الإسلامية في المجر فإنما يحركني دافع إنساني لا يقف الداعي إليه عند العاطفة الدينية. وها نحن أولاء نرى في مصر وفي غير مصر من بلاد الشرق الإسلامي جهود المسيحيين من أقطار الأرض المختلفة لخير المسيحية والمسيحيين ، ونرى هذه الجهود تبلغ في بعض الأحيان مبلغاً يكاد يكون معجزاً ، فالمدارس المسيحية في مصر وفلسطين، وهما بلدان إسلاميان تثير في النفوس عوامل العجب تارة والإعجاب تارات . وجمعيات الشبان المسيحية أكثر نشاطاً في البلاد الى تكون المسيحية فيها أقلية منها في البلاد المسيحية بطبيعة أكثريتها ، بل أكاد أقول إنني لم أر جمعية شبان مسيحية في بلاد مسيحية . بينما أراها تبذل جهودها الضخمة في البلاد التي يكون المسيحيون فيها أقلية وتكون الكثرة فيها لغيرهم . وإذا كان المسلمون يصيحون بين حين وحين وينادون في خوف مما لهذه المؤسسات من أثر على المسلمين وعقائدهم فخير من ذلك أن يعملوا مثل هذا العمل في البلاد التي يكون المسلمون فيها أقلية كما هو الشأن في المجر وفي غير المجر من البلاد الأوروبية .

كم أود أن تثمر هذه الدعوة وأن تتكون هيئة في مصر تدعو غيرها من الهيئات في البلاد الإسلامية للعمل لإنشاء

مسجد ولإنشاء مستشفى ومطعم للفقراء وهيئات خيرية مختلفة ، وأن لا يقف ذلك عند الكلام فيكون أقل ثمراته ، وكم أود أن يكون تكوين هذه الهيئة فاتحة عمل منتج فى هذه النواحى من الحياة فى البلاد التى يكون المسلمون فيها أقلية محتاجة لعون المؤمنين من إخوانها فى الدين . وما أشك فى أن غير المسلمين ينظرون إلى ما يبذل من مجهود فى هذه الناحية بعين الغبطة إذا كانوا قوماً مستنيرين لم يغش التعصب الأعمى على عيونهم . فكل مجهود أساسه التضامن تبذله الجماعات للخير فيه فائدة للإنسانية وفائدة لنشر العرفان فيها، وفيه كذلك فائدة للسلام العالمى .

إننا معشر المسلمين متهمون بأننا نقول ولا نفعل ، ويعلو صياحنا فى بعض الأحايين ، ثم إذا هذا الصياح يخفت ، وإذا كل منا انقلب إلى داره لا يفكر إلا فى نفسه وفى مصالحه ، ثم لايكون له من صياحه إلا أنه خدع الناس عن أنانيته . أفنستطيع أن ندفع هذه التهمة بعمل فى هذا الأمر الخاص بأقليات المسلمين يكون له فى العالم كله مظهره وأثره ! إن للأمر من الخطر فى شتى صوره مالا يغيب عن النظر ، فليعمل المسلمون ! وليكونوا بذلك قوة ذات أثر فعال فى حياة العالم !

الأقليات الإسلامية
وما يجب لها على العالم الإسلامى

كتبت فى هذا الموضوع من أسبوعين لمناسبة الحديث عن قبر (جل بابا) ببودابست عاصمة المجر ، وقد عقب الأستاذ المحترم أمين الخولى على ما كتبت بكلمة نشرتها هذه الجريدة فى العدد الماضى تناول فيها حديث جل بابا (أبى الورد) أيام حكم الأتراك المجر إذ توغلوا حتى بلغوا أسوار مدينة فيينا . واننى لأشارك الأستاذ عواطفه من أعماق نفسى وأشكر له ما جاء فى كلمته مما اهتز له قلبى ، ولا أشك فى أن قلوب الألوف من المسلمين الذين قرأوه قد اهتزت له كذلك .

وإنى لتدعونى كلمات الأستاذ أمين لأعود اليوم إلى الموضوع الذى بدأت بتناوله منذ أسبوعين ، موضوع الأقليات الإسلامية في دول كثيرة . إن هذا الموضوع لجدير بكل عناية فى تقديرى ، وليس يرجع ذلك إلى اعتبارات دينية محدودة الأفق كما يتخيل البعض ، بل إلى اعتبارات إنسانية عليا تتصل بواجبنا لإخواننا بنى الإنسان وتتصل كذلك بسلام

العالم وطمأنينته . فإذا قمنا بهذه الواجبات لم يقف قيامنا بها عند أدائنا ما علينا من حق لإخواننا المؤمنين ولكمال إيماننا ، لأن إيمان المرء لا يكمل حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، بل تعدى هذا الاعتبار السامى إلى آفاق أكثر سعة وأبعد أثراً فى حياة العالم العملية . تعدى إلى التوازن الدينى توازناً ينتهى إلى الشعور بضرورة التضامن فى السعى لبلوغ الحقيقة ولإدراك الغاية الصحيحة من حياتنا الإنسانية .

وإذا قلت التوازن الدينى فإنما أقصد إلى معنى كالذى يقصد إليه الساسة حين كلامهم عن التوازن الاقتصادى والتوازن السياسى ، فنحن نعيش اليوم فى عالم متأثر بالفكرة القومية إلى أبعد مدى ، كل أمة تعمل لحسابها الخاص كى تتفوق على غيرها من الأمم فى الأسواق المالية وفى النشاط الاقتصادى، وفى النفوذ السياسى ، وكل أمة فيه تنفق من الجهد ما تستطيع وفوق ما تستطيع لبلوغ هذا التفوق ، تبهظ أبناءها بالضرائب ، تقيم من الجيوش لضمان تفوقها القومى مالا تدعو إليه حاجة لولا هذا الحرص على التفوق ، تعقد مع غيرها الاتفاقات والمحالفات لترجح فى التوازن الدولى كفتها ، تعاون على إحداث الانقلابات السياسية فى بلاد أخرى إذا كان فى إحداث هذه الانقلابات ما يعاونها على غايتها . تعمل

لتقوية عصبة الأمم بعد الذى أصابها من تصدع تأييدا لسياستها وهلم جرا . والعامل الدينى من العوامل التى تلجأ إليها الأمم القوية اليوم . فهى تحاول عقد الأحلاف على أساس الصداقة الدينية ، كما تحاول عقدها على أساس الصداقة السياسية . لقد يكون هذا العمل ضرباً من العبث لا يؤدى إلى نتيجة سريعة الأثر فى الحياة الدولية . لكنه عامل له قيمته فى تقدير الساسة ومن يصرّفون مصائر الشعوب ويؤثرون فى توجيه هذه الحياة الدولية .

وتأثر العالم بالفكرة القومية واضح اليوم وضوحاً جعل غير القومية من الصلات فى المحل الثانى من اعتبار كثيرين . وقد أدى ذلك بالبعض إلى الظن بأن هذه الصلات قد اندثرت فلم يبق إلى بعثها فى الحياة سبيل . وهذا فى رأيى خطأ بالغ . فالفكرة القومية الشديدة اللمعان والبريق فى الوقت الحاضر تحمل فى أطوائها من أسباب الضعف ما يخفيه هذا التباهى بمظاهر القوة الحربية تباهيا هو الذى ينشر نذر الحرب فى أنحاء العالم المختلفة ، والصلات الإنسانية الأخرى لم تندثر كما يتوهم البعض وإنما سترها هذا التباهى من ناحية وسترها من ناحية ثانية خداع يقوم به الساسة إذ يزعمون صداقة دولة بالذات لأبناء دين من الأديان ، كما تقول إنجلترا

بصداقة اليهود ، أو إيطاليا بصداقة المسلمين ، وسترها من من ناحية ثالثة ضعف من عدا أبناء المسيحية من الأمم خلا اليابان ضعفاً يدعوهم إلى الاستكانة أو الاستجمام إن شئت تعبيراً أرق .

والواقع أن هذه الصلات لا يمكن أن تندثر فالناس إنما يجتمعون حول مثل أعلي يجاهدون فى سبيله ويعملون لتحقيقه . والوطنية من المُثل العليا لا ريب ، كذلك كانت ،وكذلك ستبقى، لكنها ليست المثل الأعلى للإنسان الكامل فهى محدودة بحدود الوطن ، متأثرة بالعوامل الوقتية التى يتأثر بها . أما المثل الأعلى للإنسان الكامل فالحقيقة التى ينشدها الجميع مؤمنين بأن بلوغها هو الكمال الحق للإنسان . وهو السعادة الكاملة لبنى الإنسان جميعاً وقد حاول العلم فى العصور الأخيرة التى سبقت الحرب العامة أن يستأثر بالكشف عن الحقيقة مستعيناً بوسائله الحديثة ، مستغنياً بها عن الإلهام الذاتي وعن الدين فاستبان له ، بعد أن قطع خطوات واسعة استكشف أثناءها كثيراً من قوى الكون كانت خافية علينا . إنه لا غنى له عن الإلهام الذاتى وعن الدين ، وإنه لن يستطيع أن يتقدم وحده تغنيه وسائله عن سواها ، بذلك بقى المثل الأعلى رهيناً بتعاون العلم والإلهام والدين وتضامنها جميعاً فى الكشف عن

الحقيقة، وبذلك تبين أن الدين يعاون أصحابه ما تحرروا من قيود الجمود معاونة كبرى فى بحوثهم العلمية من ناحية ، وفى التماسهم سبيل الهدى إلى الحق من الناحية الأخرى .

وما بلغنا من العلم حتى اليوم ينبئنا بأن الإنسانية ستظل كذلك ما بقيت لأنها ستظل محصورة فى حدود ما تكشف عنه قوتها المحدودة فى هذا الكون غير المحدود . وما بلغنا من العلم حتى اليوم ينبئنا بأن الدين بغير علم ينتهى إلى الجمود وإلى ما ينشره الجمود فى الحياة من أوهام وأخيلة خاطئة وبأن العلم الذى لا يستهدى الإلهام ويلتمس المثل الأعلى فى الإيمان الديني البرىء من أوهام الجمود أقصر من أن يبلغ بنا غاية الإنسانية فى الحياة ، وهذا الذى ينبئنا عنه العلم يفسر لنا كيف قامت الإنسانية على الإيمان بالمثل الأعلى وكيف كان الإخاء الديني كالإخاء الوطنى سبباً من أسباب دفع الجماعات فى التماسها هذا المثل وقوة تحرك هذه الجماعات إلى النشاط فى التماسه كما تحركها أقوى العواطف وأشدها توثباً ، وهذا يفسر ما قدمت من أنى إذ أتحدث عن موضوع الأقليات الإسلامية أتحدث عن موضوع جدير بكل عناية لاعتبارات إنسانية سامية تتصل بسلام العالم كما تتصل برضا نفوسنا ، ولا تقف فى دائرة الاعتبارات الدينية المحدودة الأفق مما ألف

البعض أن يثيروا به تعصب الجماعات ، وجعل الآخرون دأبهم أن يحاربوه محاربة لهذا التعصب حيناً ، وحرصا على التحكم فى الجماعات بإحداث التحلل المعنوى فيها حيناً آخر .

والأكثرية الدينية فى الأمم تقوم بعمل جليل حين تمد يد المعونة للأقليات التى تشاركها هذا الدين في الأمم الأخرى . فهذه الأقليات لاسبيل لها إلى أن تبلغ مكانة الاحترام من نفس الأكثرية فى الأمم التى تعيش فيها إلا إذا كان لها من النشاط المثمر ما يوجب هذا الاحترام . والأقليات الحكيمة تأبى أن يتجه نشاطها إلي جهة الحكم والقيام بأعبائه ، لأنها تعلم من أنباء التاريخ أن الأكثرية الدينية أو الجنسية وأن الأكثريات على اختلاف ألوانها لا ترضى تحكم الأقليات فيها ، فإذا رضيته زمناً فلتثور به بعد ذلك وتحطمه وترد حق الحكم إلى نصابه الصحيح ، ذلك ما حدث منذ القدم ، وذلك ما حدث فى هذه العهود الأخيرة فى أمم لا يشك أحد فى سبقها العلمى سبقاً يضعها فى الصف الأول من هذه الناحية ، ومن سائر نواحى الحضارة ومقوماتها . لذلك كانت الأقليات الحكيمة تسلك إلى احترام الكثرة إياها سبيلاً غير سبيل الحكم السياسى لهذه الكثرة ، سبيل التفوق العقلى ، والتفوق الفنى ، وتلتمس لذلك الأسباب التى تبلغ بها المراكز العليا فى ميادين

العلم والأدب والفن وغيرها من الميادين التى يزدهر فيها العقل والعاطفة .

ولقد دعوت منذ أسبوعين وأدعو اليوم إلى مد يد العون لهذه الأقليات الإسلامية فى المجر وإلى غيرها من الأقليات من بلاد العالم فى الغرب وفي الشرق وإلى تصوير هذا العون على النحو الذى يحتاج إليه أبناء هذه الأقليات . وأدعو اليوم فأكرر هذه الدعوة وألح فيها . لا يثنينى عن ذلك أن يكون مسلمو المجر جميعاً مئتين كما قال إمام المسجد للأستاذ أمين الخولى أو أن يكون المئتان هم مسلمى بودابست وأن يكون بالمجر ألفان أو ثلاثة آلاف كما قال لى مفتى المجر حسين حلمى . ولست أقف هذه الدعوة على مسلمى المجر بل أرجو أن تتناول الأقليات الإسلامية فى بلاد العالم جميعاً . ولكى تكون المعاونة على أساس سليم يجب أن تدرس أحوال هذه الأقليات الإسلامية درساً دقيقاً . ولهذا الغرض أشارك الكاتب الشرقى فى مطالبة ممثلى مصر السياسيين أو القنصليين فى أى من البلاد وجدوا أن يجعلوا من الموضوعات التى يوجهون جهودهم إليها دراسة هذا الموضوع دراسة خاصة ووضع التقارير المستفيضة عنه ، وفى مطالبة الحكومة المصرية بنشر هذه التقارير . فمصر تتزعم النشاط الإسلامى اليوم . والعالم

الإسلامى يتطلع كله إليها ويقر لها بهذه الزعامة . فمن واجباتها الأساسية لنفسها وللعالم الإسلامى وللسلام العام أن تفكر فى مد يد المعونة لهذه الأقليات وفى دعوة البلاد الإسلامية الأخرى لهذا الغرض . ولا يكون عون إلا إذا درست حالة هذه الأقليات الإسلامية ليبذل لكل منها من العون ما هى بحاجة إليه .

إننى واثق كل الثقة من أن ما يبذل لهذه الأقليات من العون سيدفعها إلى أن تنهض نهضة كبرى ، فالأقليات ضعيفة ما وجدت نفسها فى عزلة لا تؤيدها قوة ولا يمدها سند . وهى كثيرا ما يبلغ منها الضعف حتى لا يكاد يحس بها أحد . لكنها إذا وجدت سنداً نشطت أضعاف نشاط أبناء الأكثريات وانتجت وكان منها الأفذاذ ذوو المواهب مالم يطمعوا فى الحكم. ونحن لا نريد أن ترمى الأقليات الإسلامية إلى أن تمسك بيدها زمام الحكم ، لأننا لا نريد أن تثور بها الأكثريات يوماً فتحطمها أو تجليها عن البلاد كما حدث أخيراً فى المانيا . لكننا نريد لهذه الأقليات الإسلامية فى بيئات الغرب والشرق أن تنبعث من مرقدها وأن تفيق من سبات الجهل وأن تنشط إلى الحياة الإنسانية وأن تبث المبادئ التى أورثها إياها أسلافها المسلمون فى البلاد التى تقيم بها لخير هذه البلاد ولخير العالم كله .

تحدثت منذ سنوات عن كتاب نشره طائفة من علماء الغرب عنوانه : وجهة الإسلام ، وهذا الكتاب يبحث فى مدى رغبة المسلمين فى البلاد المختلفة فى الابتعاد عن مثلهم العليا إلى مثل الغرب العليا فى الوقت الحاضر ، وهذا الكتاب ليس إلا صورة من تفكير الغرب في أمر المسلمين ، وهو تفكير طبيعى ، فأهل الحضارة الغالبة فى كل عصر يحرصون على أن تدين لهم الأمم الأخرى أياً كانت الأديان التى تنتسب هذه الأمم إليها ، لكن التاريخ قد شهد بأن إخضاع الأمم للغلب المادى لم يفن عناصر حياتها العقلية والروحية يوما ما ، وعندى أن تضامن العالم للعمل لسلامه خير ألف مرة من محاولة اخضاع أكثره بالقوة وبوسائلها ، وهذه الدعوة التى أوجهها فى شأن الأقليات الإسلامية بعض مظاهر هذا التضامن ، فلعلها تلقى سميعاً ، ولعلها تلقى من المسلمين مجيباً ومن أهل الشرق والغرب مشجعاً عليها .

هلسنكى والمؤتمر البرلمانى

انعقد المؤتمر البرلمانى الدولى هذا العام * فى الأسبوع الأخير من شهر أغسطس بهلسنكى عاصمة فنلندا . وقد علمت بموعد ومكان انعقاده فى شهر يونيو الماضى ، فهفت نفسى إلى شهوده لأرى أثر التطور الدولى الأخير فى اتجاه مناقشاته. فأنا قد حضرت المؤتمرات البرلمانية الدولية كلها منذ سنة ١٩٤٧ إلى سنة ١٩٥٢ ، ثم انقطعت عنها سنتى ٥٣ ، ٥٤ . والتطورات الدولية منذ سنة ١٩٥٢ إلى وقتنا الحاضر فسيحة المدى فلابد أن يكون لها من الأثر فى اجتماع المؤتمر هذا العام ما يدفع إلى النفس الرغبة فى شهوده .

ولعل هذا كان طبيعيا بالنسبة لى . فقد رأست مؤتمر القاهرة فى سنة ١٩٤٧ بوصفى رئيس مجلس الشيوخ المصرى ثم انتخبت فى المؤتمر المذكور عضوا باللجنة التنفيذية للاتحاد البرلمانى الدولى ، فكنت أحضر اجتماعات الاتحاد ثلاث مرات فى كل عام ، وكنت متتبعا خطواته بدقة وعناية ،

* ١٩٥٥ .

فلا عجب وقد انقطعت عنه سنتين أن تنازعنى نفسى إلى شهوده ، وبخاصة بعد أن انعقد مؤتمر جنيف لرؤساء الدول الأربع الكبرى فاتجه بالسياسة الدولية اتجاها جديدا .

لذا كتبت إلى لورد ستاتسجيت رئيس الاتحاد ، وإلى مسيو اندريه دبلونى سكرتيره العام ، فرحبا بشهودى المؤتمر وبعثا إلىّ يشجعاننى على تحقيق هذه الرغبة .

وزادنى اقبالا على تحقيق هذه الرغبة اعتبار عائلى واعتبار شخصى . أما الأول فلأن ابن أخى يقيم بزيوريخ فى سويسرا يدرس بها ، ولأن ابنى مقيم في انجلترا كذلك ، ولأن ابنتى تقيم بأسبانيا تدرس الأدب المقارن بها . لذا جعلت خط سفرى إلى زيوريخ فباريس فهلسنكى فكوبنهاجن عاصمة الدانمرك فلندن فمدريد . واطمأن بالى حين وضعت هذه الخطة إلى أننى استطيع أثناءها الاستجمام والاستشفاء . وبهذا السفر وبهذه الخطة أكون قد حققت أغراضا عدة كلها حبيب إلى نفسى، وكلها جم النفع عظيم الفائدة .

وذهبت من باريس إلى هلسنكى فوصلت الطائرة عاصمة فنلندا منتصف الليل من يوم ٢٢ أغسطس ، ولم ألبث حين نزلت من الطائرة وتخطيت إلى المطار أن لقينى شاب حيانى بالفرنسية وذكر أنه موفد من قبل الشعبة البرلمانية الفنلندية

لاستقبال أعضاء الوفود والذين يشهدون المؤتمر ، وجلس هذا الشاب إلى جانبى فى أتوبيس المطار فسألته عما إذا كانت قد قدمت وفود جديدة إلى المؤتمر لم تكن تشترك فيه من قبل ، أريد بذلك أن أكون لنفسي فكرة عن جو المؤتمر وعما ينتظر أن تكون اتجاهاته .

قال الشاب نعم ، حضر وفد من روسيا السوفيتية ، وحضرت وفود من بلاد ما وراء الستار الحديدى ، وحضر وفد من السودان ، حينذاك ابتسمت فيما بيني وبين نفسي وذكرت مؤتمر القاهرة فى سنة ١٩٤٧ ، ثم ذكرت اجتماع مجلس الاتحاد سنة ١٩٥٠ ، ورجوت أن يكون هذا التحول الذى طرأ على الاتحاد لخير السلام العالمى .

فقد كانت مصر قد دعت الاتحاد البرلمانى لعقد مؤتمره السنوى بالقاهرة من قبل الحرب العالمية الثانية ، وحال قيام الحرب دون اجابة هذه الدعوة ودون عقد الاتحاد مؤتمراته طيلة سنى الحرب ، لما عاد مجلس الاتحاد إلى الانعقاد فى سنة ١٩٤٧ جددت مصر الدعوة فأجيبت دعوتها وتحدد انعقاد مؤتمر القاهرة فى شهرة أبريل سنة ١٩٤٧ ، وكنت قد سافرت إلى نيويورك فى أكتوبر سنة ١٩٤٦ رئيسا لوفد مصر لدى الأمم المتحدة ، وهناك قابلت الرفيق اندريه جروميكو ممثل

روسيا السوفيتية فى الأمم المتحدة ودعوت روسيا السوفيتية لحضور المؤتمر البرلمانى بالقاهرة . فابتسم الرجل معتذرا عن عدم قبول الدعوة وقال : أرجو أن تتمكن روسيا من قبول هذه الدعوة في ظروف دولية خير من الظروف الحاضرة .

وأبديت أسفى لاعتذار روسيا وعدم حضورها المؤتمر . لكنى عجبت حين انعقد المؤتمر أن رأيت دولا تدور فى فلك روسيا تحضره . حضرته فيما أذكر بولونيا وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا وغيرها من الدول التى تدين بالولاء للسوفيت . واستمرت هذه الدول تحضر اجتماعات الاتحاد البرلمانى فى الربيع وفى الصيف إلى سنة ١٩٥٠ ، حين قررت الانسحاب منه كلها دفعة واحدة .

وكان من أسباب انسحابها الظاهرة أن المؤتمر أخذ يبحث فى امكان أن تقوم حكومة عالمية ، وأن يكون المؤتمر البرلمانى الدولى نواة لتنظيم هذه الحكومة . وكانت حجتهم يومئذ فى الانسحاب أن هذا الموضوع يقصد به إلى نية خفية مرماها تغليب الدول الديموقراطية على الدول الشيوعية ، وأنهم يتعاونون فى المؤتمر على أساس الاستقلال الكامل لكل دولة ، ويرفضون أن تتغلب كتلة من الدول على أخرى بمثل هذه الوسيلة ، وسيلة إنشاء حكومة عالمية .

وبقيت هذه الدول كلها متخلفة عن حضور الاتحاد البرلمانى ومؤتمراته إلى هذا العام . فلما ذكر لى الشاب الفنلندى الذى استقبلنى بالمطار أنها تشترك فى مؤتمر هلسنكى كما تشترك فيه روسيا السوفيتية قلت : هذه امارة جديدة بتحول الاتجاه الدولى وجهة جديدة .

وسألت الشاب عن الصين الشعبية وهل تحضر المؤتمر فقال لى إن اثنين من وفدها حضرا وحدهما لأن الصين الشعبية لم تقبل بعد عضوا فى الاتحاد . ودهشت لذلك بل عجبت له . فقد أبدت هذه الصين الشعبية من الميل لمجاراة السياسة الدولية الحالية ما دل عليه افراجها عن الطيارين الأمريكيين الذين كانوا معتقلين عندها ، وما أبداه رئيس وزرائها فى مؤتمر باندونج من تأييد للسلام وحرص عليه ، وما بينها وبين روسيا السوفيتية المشتركة فى هذا المؤتمر البرلمانى من عهود ومواثيق . وتحريت الأمر يوم عقد المؤتمر فعلمت أن الأمريكيين هم الذين عارضوا فى قبولهم ، وأنهم على العكس من ذلك أيدوا قبول الصين الوطنية . وقد بلغوا فى معارضتهم حد التهديد بالانسحاب من المؤتمر . بل من الاتحاد البرلمانى كله . ولما كان نظام المؤتمر الأساسى لا يجيز رفض طلب الصين الشعبية ، ولا رفض طلب الصين الوطنية ، ولما كان

انسحاب الولايات المتحدة من الاتحاد البرلماني يضر هذا المؤتمر ضررا بليغا ، فقد رأى المسئولون تأجيل النظر في طلب الصين الشعبية ، وطلب الصين الوطنية ، إلى دورة مقبلة لاستيفاء البحث ، أو انتظارا لظروف خير من الظروف الحالية على تعبير الرفيق جروميكو لي في سنة ١٩٤٦ حين دعوته لتشترك روسيا السوفيتية في مؤتمر القاهرة .

ولم يزل ما علمته من ذلك عجبي ولا دهشتي ، وذهبت أتحرى الدوافع الحقيقية لموقف أمريكا من الصين الشعبية وذهابها إلى حد التهديد بالانسحاب من الاتحاد ، فقيل لي إن الشعب الأمريكي مازال يذكر حرب كوريا ، ومن فقد هناك من رجاله وشبابه ، وأن الناخبين الأمريكان لا يعطون أصواتهم لمرشح يتهاون مع هذه الصين الشعبية التي أخذت في حرب كوريا بالنصيب الأوفى ، فهي مسئولة في نظر كل ناخب أمريكي ، وكل ناخبة أمريكية عن والدها الذي قتل ، وعن زوجها الذي فقد ، وعن خطيبها الذي فقد ذراعه أو ساقه ، وعن كل ما عاني الأمريكيون من نكبات في كوريا . ولما كانت الانتخابات تجري في أمريكا العام القادم ، لذا لم يرد الأمريكيون الذين يمثلون بلادهم في الاتحاد البرلماني وفي مؤتمر هلسنكي أن يعرضوا أنفسهم وزملاءهم المرشحين ،

جمهوريين كانوا أو ديموقراطيين ، إلى هذا الموقف فى الانتخابات القريبة ، فإذا مرت هذه الانتخابات بسلام وأعاد الاتحاد النظر فى طلب الصين الشعبية والصين الوطنية أمكن أن يكون للأمريكيين موقف آخر، وأن تقبل الصين الشعبية والصين الوطنية كلاهما فى الاتحاد .

وقد أعادت هذه القصة إلى ذاكرتى ما حدث سنة ١٩٤٧ حين كانت الأمم المتحدة تنظر فى تقسيم فلسطين ، وحين كان الرئيس الأمريكي هارى ترومان متحمسا للتقسيم كتحمس الصهيونيين أنفسهم . فقد قيل يومئذ إن انتخابات الرئاسة للجمهورية فى سنة ١٩٤٨ كانت من الدوافع القوية التى حملت ترومان على أن يقف هذا الموقف ، لأن لليهود فى أمريكا – وفى ولاية نيويورك بنوع خاص – تأثيرا قويا جدا فى انتخابات الرئاسة . وقلت اليوم كما قلت يومئذ : أليس عجيبا أن يتأثر كبار الرجال فى الشئون العالمية بالاعتبارات الوقتية كالانتخابات وما إليها . أم أن المصالح الذاتية كانت وستبقى دائما ذات أثر على تفكير الرجال وإن سمت مكانتهم واتسع مدى تفكيرهم .

كان موقف أمريكا من الصين الشعبية وعدم قبولها عضوا فى الاتحاد بمثابة سحابة تشوب جو المؤتمر ، وبخاصة لأن

أهم موضوع كان مطروحا عليه هو : (التعايش السلمى بين الشعوب) . ثم كانت هناك سحابة أخرى تشوب هذا الجو . ففى يوم الانعقاد – يوم ٢٥ أغسطس – وفى اليوم الذى سبقه التقيت بكثيرين من أعضاء الاتحاد القدامى الذين عرفت فى مؤتمر القاهرة ، ثم عرفت بعد ذلك فى المؤتمرات الأخرى ، ومن بينهم أعضاء الوفد الفرنسى ، والوفود العربية ، فلم تكن وجوههم تنم عن الطمأنينة . وسألت بعض اخوانى من رجال الوفود العربية عن المسائل التى يقصدون اثارتها فقالوا فى مقدمتها مسألة فلسطين ، ومسألة شمال افريقيا . وأنا أعلم أن فرنسا شديدة الحساسية فيما يتعلق بشمال افريقيا ، وبخاصة لأن عددا غير قليل من ابنائها يقتلون هناك فى الجزائر وفى مراكش . ولا شىء يثير نفس شعب أيا كان كأن يقتل أبناؤه . فإذا أثارت الوفود العربية مسألة شمال أفريقيا لم يسكت الفرنسيون دون الرد على ذلك بعنف لا يتفق مع معانى التعايش السلمى الذى يراد تقرير قواعده فى هذا المؤتمر . وإذا لم يكن رجال البرلمان وهم صفوة الشعوب قادرين على التعايش السلمى فيما بينهم فى مؤتمر يعقد فى قاعة برلمان هلسنكى فكيف تستطيع الشعوب التعايش السلمى فى هذا العالم الفسيح المترامى الأطراف .

لم أعن بالبحث فيما وراء ذلك مما يثير الخلاف . لكنى شعرت من قبل أن ينعقد المؤتمر بأن جوه لا يبشر بأن يكون هذا الجو الصفو الذى تخيلته ساعة وصلت بى الطائرة هلسنكي ، وحين علمت أن الوفد الروسى مقبل على المؤتمر اقبالا شديدا دلت عليه كثرة أعضائه ، وكثرة سكرتاريته. قلت: فلأنتظر وسأرى . فغدا ينعقد المؤتمر . وفى أيام انعقاده الستة سنسمع الكثير ، ونفهم الكثير مما تنطوى عليه هذه السياسة الدولية السريعة التطور فى الوقت الحاضر .

المؤتمر البرلماني بهلسنكي *

كان المؤتمر البرلماني الدولي الذي عقد بهلسنكي هذا العام من أكثر المؤتمرات تمثيلا للوجود الدولي الذي حضره ممثلون لست وأربعين دولة ، وحضره ممثلون عن الدول الأربع الكبرى بعد أن كانت روسيا السوفيتية ممتنعة عن حضوره منذ قيام الستار الحديدي بينها وبين الدول الديموقراطية . وقد حضره كذلك ممثلو الدول العربية واشتركت معها فيه السودان . لكن جوه لم يكن صفوا ولم يكن يتفق مع هذا التفاؤل الذي أشاعه في العالم اجتماع الأربعة الكبار في جنيف منذ عهد غير بعيد .

وقد افتتح المؤتمر بقاعة البرلمان الفنلندي بهلسنكي في الساعة العاشرة من صباح يوم الخميس الخامس والعشرين من أغسطس . افتتحه الشيخ رئيس الجمهورية الفنلندية مرحبا بانعقاده في عاصمة بلاده . مشيرا إلى أنها من أقدم البلاد الديموقراطية في العالم ، وأنها أقدم دولة منحت النساء حق الانتخاب من قبل أن يمنحن هذا الحق في أية دولة أوروبية .

---

* سبتمبر ١٩٥٥ .

وكان هذا الرجل الشيخ الوقور يلقى خطابه باللغة الفرنسية فى شىء من التلعثم يدل على أنه قرأ الخطاب غير مرة قبل إلقائه ، وأن مقدرته فى هذه اللغة بقيت مع ذلك لا تمكنه من حسن الإلقاء ودقته .

وتكلم بعده لورد ستاتسجيت رئيس الاتحاد البرلمانى الدولي وصديق مصر القديم والذى تولى فيها مفاوضات سنة ١٩٤٦ فأظهر من الأناة والصبر ما مكن من الوصول إلي مشروع صدقى بيفن . ولورد ستاتسجيت رجل مرح بطبعه ، فيه دعابة رقيقة وظرف يحببه إلى النفس . ومع أنه كرر فى هذا الخطاب عبارات سمعتها منه غير مرة من قبل فى مثل هذه المناسبة فقد كانت روحه تفيض على هذه العبارات من المرح ما جعل الحاضرين يصفقون لهذا اللورد الهرم غير مرة فى حماسة واعجاب ، فلورد ستاتسجيت قد جاوز الثامنة والسبعين ، وهو يؤمن مع ذلك بأنه لايزال فى فتوته وقوته . تلاقيت معه فى البرلمان يوما فسألنى عن صحتي وصحة أهلى جميعا – فهو يعرفهم منذ سنة ١٩٤٧ حين انعقد المؤتمر البرلمانى بالقاهرة – لما ذكرت له أنا ولله الحمد بخير رغم أنى تخطيت الخامسة والستين قال : ولكنك شاب لاتزال . فأنا قد تخطيت الثامنة والسبعين ولاتزال الحياة باسمة أمامى، عند

ذلك ذكرت له كلمة لأستاذنا لطفى السيد إذ كنا نتحدث يوما فقال لى : أنتم معشر الشبان . قلت : أى شبان نحن وقد تخطينا الستين ، فكان جوابه : مادمنا نحن معكم على قيد الحياة فأنتم شبان لأنكم أبناؤنا .

تحدث لورد ستاتسجيت إذن فى افتتاح المؤتمر بوصفه رئيس الاتحاد البرلمانى ، فأعاد على مسامع الحاضرين ما ذكره غير مرة فى مثل هذه المناسبة من أن هذا المؤتمر ليس مؤتمر حكومات يأتمر الأعضاء فيه بأمر دولهم ، بل هو مؤتمر برلمانيين أحرار ، يتكلم كل منهم برأيه هو ، لا برأى حكومته ، ويتكلم حرا طليقا من كل قيد ، ويصوت حرا كذلك من كل قيد، وأن هذا المؤتمر البرلمانى دولى أول واجباته التفكير فى سلام العالم والمحافظة عليه ، فلا شأن لذلك له بالمشاكل الداخلية للبرلمانات الممثلة فيه إلا بمقدار ما تمس هذا المشاكل سلام العالم وحسن علاقات الدول بعضها ببعض ، وأن هذا المؤتمر كذلك ليس منظمة سياحية غرضها مسرة أعضائها ، بل هو مؤتمر جدى غرضه سلام العالم عن طريق تعارف البرلمانيين بعضهم ببعض وتفاهمهم تفاهما حرا تماما الحرية ، وأن مهمته لذلك عالمية كبرى جديرة بأن يضعها كل عضو من أعضائه موضع التقدير والاعتبار .

وكان موضوع التعايش السلمي بين الشعوب أهم موضوع مطروح على المؤتمر . والتعايش السلمي أول شروطه تبادل الثقة بين الشعوب ، ولا سبيل إلى تبادل الثقة إذا قامت البغضاء والمرارة في النفوس . ومن أسف أن نفوس الكثير من الشعوب لاتزال تشوبها البغضاء والمرارة . تحدثت إلى أحد الفنلنديين وذكرت له أن من حظ بلاده أن كانت الأولى التي اشتركت روسيا السوفيتية في المؤتمر المنعقد بعاصمتها فكان مما أجاب به : نحن مطالبون أن نكون المجاملة كل المجاملة مع الروس المشتركين في المؤتمر لأنهم ضيوفنا، ولكننا لانستطيع أن ننسى أن روسيا حاربتنا وقتلت الكثير من رجالنا وأبنائنا ، وأنها اقتطعت من فنلندا أغنى مناطقها بالمعادن . هذا ما لا نستطيع أن ننساه وما يحز في نفوسنا . وأهل المناطق التي ضمتها روسيا إليها فنلنديون صحيحون يتطلعون كما نتطلع إلى اليوم الذي يعودون إلينا فيه كما عادت الألزاس واللورين إلى فرنسا .

وتحدثت كذلك إلى بعض الدانمركيين فذكروا أن في نفوسهم من الحفيظة على ألمانيا منذ احتلالها بلادهم أيام الحرب ما لا يستطيعون نسيانه : قلت: ولكنكم لم تحاربوهم ولم يحاربوكم كما فعلت بلجيكا وهولاندا ، بل اذنتم لهم

باحتلال بلادكم حقنا للدماء . وكان جواب محدثى الدانمركى لكنهم أثناء الاحتلال الذى طال أكثر من خمس سنوات كانوا قساة بنا غاية القسوة ، مما اضطرنا لتنظيم حركة مقاومة قمعوها بكل عنف ما استطاعوا قمعها .

وكان ممن تحدثوا فى المؤتمر برلمانى نمساوى ذكر ما عانته بلاده من احتلال الدول الأربع - روسيا وانجلترا وأمريكا وفرنسا - اياها وأنحى بأشد اللائمة على تصرف الروس أثناء الاحتلال فى عبارة عنيفة غاية العنف ، لا تتفق بحال مع أى معنى من معانى التعايش السلمى الذى يريد المؤتمر تقرير قواعده .

ولا حاجة بى إلى أن أذكر ما دار من جدل عنيف بين الدول العربية وإسرائيل . فالحجج التى يتبادلها الطرفان معروفة فى مصر . وحسبى أن أذكر أن متحدثا باسم إسرائيل ناشد رئيس المؤتمر فى ختام خطابه أن يدعو الدول العربية للتفاهم المباشر مع إسرائيل بعد أن خلقتها الأمم المتحدة لتبقى ، فكان رد ممثل من سوريا عليه أن يناشد رئيس المؤتمر قبل اجابة مطالب المتحدث باسم إسرائيل أن يطلب إلى إسرائيل أن تنفذ قرارات الأمم المتحدة فيما يتعلق باللاجئين العرب وبتدويل القدس ، فاذا نفذوها ونفذوا كل قرارات الأمم المتحدة وامتنعوا

من الاعتداء على جيرانهم العرب فكر هؤلاء فيما إذا كان التفاهم المباشر مع إسرائيل ممكنا .

وكان الشعور السائد في المؤتمر أن منطقة الشرق الأوسط هى منطقة الخطر على السلم العالمى فى الوقت الحاضر . وكان جواب العرب على ذلك أن مطامع الدول الكبرى في هذه المنطقة وقيام دولة إسرائيل بالطريقة التى قامت بها هى مصدر هذا الخطر ، وأن دول الشرق الأوسط على العكس مما يقال من أكثر الدول حبا للسلام ، لأن السلام هو وسيلتها إلى التعمير والتقدم في مضمار الحضارة .

وقد تقدم بعض البرلمانيين العرب بتعديلات للقرارات التى اقترحتها لجان الاتحاد البرلماني فيما يتعلق بالتعايش السلمي. من هذه التعديلات اقتراح بأن يضاف إلى اقتراح لجنة الاتحاد أن يكون هذه التعايش على أساس من حرية الشعوب واستقلالها ، ومن عدم التمييز بينها بسبب الجنس أو اللون أو اللغة أو الدين . ومنها أن يكون المقصود بالتعايش السلمى تعايش الشعوب لا تعايش الحكومات . ومما يثير العجب أن هذه التعديلات لقيت موافقة عظمى من جانب المؤتمر وأن الدول الكبرى كانت فى مقدمة الموافقين عليها ، وأن الذين اعترضوها كانوا بعض الدول الوسطى أو الصغرى . فقد وافق الوفد

الأمريكى بإجماع أعضائه على التعديلين ، ووافق الوفد الروسي والوفد البريطاني على التعديل الأول ولم تعارضه بلجيكا حرصا على مصالحها فى الكونغو البلجيكى ، ولذلك فاز هذا الاقتراح الأول بثلاثمائة وثمان وأربعين صوتا ضد عشرة أصوات . أما الاقتراح الثانى فقد فاز كذلك لأن أمريكا أيدته ، ولكن بأغلبية غير كبيرة .

والحق أن نشاط البرلمانيين العرب في المؤتمر جدير بالتنويه فقد خلق هذا النشاط حول منطقتهم فى هذا المؤتمر ، كما خلق فى مؤتمرات عدة سابقة ، جوا من الاهتمام والتقدير ، ومن الإدراك أن هؤلاء العرب وبلاد منطقة الشرق الأوسط بصفة عامة ليست هى الكمية المهملة التى كان الساسة فى الماضي ينظرون إليها ولا يعنون بها ، وأن التطلع إلى حالتها من ثروة زراعية ومعدنية ضخمة يجب أن يضاف إليه تقدير النهضة العظيمة التى نهضتها هذه الشعوب ، وأن رغبات هذه الشعوب وأهدافها يجب أن توضع موضع الاعتبار إذا أريد للعالم أن يستقر فيه السلام .

كنت أتحدث إلى رجل ذى شأن فى الاتحاد البرلمانى الدولى فأبدى لى دهشته من نشاط البرلمانيين الآسيويين والأفريقيين ومن شدتهم في جدالهم وقال : لقد كان كثيرون

ممن يتتبعون السياسة العالمية يظنون أن اختلاف الدول الكبرى هو الذى شجع الشعوب التى كانت محكومة فى الماضى ، والتى لا يزال بعضها محكوما إلى اليوم ، على اندفاعها الشديد في سبيل الحرية والاستقلال . وها هى الدول الكبرى تتقارب فلا يزيد تقاربها هذه الشعوب إلا عنفا وشدة في التمسك بحريتها واستقلالها . فكيف نفسر هذه الظاهرة . وأجبته : تفسيرها يسير . ذلك أن هذه الشعوب لم تدفع فى سبيل الحرية والاستقلال بتحريض من بعض الدول ، بل بدافع أصيل من حرصها على الحرية والاستقلال . لذلك سواء لديها إن اختلفت الدول الكبرى أو لم تختلف ، أنها تريد حريتها واستقلالها بأية حال . ولم يبق من سبيل للحيلولة بينها وبين هذه الحرية وقد أدركت مداها وقيمتها .

ليس من غرضى أن أسجل ما دار فى المؤتمر حول الموضوعات الأخرى كتعادل الشهادات الدراسية فى الدول المختلفة ، أو كتعديل نظام الاتحاد ، فهذه أمور ثانوية لا تمت إلى السياسة الدولية بصلة . وحسبى أن أذكر أن تعديل نظام الاتحاد أدى إلى زيادة لجنته التنفيذية عضوين جديدين فأصبحت تسعا بعد أن كانت سبعا ، وبعد أن كانت خمسا فقط فى سنة ١٩٤٧ . وكانت هذه الزيادة طبيعية بسبب زيادة الدول

– أو البرلمانات بتعبير أصح – المشتركة فى الاتحاد .. وقد تقدمت روسيا إلى هذه الانتخابات ففاز مرشحها . وكذلك فاز مرشح العراق الذى حل محل الأستاذ حبيب أبى شهلا اللبناني. وتقدم مرشح عن إسرائيل ومرشح عن السودان فلم يحرز أيهما الأصوات اللازمة لنجاحه . وانتخب كذلك من الكتلة الشرقية مرشح من سيلان ، حل محل العضو التركى الذى انتهت مدته .

إلى أى اتجاه تتجه اللجنة التنفيذية الجديدة بالاتحاد البرلمانى بعد أن زيد عدد أعضائها ، وهل يظل الاتجاه فى أن يكون الاتحاد عالميا بأوسع معانى الكلمة . تقدير ذلك للمستقبل ولتطورات السياسة الدولية ، والاتجاهات العالمية .

زيارتان للولايات المتحدة

زرت الولايات المتحدة مرتين . وكانت زيارتي الأولى مقصورة على نيويورك ولم تتجاوز عشرين يوما . أما زيارتي الثانية فقد تجاوزت نيويورك إلي واشنطن ، وإلى مساقط نياجرا على حدود ما بين الولايات المتحدة وكندا، كما استطعت أثناءها أن أتجول في شرق الولايات المتحدة وأن أقف على بعض مظاهر الحياة والنشاط فيها .

وقد خيلت إليّ زيارتي الأولى التي وقفت في حدود نيويورك ما يتخيله كثيرون من أن الولايات المتحدة هي بلاد ناطحات السحاب . فمباني نيويورك ترتفع في الجو ثلاثين وخمسين وسبعين طبقة . و(إمباير ستيت بلدنج) وهي أعلاها ترتفع في الجو مائة طبقة وطبقتين . ومع ذلك فالمصاعد (الاسانسيرات) السريعة تجعل الصعود في هذه الصروح الشاهقة أمرا يسيرا حتى لتكاد تشعر وأنت تصعد إلي الطابق الثلاثين أنك بلغته في زمن أوجز مما تبلغ فيه الطابق الخامس في أوروبا وفي القاهرة . على أن ما تخيلته من أن الولايات المتحدة بلاد ناطحات السحاب لم يلبث أن تلاشى حين زرتها المرة الثانية وحين تيقنت مما سمعته من قبل من أن نيويورك تمتاز أكثر من

غيرها بهذه المباني الشاهقة ، لأنها تقع على شبه جزيرة ضيقة الرقعة ، يحيط بها الماء من كل جهاتها تقريبا ، فلا مناص لساكنيها من أن يصعدوا فى السماء بدل أن ينتشروا فى الأرض ، ولا مفر لهم من أن يقيموا هذه الأدوار التى تعد بالعشرات لتتسع لسكنهم ولعملهم ولحاجات الحياة المتشعبة المختلفة عندهم .

فأما واشنطن مثلا ، وهى العاصمة ، فليس فيها ناطحة سحاب واحدة لأنها تقع فى سهل منبسط يتيح لأهلها أن يتفسحوا فى الأرض كلما حلا لهم أن يقيموا بناء جديدا . وكذلك الحال فى معظم مدن الولايات المتحدة .

ولمن شاء أن يسأل ما بال هؤلاء المقيمين بنيويورك ارتفعوا بمبانيهم فى الجو ولم يتركوا هذه الرقعة الضيقة التى تقوم عليها المدينة إلى مكان آخر ، ولا بأس بعد ذلك بأن تبقى نيويورك مدينة عادية يسكنها مليون من الناس فى مبان من أربعة طوابق أو خمس ، بدل أن يسكنها ثمانية ملايين فى ناطحات السحاب ؟ والجواب على هذا السؤال يكشف عن ناحية سيكولوجية من الخلق الأمريكي فى مناحيه المختلفة. ذلك الخلق هو فتوة الشباب والاعتداد بها للتغلب على كل عقبة يمكن أن تقوم فى سبيل الإنسان . وأنت حين تذكر الصناعات الكبرى فى أمريكا ، وحين تذكر المنشآت الضخمة التى سبق

الامريكيون غيرهم فى اقامتها ، كما صنعوا فى وادى التنيسى مثلا ، ترى أن فتوة الشباب هذه والاعتداد بها هى التى دفعت هذا الشعب الفتى فى مغامراته ، وهى التى تصور كيانه الخلقى والنفسى ، وهى التى جعلت منه فى عشرات معدودة من السنين هذه القوة الضخمة صاحبة الأثر البالغ اليوم فى مصائر العالم .

وهذا ما لاحظته فى جولاتى بنيويورك وما حولها ، وفى جولاتى فى شرق الولايات المتحدة إلى كندا . كل ما هنالك يتضوع بفتوة الشباب ومغامراته ، ولا يقيم وزنا لكثير من الاعتبارات التى تقيمها الشعوب التى تنوء تحت عبء التاريخ ، وإن ذخرت صحفه بالمجد ، فهو عبء على كل حال ، وهو عبء يثقل كاهل الأجيال المتعاقبة باعتبارات يسخر منها الامريكيون حين تلقى عليهم صورها وآثارها .

ومع ذلك تخضع أمريكا منذ اليوم لاعباء ماضيها وإن لم يكن بعيدا . لاحظت أن المطاعم الانيقة تعج ظهرا بأغلبية كبرى من النساء المترفات ، وبقلة ضئيلة من الرجال . وسألت فى ذلك فقيل إن النساء الامريكيات مدللات إلى غير حد ، ، وأن علة ذلك أن الذين هاجروا إلى أمريكا بعد اكتشافها مباشرة كانت كثرتهم الكبرى من الرجال ، لأن النساء يخشين المغامرة ولا يقدمن عليها للاعتبارات التى تدفع الرجال إليها . وفكر الرجال

المهاجرون في هذا الأمر ورأوا أنهم لا يستطيعون العيش ما لم تعاونهم النساء عليه ، ثم رأوا أن النساء لن يغامرن كما غامروا إلا إذا استهواهن الرجال بالتحف والهدايا مما جمعوا من ثروة هذه البلاد البكر التى هاجروا إليها . وبذلوا فى سبيل هذا الاستهواء الشيء الكثير . بذلوا الحلى والجواهر الكريمة والثياب النفيسة ، وكل ما تتوق المرأة وتهوى نفسها إليه . ونجح الرجال . لكن المرأة الأمريكية ورثت عن أمها المهاجرة الأولى هذا التدليل وهذا الدل على الرجال . ولهذا بقى الرجال إلى اليوم يزاولون أعمالهم طول يومهم ، وبقيت النساء اللواتى يقدر رجالهن على الانفاق عن سعة مدللات اليوم كما كانت أمهاتهن وجداتهن من قبل ، فعمرن إلى الآن مقاعد المطاعم الانيقة ظهرا ، فإذا جاء رجالهم فى المساء شاركنهم متاعا بالحياة يهون عليهم مشقة العمل المتصل كل نهار .

وفتوة الشباب الأمريكى تهون على الرجال هذه المشقة وتدفعهم إلى العمل المتصل والابتكار فيه . وأنت ترى مظاهر هذه الفتوة واضحة فى كل شيء . تراها واضحة فى متاجر نيويورك ، وفى المصانع الكبيرة المختلفة ، وفى دور الحكم ، وفى الصحافة ، وفى الإنتاج الأدبى والعلمى ، فى نيويورك متاجر كبيرة . لكنك ترى على وجوه العاملين والعاملات فى متاجر نيويورك نشاطا أوفر مما تراه فى متاجر أوروبا ، وترى

فى ألوان التجارة نفسها من التنوع هنا أكثر مما ترى هناك ، وترى فى اختلاف المصاعد التى ترفع من طابق إلى طابق حيوية ونشاطا قل نظيرهما في أوروبا . وترى فى دور الحكم من مظاهر هذه الفتوة ما لا نظير له فيما رأيت من بلاد غير الولايات المتحدة . زرت دار الكونجرس ، ودرت فى أرجاء مجلس الشيوخ ، فأدهشنى ما رأيت . لكل عضو من أعضاء مجلس الشيوخ غرفته الخاصة ، وله سكرتاريته الخاصة . وهو يقوم من شئون الدولة بأضعاف ما يقوم به غيره فى البلاد الأوروبية . فالتحقيقات البرلمانية تكاد لا تنقطع . وعضو الشيوخ يجيب عن طريق سكرتاريته على كل رسالة تصل من ناخبه أو من غير ناخبه . أما الصناعات فقد شهدت منها ما أثار دهشتي لضخامته ولعناية القائمين عليه عناية تجعل مدير الشركة واقفا على دقائق ما يجرى فى مصنعه الكبير . وتستطيع أن تقول ذلك عما سوى هذه المظاهر من الحياة الأمريكية وبخاصة فى ميادين الصحافة والإذاعة والمجلات والكتب . وهذا كله تدفع إليه فتوة الشباب فى ذلك الشعب الشاب الذى نفخ من شبابه فى حياة العالم شبابا وقوة ، والذى حاول أن يضاعف جهوده فى هذه الناحية ما استطاع .

وفتوة الشباب هذه تتناول الشعب كله بجميع طبقاته . ذلك

بأنها تجعل قيمة العمل فوق كل قيمة ، وتجعل النجاح في العمل أساس كل اعتبار ، وتبيح للإنسان العامل أن يستمتع بثمرات عمله ما شاء المتاع . كان في فندق بلازا فرع خاص لمسح الاحذية . وقد دعوت من ينظف لي أحذيتي فجاء رجل نظيف الثياب ، يرتدي سموكنج ، ثم علمت أنه مدير هذا الفرع ، وأن له سيارته الخاصة يخرج بها لنزهته بعد الظهر من كل يوم هو وأسرته . وتقديس العمل عند الشعب الأمريكي طبيعي، فهو شعب ديموقراطي بطبيعة نشأته وتكوينه ، لا يعرف الارستقراطية في الآباء والاجداد ، ولا يعنيه أن يكون جد الإنسان القريب أو البعيد انجليزيا أو ألمانيا إيطاليا أو ما شئت ، بل الناس جميعا سواء يتعاونون بإقدامهم وبقوتهم على العمل ، ونجاحهم فيه . مذهبهم جميعا أن الغني من يقول هاأنذا ، وليس الغني من يقول كان أبي . وفتوة الشباب خير دافع لأن يقول الإنسان هاأنذا ، وليعتز بعمله وتفوقه فيه .

هذا بعض ما لاحظته أثناء تجوالي بالولايات المتحدة وحين مقامي بها . وهو يصدق على رجالها ونسائها ، وعلى مظاهر حياتها المختلفة . وهو شاهد بأن هذا الشعب المملوء بالحيوية وبفتوة الشباب لا يزال أمامه دور طويل يقوم به في حياة هذا العالم.

الباب الثانى

رحلات إلى
الأماكن المقدسة فى الشرق الأوسط

فكرة الأماكن المقدسة

ألف الناس أن يعتبروا كل بناء أتى عليه القدم أثرا من الآثار، وأن يزوروه بدافع من الطلعة، استزادة من المعرفة، وحرصا على أن يروا بأعينهم ما صنع الأسلاف الذين طواهم الدهر فى صحائف القبور منذ مئات السنين أو ألوفها .. فالذين يزورون معابد الفراعنة فى مصر يزورونها توقا إلى العلم بحضارة سلفنا، وبالقواعد التى كانت هذه الحضارة تقوم عليها، وبالمنشآت التى شادها أهلها، وذلك شأن الذين يزورون الاطلال والآثار القديمة فى كل بلد من البلاد ، فأما المسلمون الذين يحجون بيت الله الحرام بمكة ويزورون قبر النبى عليه السلام بالمدينة، فليس حب الاستطلاع هو الذى يدفعهم لزيارة آثار قديمة توالت عليها القرون، وإنما يدفعهم شعور عميق بأنهم يؤدون فرضا فرضه الله عليهم، وهم يرون الكعبة، ويرون القبر النبوى ببصرهم وبصيرتهم، على أنهما متصلان بحياتهم الروحية، كاتصال منازلهم بحياتهم المادية وبحياتهم الاجتماعية. وذلك شأن المسيحيين اذ يحجون بيت المقدس،

إنهم يشعرون حين يدخلون كنيسة القيامة، وحين يزورون كنيسة المهد ببيت لحم، بأن فلذة من حياتهم الروحية قائمة في هذه الأماكن المقدسة، وبأنهم إذا بعدوا بأجسامهم عنها فإن أرواحهم تظل تهفوا اليها.

واليهود الذين يزورون المبكى ببيت المقدس، يخالط قلوبهم شعور كشعور المسيحيين، وكشعور المسلمين في زيارتهم الأماكن المقدسة عندهم .

لست أعدو الحق إذن حين أقول: إن هذه الأماكن تبقى على القرون جديدة أمام كل جديد، لأنها تعتبر في نظر الذين يحجونها موئلا لأرواحهم، وملاذا لقلوبهم المتعطشة إلى التطهر ترجوه حيثما تكون من بقاع الأرض،. ثم لا تطمئن إلى أنها بلغت حظها منه حتى تتم حجها .

هذا الاتجاه الروحي إلى مكان مقدس أمر جوهر في طبيعة الأديان جميعا، وهو كذلك بنوع خاص في طبيعة الأديان السماوية الثلاثة التي نزلت بالشرق الأوسط: اليهودية، والمسيحية، والإسلام، صحيح أن نشأة الأماكن المقدسة في الأديان الثلاثة، تختلف وتتباين تباينا كبيرا، لكن الفكرة التي شادت هذه الأماكن واحدة في الأديان الثلاثة أو تكاد تكون واحدة، وليس عجبا أن يكون ذلك شأنها. وبين هذه الأديان

الثلاثة صلة أوثق الصلة.. فقد قام المسيح بين قومه من يهود، يذكر لهم دينهم فى صفاء جوهره وينذرهم عذاب الله بأنهم حرفوا كلامه إلى موسى عن مواضعه منقادين وراء أهوائهم ومطامعهم، مبتغين من عرض الحياة الدنيا ما يباعد بينهم وبين رحمة الله.. مندفعين بحكم هذه الأهواء والمطامع إلى حياة الظلم والاثم، كما ينذرهم بأن أغنياءهم الذين يظلمون الفقراء لن يتقبل الله منهم.. فدخول الجمل سم الخياط أيسر من دخول الغنى الباغي ملكوت الله.

والقرآن الذى أنزله الله على محمد عليه السلام، يجادل النصارى ويجادل اليهود بأن الله بعث لهم رسله بكلمة الحق.. فزاغت عنها أبصارهم وبصائرهم، وبأنهم حرفوا كلام الله فى التوراة والإنجيل عن مواضعه، وأن النبى العربى إنما بعثه الله ليرد الحق إلى نصابه، وليحق الحق ولو كره الكافرون.. وقد بعثه الله مصدقا لما بين يديه من التوراة والإنجيل .

من هذه الصورة السريعة البسيطة لما بين الأديان الثلاثة من صلة، يتضح أنها ترجع إلى أصل واحد وتستمد وجودها في صفائه من ينبوع واحد. وهذا الأصل الأزلى الخالد هو الحق جل شأنه.. تجلى على موسى فكلمه تكليما ونفخ فى مريم من روحه فكان عيسى كلمته إلى الناس، وأوحى إلى محمد

آياته وكلمه هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان.

والينبوع الذى تستمد منه هذه الأديان وجودها فى صفائه، هو السمو بالروح عن كل عبودية لغير الله.. فالروح من أمر الله، وملكوت الروح فى السماء لا فى الأرض، وإله الروح واحد هو الله جل شأنه وتعالت أسماؤه. وقيام هذه الأديان الثلاثة تحيط به ظروف متشابهة .

كان الناس في عهد الرسل الثلاثة يتخذون لأنفسهم أربابا من دون الله، ثم يتخذون هذه الأرباب إلى الله زلفى.. فجاءت الأديان الثلاثة صريحة فى التقرير بأن الله لا إله إلاّ هو الملك الحق، وأن الذين يتخذهم الناس أربابا من دونه ليس لهم شيء من قدرته، لا يستطيعون أن يخلقوا ذبابا ضعف الطالب والمطلوب، وأن الناس يجب لذلك أن يقلعوا عن كل عبادة الا عبادة الله، وعن الأمل إلاّ فى وجهه الأكرم، وعن الاهتداء إلاّ بنوره الذى أضاءت له السموات والأرض وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة .

●●●

كان أهل مصر الفراعنة يصدقون فرعون إذ يقول لهم: «أنا ربكم الأعلى» فبعث الله موسى إلى بني إسرائيل يصرفهم عن عبادة فرعون إلى عبادة الله. وكان أهل فلسطين يذعنون

لأرباب روما صاحبة السلطان فيهم، وكان اليهود منهم يتملقون الحاكم الذى ترسله روما ويقرون ظلمه.. ابتغاء رضاه عنهم وليمد لهم أسباب السلطان والمال، فقام المسيح فيهم يدعوهم إلى ملكوت السموات وينذر الأغنياء عذاب ربهم الأعلى .

وكان العرب فى شبه الجزيرة يعبدون الأصنام.. فبعث الله محمدا إليهم يدعوهم لعبادة الله وحده ولنبذ الأصنام، وينذرهم عذاب يوم شديد إذا هم لم يبتغوا وجهه الأكرم، ملتمسين إليه الوسيلة بالبر والتقوى .

ليس عجبا والصلة بين الأديان الثلاثة ما قدمت، أن تتفق الفكرة التى أدت إلى تشييد الأماكن المقدسة أو تكاد تتفق، وهذه الفكرة لا تقف عند تقديس المكان الذى نزل الدين فيه، فأمرها ليس كذلك فى اليهودية بالنسبة لحائط المبكى ولا للصخرة المقدسة، وإنما جوهر هذه الفكرة تعيين المكان الذى يجتمع الناس فيه.. ليتوجهوا بقلوبهم إلى الله.، والذى يقبل الله فيه توبة التائب من آثامه.. فنحن وان اتصلت روحنا ببارىء النسم جل شأنه، تغشانا بحكم حياتنا الدنيا أهواء وشهوات، تحجب ضياء الروح، فلا يهدينا صراط الله المستقيم .

وكثيرا ماتدفعنا هذه الشهوات وهذه الأهواء إلى ألوان من المعاصى والآثام، تباعد بيننا وبين رضا الله

عنا، وحسن مثوبته جل شأنه ايانا..

حقا إن الحسنات يذهبن السيئات، وإنما فى عبادتنا حيث كنا نخفف من أوضار ذنوبنا، لكن من الذنوب مايثقل الروح فهى أبدا قلقة تريد أن تخلص منه. ونحن نتوب إلى الله ونستغفره فى كل صلاة وفى كل ساعة من ساعات الليل والنهار . وعفو ربى وسع كل شىء لكن التوبة النصوح التوبة التى يتقبلها الله ويمحو ذنوب صاحبها، هى التوبة التى نسعى اليها، ونتجشم المشاق فى سبيلها ثم نعلنها على ملأ العالم من بنى ديننا وهذه التوبة هى التى تتم فى إعلان صريح فى المكان المقدس الذى اختاره الله لنا، كى يكون بعضنا شهيدا على بعض، ولكى لا تلهينا العاجلة، فلا نكاد نعلن التوبة إلى الله حتى نتورط فى حياة الاثم من جديد .

هذه هى الفكرة الجوهرية القائمة بنفس كل مسلم، وكل مسيحى، وكل يهودى يعتزم الحج إلى المكان المقدس الذى اختاره الله لأهل دينه وملته. ففى سبيل طهر القلب، ونقاء الروح مما يعلق بالنفس من أوضار الاثم، نذر وراء ظهورنا تلك البيئة التى أغرتنا وغرتنا، ولعبت بأهوائنا، وعبثت بقلوبنا إلى بيئة طهور تتجلى فيها أرواحنا، وترتفع إلى غاية ما تستطيع أن تسمو إليه من عوالمها المضيئة.. فتصهر بحرارة إيمانها،

وبحرارة توبتها، ما علق بها أو تصهره على ملأ بني الدنيا لأن الدنيا مهد الخطيئة، فليس منا من يستطيع أن يدعي أنه لم يأثم.. بل كلنا تصدق فينا كلمة السيد المسيح فى مريم المجدلية: «من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر».

فكرة التوجه إلى الله بالتوبة وطلب المغفرة، هى التى أبقت الأماكن المقدسة جديدة أمام كل جديد، وهى التى أنشأت تلك الأماكن أول أمرها، وهى الأساس لنشأة أقدم هذه الأماكن وأكثرها قدسية.. فمنذ فجر الإسلام كان الطواف بالكعبة يجمع كل معاني التوجه لله، من شكر إلى رجاء إلى توبة واستغفار .

وكان الطواف بالكعبة يجمع هذه المعانى قبل الإسلام.. فالعربى الجاهلى الذى كان يطوف بالكعبة قبل أن يخرج الى عمل يرجو منه الخير والذى كان يضرب بالقداح عند هبل القائم فى جوف الكعبة قبل أن يوفقه رب البيت الى ما يبغى، ونحن لا نزال اذ نطوف اليوم بالبيت العتيق، يحدونا الرجاء أن يحط الله عنا أوزارنا، وأن يوفقنا فى حياتنا الى ما نحب ونرضى وإلى مايحب ويرضى ذلك شأننا جميعا حين نحج وان اختلف كل حاج فى تصور الحياة وتصور معانى الرجاء والشكر والتوبة.

الفكرة التى شادت الأماكن المقدسة وأبقتها جديدة أمام كل جيل جديد، هى اذن فكرة التوجه لله ابتغاء رضاه والأمل فى بلوغ الكمال الذى يقربنا من الله، ثم قصورنا دون هذا الكمال، وقربنا فى كثير من الأحيان من نقيضه، ورجاؤنا فى الله بعد ذلك أن يغفر لنا ما قصرنا وما أتممنا، وهذا الاضطراب بين الكمال ونقيضه يتعرض له الناس جميعا على اختلاف أقدارهم واختلاف علمهم .

فهذا العاهل العظيم الذى ملك الأرضين ودوخ الشعوب، وبلغ من ذلك ما بهر القلوب وشد اليه الأنظار يرجع إلى نفسه ساعات فيشعر بأن ما يراه هو ويراه الناس العظمة كل العظمة.. ليس شيئا إلى جانب ما ارتكب فى سبيله من أوزار، وانه لذلك أحوج إلى رضا الله عنه ولطفه به، حتى لقد يود لو أنه لم يكن عاهلا عظيما، ولم يرتكب كل ما ارتكب من الخطايا.

هنالك تضعف نفسه ويستشعر الندم، ويريد أن يتقدم الى بارئه بالتوبة، فيسعى إلى المكان المقدس الذى يتوب الناس عنده حاجا مستغفرا مما اجترح فى سبيل العظمة التى طالما أغرته وضلته، وهذا الفقير الذى يكد ليله ونهاره لقوته وقوت عياله، يشعر بأنه لم يكن دائما طاهر النفس فى سعيه، وفى

كده وأنه طالما تمنى لجاره ما لا يتمناه لمن يحب، وأنه فى سبيل الحياة قد أثم وأذنب، وأنه لذلك فى حاجة الى التوبة تطهره ليعود الى ربه نقى الروح جديرا بملكوت الله .

وبين هذين - بين العاهل العظيم والفقير الذى يكد ويسعى لقوته وقوت أهله - تضطرب طبقات الانسانية المختلفة بين القوة والضعف وبين اليأس والرجاء، وبين الأمل الخادع والخيبة اللاذعة. وهى فى اضطرابها يعبث بها الغرور تارة ويعبث بها الضعف أخرى.. فإذا عبث بها الغرور أثمت، وإذا عبث بها الضعف أثمت.. وعند ذلك تشعر بالحاجة الى التوجه الى الله منيبة تائبة من آثام الغرور ومن آثام الضعف جميعا... ثم لا تجد ملاذا لطهر الروح المتعطشة الى الطهر إلا بالحج إلى الأماكن المقدسة .. تعلن عندها التوبة وتغسل فى ظلالها الوزر والحوبة .

من ثم، كان شعور الحجاج اذ يبلغون هذه الأماكن المقدسة قويا، فياضا بمعان روحية لا سبيل الى تصورها فى غير هذه الأماكن وسنرى صورا من ذلك حين الحديث عن كل واحد منها.

الأماكن الإسلامية المقدسة

الكعبة الشريفة والمسجد الحرام بمكة المكرمة
المسجد النبوى بالمدينة المنورة
المسجد الاقصى بالقدس

الكعبة الشريفة

الإسلام أحدث الأديان السماوية الثلاثة التى نزلت فى الشرق الأوسط. وقد جاء النبى العربى مصدقا لما بين يديه من التوراة والإنجيل، ومع ذلك فبيت الله الحرام بمكة أقدم الأماكن المقدسة بهذا الشرق الأوسط. والسر فى ذلك ان الأماكن المقدسة لليهود وللنصارى، لم تخلع عليها آى القداسة الا بعد ان نزلت اليهودية وبعد أن نزلت المسيحية . أما الكعبة التى يعظمها المسلمون اليوم، فكانت مقدسة قبل بعث محمد بأجيال طويلة، وكان العرب يحجون اليها أيام الوثنية والأصنام، حتى منع الإسلام غير المسلمين من حج البيت.

وقد ذكر القرآن قدمها فى قوله تعالى: «إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين. فيه آيات بينات مقام ابراهيم . ومن دخله كان آمنا» وقال تعالى: «واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا. واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى. وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود» الى قوله جل من قائل: «واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل. ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم»

هذه الآيات ترجع بناء البيت الحرام الى ابراهيم واسماعيل.. وابراهيم هو جد الأنبياء عليهم السلام، يسبق فى التاريخ موسى وعيسى لا عجب إذن، أن يكون بيت الله الحرام بمكة أقدم الأماكن المقدسة فى الشرق الأوسط .

قصة البناء

وقصة بناء ابراهيم واسماعيل البيت ، قصة رواها المؤرخون على وتيرة تكاد تكون واحدة، والمأثور أن ابراهيم طعن على قومه لعبادتهم الأصنام فاضطهدوه.. ففر الى فلسطين ومعه زوجه سارة ومن فلسطين سافر الى مصر وتزوج فيها جاريته هاجر.. وولدت له هاجر اسماعيل ثم ولدت له سارة اسحق،

لم تطق سارة المقام مع هاجر فسافر ابراهيم بها حتى بلغ الوادى الذى تقوم به مكة اليوم، وهناك تركهما وترك معهما ما يقتاتان منه، أفكان فى هذا المكان ماء، وكان على الماء خيام لبدو يقيمون عنده هذا أمر اختلف فيه.. تجرى احدى الروايات بأن قبائل جرهم كانت تقيم على ماء فى هذا المكان. وتجرى رواية أخرى بأن ابراهيم ترك هاجر واسماعيل وحدهما وعاد أدراجه، وأن الماء نفد بعد أيام من هاجر .. فجلعت تسعى بين ربوتين هما الصفا والمروة، فلما سعت سبعا، تطلعت الى ناحية

ولدها اسماعيل، فألفته قد فحص الارض برجليه، فنجم الماء من بئر هي زمزم، واستقت هاجر وسقت ولدها وحجزت الماء دون السيل فجاءت جرهم فأقامت مع الأم وابنها على الماء .

ولما شب اسماعيل تزوج فتاة من جرهم بنت مقضاض ابن عمر وقد ذهب ابراهيم لزيارة اسماعيل وأمه أثناء مقامهما بهذا الوادى مرة قبل هذا الزواج ومرة بعده، والروايات تجرى بأن بناء الكعبة حدث في احدى هاتين الزيارتين، وان اختلف على كيفية حدوثه.

ذهبت رواية الى أن جبريل أمر ابراهيم فركب البراق مع هاجر ومع اسماعيل وطاروا يريدون مكان بيت الله لبنائه، حتى اذا نزلوا مكة تعاون الأب والابن على إقامة البيت، وفى رواية أخرى، أن ابراهم جاء الى مكة بعد أن شب اسماعيل وتزوج، ووجده أبوه يبرى نبالا تحت دوحة قريبة من زمزم، فتبادل التحية معه، ثم قال له: «يا اسماعيل ان الله أمرنى بأمر، أن أبنى هنا بيتا» وأشار الى أكمة مرتفعة عما حولها.. وتعاون الرجلان على البناء، اسماعيل يجيء بالأحجار، وابراهيم يلبنيها، حتى ارتفع البناء إلى قرابة قامة الرجل.. فجيء بالحجر الأسود ووضع مكانه، ثم تعاون الرجلان حتى تم البناء.

الحجر الأسود

والروايات في الحجر الأسود وأصله تختلف.. قيل: جاء به جبريل من السماء اذ كان قد رفع اليها حين أغرق الطوفان، وقيل: جاء به جبريل من الهند حيث هبط به آدم من الجنة، وكان أبيض ناصعا فاسوّد من خطايا الناس. وقيل: بل كان في جبل قبيس منذ طوفان نوح، وكان مضيئا يكاد يذهب سنا ضوئه بالابصار.. وانما سودته أنجاس الجاهلية وأرجاسها.

وهذه الروايات على اختلافها تذهب الى أن البيت العتيق كان ارتفاعه حين أقام ابراهيم واسماعيل قواعده، تسعة أذرع.. وانه كان مستطيلا عشرين ذراعا في ثلاثين وانه كان له بابان ملاصقان للأرض، وانه لم يكن عليه سقف وانما حفرت به بئر لتكون خزانة له.

●●●

هذا هو المتواتر في أمر بيت الله الحرام، وإقامته أول ما أقيم .. على أن طائفة من غلاة المعتقدين لا يرضون أن تكون هذه النشأة نشأته، ويحرصون على أن يردوا أمره الى ما قبل خلق الانسان أو إلى أول خلقه ذكر بعضهم أن الملائكة هم الذين بنوا البيت.. ذلك أن الله غضب عليهم حين قال لهم: «إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها

ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك».

وأحس الملائكة غضب الله عليهم فلاذوا بالعرش يتضرعون ويبكون إشفاقا من هذا الغضب، ثم طافوا بعرش الله شيعا كما يطوف الناس بالبيت الحرام وهم يقولون : لبيك اللهم لبيك .. ربنا معذرة اليك.. نستغفرك ونتوب اليك، فأنزل الله الرحمة عليهم ووضع تحت العرش بيتا هو البيت المعمور، وقال للملائكة: «طوفوا بهذا البيت ودعوا العرش» ثم أمر الله الملائكة من سكان الأرض أن يبنوا فى الأرض بيتا على مثال البيت المعمور ، وأمر من فى الأرض أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور وتجرى هذه الرواية بأن الملائكة بنوا هذا البيت الذى يقوم بيت الله الحرام اليوم مكانه قبل خلق آدم بألفى عام .

أما رواية آدم وبنائه البيت الحرام فتذكر أن آدم سأل ربه بعد أن هبط وزوجه من الجنة : «يارب ما لى لا أسمع أصوات الملائكة ولا أحسهم» وأجابه ربه: «بخطيئتك يا آدم .. ولكن اذهب فابن لى بيتا فطف به، واذكرنى حوله كنحو ما رأيت الملائكة تصنع حول عرشي» فأقبل آدم يتخطى الأرض حتى بلغ مكة فبنى البيت الحرام.. وقيل: كان هو يبنى وحواء تنقل الحجارة.

وفى رواية أن شيثا بنى الكعبة بعد آدم، ثم جاء الطوفان فى عهد نوح فأغرق الأرض وما عليها وأغرق بناء الكعبة، ثم بوأ الله لابراهيم مكان البيت، فأقام قواعده مع اسماعيل وليس فى وسع مؤرخ أن يثبت شيئا ـ على سبيل القطع ـ عن الروايات التى وردت عن بناء الملائكة أو بناء آدم أو شيث الكعبة.

وظلت الكعبة على بناء إبراهيم واسماعيل زمنا لم يحدده مؤرخ.. قيل: بناها العمالقة وجرهم بعد ذلك.. وقيل: بقيت كما بناها ابراهيم واسماعيل إلى أن جدد بناءها قصى بن كلاب الجد الخامس للنبى العربى وتذهب الرواية التى تذكر بناء قصى الكعبة إلى أنه خالف ما كان متبعا من ترك البيت قائما فى الفلاة لا يبنى حوله أحد إعظاما لحرمته، وأمر الناس فبنوا حول البيت ولم يتركوا إلا قدر المطاف .

خلاف حول الحجر المقدس

وأقام العرب يحجون الكعبة كما بناها قصى، إلى أن ولد محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، وإلى أن بلغ الخامسة والثلاثين من عمره، وفيما أهل مكة يتمتعون بحياتهم العادية، اذا سيل عظيم انحدر من الجبال وطغى على مكة، وأصاب الكعبة فوهنها وصدع جدرانها.. وفكرت قريش فيما تصنع

بها.. وبعد تردد، هدم القوم البيت الحرام حتي جداره، ونقلت قريش الأحجار من الجبال المجاورة وبدأت البناء. فلما ارتفع إلى قامة الرجل، وآن أن يوضع الحجر الأسود المقدس مكانه اختلفت القبائل أيها يكون لها فخار وضعه فى هذا المكان، وكادت الحرب الأهلية تنشب بسبب هذا الخلاف، لولا أن قال أمية بن المغيرة المخزومي للقوم - وكان فيهم شريفا مطاعا - اجعلوا الحكم بينكم أول داخل من باب الصفا.

وكان محمد بن عبد الله، ﷺ أول من دخل.. فلما قص عليه القوم قصتهم. قال: «هلم إليّ ثوباً» ونشر الثوب، وأخذ الحجر بيده فوضعه فيه، ثم قال: «ليأخذ كبير كل قبيلة بطرف من أطراف هذا الثوب» وحملوه جميعا حتى إذا حاذى موضع الحجر من البناء، تناوله محمد ووضعه فى موضعه.. ولذلك انحسم الخلاف، وأتمت قريش بناء الكعبة ورفعت بابها عن الأرض، وسقفتها ووضعت هبل فى داخلها، ووضعت معه النفائس التي أهديت من قبل لها، والتي طالما تعرضت قبل سقفها، لمطامع اللصوص.

إعادة بناء الكعبة

وظل بناء الكعبة هذا قائما حتى آل الأمر إلى يزيد بن معاوية، وكانت عاصمته دمشق، وكان عبد الله بن الزبير لا

يزال بمكة تأثرا بالأمويين وجرد يزيد جيشا سار إلى مكة، وحاصر ابن الزبير بها، ونصب المنجنيق على جبال مكة ورمى الكعبة بعشرة آلاف حجر، وهنت البناء وجعلته عرضة للحريق لما كان يخالط أحجاره من خشب الساج، عند ذلك استشار ابن الزبير الناس ما يصنع بالبيت، وانتهى الأمر الى هدم الكعبة واعادة بنائها.

وفى أثناء البناء نصب حول الكعبة سياج من خشب وجعلت عليه ستور حتى يطوف الناس بمكان البيت ويصلوا إليه.

وبعد عشر سنوات حاصر الحجاج ابن الزبير وقتله، ثم غير أحد جدران الكعبة، وسد الباب الغربى، ورفع البناء الى ما كان عليه فى الجاهلية فلما تولى هارون الرشيد، سأل الإمام مالكا فى هدم الكعبة وردها الى بناء ابن الزبير، فكان جواب مالك: «يا أمير المؤمنين لا تجعل كعبة الله ملعبة للملوك، لا يشاء أحد أن يهدمها لا هدمها» وترك الرشيد البيت، لم يتعرض له.

بقيت الكعبة على بناء ابن الزبير وتعديل الحجاج اياه، لا يزيد المسلمون على أن يقووا ما يعتريه الوهن منها، حتى كانت سنة ١٠٤٠ هـ (١٦٣٠م)، اذا هطل بمكة مطر هتون فدخل

المسجد وارتفع حتى دخل الكعبة، وكان بناؤها قد وهن بعد أن انقضى عليه قرابة ألف عام، لذلك سقطت جدرانها واحدا بعد الآخر، وترامى ما أصاب البيت الحرام إلى الأقطار الإسلامية، فانزعج الناس فيها، كما انزعج أهل مكة فأجمع الكل على المبادرة إلى عمارتها.

وأحيط البيت بسياج من الخشب يطوف به الناس ويصلون اليه، كما كان الأمر على عهد ابن الزبير، وأنفق القوم فى البناء ستة أشهر وأموالا طائلة ولم يعيدوا من الأحجار التى بنى بها ابن الزبير الكعبة الا ما وجدوه صلبا قويا .. أما ما وهن، فاستبدلوا به غيره.

على أن مشكلة خطيرة واجهتهم فقد بدأ الحجر الأسود يتناثر الفتات منه. وللحجر الأسود من القدسية حظ عظيم، جعل المعماريين يلجئون الى كل أساليب الفن ليعيدوا الى أجزائه صلابتها.. ولما تم لهم ما أرادوا، ربطوه بإطار الفضة الذى ربط به على عهد ابن الزبير ووضعوه مكانه .

وبناء الكعبة هذا، هو القائم إلى يومنا الحاضر... وهو الذى يطوف المسلمون به منذ فرض الله الحج عليهم إلى الآن..

المسجد الحرام ومشاعر الحج

قلنا إن الكعبة أقدم الأماكن المقدسة، وأنها أول بيت وضع للناس.. فقد كان العرب فى الجاهلية يحجونها على اختلاف نحلهم ويعتبرونها المكان الذى يقبل فيه التوجه الى الله، وتقبل فيه توبة التائب.. كان لبعض قبائل العرب أماكن كالكعبة تعظمها وتحج اليها، وكان لكل قبيلة صنم تتخذه إلى الله زلفى، لكنها كانت جميعا تقدر أن الحج المقبول عند الله هو الحج الى بيته بمكة. فإذا اكتفى رجل القبيلة بالتعبد لصنمه، أو بحج البيت القائم بالطائف، ان كان من ثقيف مثلا، لم يكن قد أدى ما عليه من فرائض العبادة أداء كاملا، ولابد له من زيارة البيت العتيق ليتم حجه وتقبل توبته .

ولما تغلبت الحبشة على اليمن وحكمها أبرهة، ظن أنه يستطيع أن يصرف أهل اليمن عن بيت مكة.. اذا هو أقام لهم بصنعاء بيتا يحجونه ويولون وجوههم شطره. وأقام بصنعاء بيتا له من الجمال، ومن دقة الفن ما لم يكن لبيت مكة الذى

تنزه ببساطته عن مجالى الفن.. فلم ينصرف أهل اليمن مع ذلك الى بيت أبرهة عن البيت العتيق، بل ظلوا مؤمنين بأن هذا البيت القائم بمكة هو وحده الذى تقبل فيه التوبة الى الله، وتقبل فيه توبة التائب .

وكانت الأشهر التي تعارف عليها العرب قبل الإسلام على حج البيت فيها حرما، لا يحل فيها قتل ولا قتال.. فاذا برز الناس للحج من أنحاء شبه الجزيرة، وتخطوا أعلام الحرم، لم يجز لأحد أن يقتل أو يقاتل، وجب على الجميع أن يلوذوا بأهداب السلام وأن يقفوا من مناوأتهم ومناوشاتهم عند الفخر والتفاخر على نحو ما كان يقع بعكاظ وبغيرها من أسواق العرب.. فاذا حدثت أحدا نفسه بالجريمة فى الأشهر الحرم فهو آثم قلبه لذلك وجد النبى عليه السلام فرصة الدعوة الى دين الله فى هذه الأشهر الحرم، حين قاطعته قريش وألزمته وأصحابه بمكة شعبا من شعاب الجبل ثلاث سنوات متوالية.. في هذه الفترة الدقيقة من حياة الدين الناشيء، كان الرسولﷺ يخرج إلى الناس فى الأشهر الحرم، آمنا عدوان خصومه عليه، وكان يعرض نفسه على القبائل يدعوها إلى دين الله مطمئنا إلى أنه في حمى بيت الله .

وكان المسلمون قبل الهجرة يعظمون البيت كما يعظمه

غيرهم من سائر العرب، ومن يوم أسلم عمر بن الخطاب، لم يرض عن استخفاء المسلمين وذهابهم الى شعاب مكة، يقيمون الصلاة فيها بعيدين عن أذى قريش،، بل دأب على نضال قريش حتى صلى عند الكعبة وصلى المسلمون معه. فلما هاجر رسول الله ﷺ والمسلمون معه، إلى المدينة،، بقى حنينهم الى بيت الله بمكة يستحثهم الى زيارته. وظل ذلك دأبهم حتى ذهبوا عام الحديبية لحج البيت فلما صدتهم قريش ذلك العام ذهبوا العام الذى بعده،، وفتح الله مكة بعد ذلك لدينه ولنبيه، فأصبح للمسلمين من الحرية في حج البيت ما لغيرهم وظل ذلك شأنهم الى أن كان العام الذى سبق وفاة الرسول ﷺ والذى حرّم بعده على غير المسلمين أن يطوفوا بالبيت العتيق .

قبل الإسلام وبعده

وإنما اختلف أمر الكعبة فى الإسلام عنه في الجاهلية بعد فتح مكة، لأنها كانت في الجاهلية موئل الأصنام،، وكانت تهدى إليها نفائس تحفظ في داخلها وكانت بعض الأصنام قطعا من الفن،، كان هبل مصنوعا من العقيق على صورة الإنسان فلما كسرت ذراعه أبدله القرشيون منها ذراعا من ذهب . وكانت بئر زمزم مطموسة ثلاثة قرون فى الجاهلية فأعاد عبد المطلب جد النبى حفرها،، فأخرج منها غزالتين من الذهب كانتا

مخبوءتين فيها.. وكانت الملائكة مصورة على جدران الكعبة في صورة النساء، وكان لابراهيم صورة يستقسم فيها بالأزلام. فلما فتح النبى مكة عفى على هذا كله، وطهر الكعبة من كل صنم وصورة، وأبقاها في بساطتها مثابة للناس وأمنا.

وللمسجد الحرام قدسية تتصل بقدسية الكعبة، وهو اليوم فسيح لبضعة آلاف من الأمتار يتجاور في صحنه الرخام والحصباء، ويمتد النظر في كل ناحية منه حتى تقفه عمد بينها وبين جدرانه بضعة أمتار وتقوم فوق العمد والجدران قباب تحمي من بالمسجد من الشمس والمطر، وهو لم يبلغ سعته هذه فى عهد النبى ولا فى عهد أبى بكر، ولم يزد عمر وعثمان فى مطاف الكعبة إلاّ قليلا، ولم يرفعا حوله بناء كالذى نراه اليوم وإنما أحيط المطاف فى عهدهما بجدار قصير غير مسقوف.

وفى المطاف كان المسلمون يقيمون الصلاة فلما اتخذ الأمويون دمشق عاصمتهم ورأوا عناية النصارى بكنائسهم وعمارتها وزينتها.. رأوا أن يجعلوا للمجسد الحرام مثل هذه العناية وكان عبد الملك بن مروان أول من أمر فى سنة خمس وسبعين للهجرة، فرفعت جدر المسجد وسقُف بخشب الساج الداكن المتين وزاد الوليد بن عبد الملك فى عمل أبيه، فوسع المسجد وزخرف السقف، وأزر أسفل جدرانه بالرخام وجعل له شرفا.

وجاء العباسيون فزادوا فى رقعة المسجد الى ضعف ما كان عليه، وزينوه بالذهب وأنواع النقوش، وكانت الكعبة فى جانب من المسجد فأمر المهدى أن تكون فى وسطه نفذ المهندسون أمره مع الاحتياط للسيول حتى لا تطغى على البيت الحرام . وظل المسجد بعد ذلك موضع العناية من جانب الأمم الإسلامية فى مختلف العصور الى وقتنا الحاضر .

أماكن لها حرمة

الكعبة هى أول ما يأخذ بنظر من يدخل المسجد بطبيعة الحال.. هى بيت الله الحرام، من دخله كان امنا.. وهى قبلة المسلمين فى أقطار الأرض جميعا.. لكن بالمسجد فيما حول الكعبة، أماكن لها عند المسلمين حرمة خاصة، هذه الأماكن هى: مقام ابراهيم، وحجر اسماعيل، وبئر زمزم، والتاريخ لا يحدثنا عن الصورة التى كان عليها مقام ابراهيم أو حجر اسماعيل فى الماضى.. بل لعل بعض المؤرخين يجدون عسرا فى إثبات المكان الذى يقوم فيه المقام أو الحجر حين كانت الكعبة قائمة ليس حولها إلا المطاف.. على أن حرمة المقام والحجر والبئر، ترجع إلى اعتبارات تاريخية وإلى نصوص فى القرآن، تدنى هذه الحرمة من القدسية، وإن لم تدن بها من قدسية البيت الحرام .

وهذه الحرمة تدعو المسلمين للقيام فى هذه الأماكن بالصلاة اجلالها لها .. ولا عجب أن يصنعوا وقد ورد في القرآن عن مقام ابراهيم قوله تعالى: «واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا، واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى» ، أما حجر اسماعيل فيذكرون أنه كان يقع داخل رقعة الكعبة، كما أقام ابراهيم واسماعيل قواعدها، ولذلك كان أجر الصلاة فيه كأجر الصلاة داخل بيت الله .

ومقام ابراهيم يقابل باب الكعبة ويقابل الحجر الأسود، وهو يقع فى جوار باب أقيمت عمده وأقيم عقده من الرخام ، ولما كانت الروايات لا تثبت للمصلين فيه أجرا كأجر المصلين فى حجر إسماعيل، كان الذين يطيلون المقام عنده قليلين.

أما حجر إسماعيل، فيتصل بالكعبة ويقع فى الناحية المقابلة للجدار الممتد بين الركن اليمانى والحجر الأسود، ويحيط به سور فى نصف دائرة من الرخام يرتفع إلى ما دون قامة الرجل العادى، والمصلون فيه أيام الحج يزحم بعضهم بعضا حتى لا يكاد الإنسان يجد به مكانا إلا أن ينتظر حتى يخلى له غيره مكانه .

يقابل بئر زمزم حجر اسماعيل إلى الناحية الأخرى من بناء الكعبة وقد أقيم فوق البئر حديثا بناء يسترها، أريد به

منع مياهها من التلوث، وهذا البناء فخم يدخل الإنسان اليه اذا وجد الوسيلة الى الدخول فيراه فسيح الأركان. ويرى فيه الموكلين بإخراج الماء من البئر ليشرب منه من يطلبون البركة. فأما الذين يتاح لهم دخول البناء والوصول الى البئر، فيتوضأون من ماء زمزم، ويتضاعف بذلك حظهم من البركة.

أبواب المسجد

وللمسجد الحرام فيما يقابل البئر والحجر والمقام أبواب عدة، لعل باب عليّ أكثرها جمالا من الناحية الفنية .. على أن باب الصفا هو الذى ينتقل منه الإنسان إلى شعيرة من شعائر الحج والعمرة بعد الطواف فالطواف بالكعبة أول ما يجب على من يدخل مكة أن يقوم به فإذا أتمه فعليه أن يسعى بين الصفا والمروة استجابة لقوله تعالى: «ان الصفا والمروة من شعائر الله. فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما، ومن تطوع تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم» .

والصفا والمروة كانتا ربوتين قائمتين فى الفلاة تظلهما السماء ويمتد بينهما المسعى فلما بنى الناس حول الكعبة اعتدوا على أجزاء من المسعى حتى لم يعد اليوم مستقيما وحتى طغت الحوانيت والجدران والطرق القائمة حوله على بعض أجزائه.

هذه الأماكن التى أشرت اليها هى أماكن الحج الإسلامى المقدسة داخل مكة، وهى تتصل ببيت الله الحرام.. وقدسيتها تفرض لها شعائر خاصة من العبادة تقررت أصولها منذ عهد النبى عليه السلام ثم نظمت تفاصيلها على الأجيال أدق نظام.

الأماكن المقدسة خارج مكة

أما أماكن الحج الإسلامى المقدسة خارج مكة، فأولها عرفات.. وقدسية عرفات لا تتجلى الا يومى الحج، وهما اليومان الثامن والتاسع من شهر ذى الحجة لكل عام، وعرفة أو عرفات جبل، يبعد عن مكة عشرين كيلو مترا أو نحوها، سطحه بطحاء فسيحة تتسع لعشرات الألوف من الناس، فاذا كان اليوم الثامن من ذى الحجة صعد الحجاج من مكة إلى عرفات زمرا، فألفوا خيامهم ضربت بها وأعدت لقضاء الليل فيها .

فإذا أصبح الصبح من يوم عرفة، رأيت هذا البطيح ممتدا أمامك لا يكاد يحيط بحدوده نظرك، ورأيت الناس فيها جميعا لبسوا لباس الاحرام فهم سواسية ورأيتهم يتوجهون بقلوبهم وأفئدتهم إلى الله يلتمسون التوبة والمغفرة. فأنت تسمع استغفارهم منذ صلاة الفجر لذلك اليوم إلى أن يفيض الناس من عرفات بعد صلاة العشاء فوق الجبل.. فاذا أفاض الناس

من عرفات عاد خلاء كما كان لا يعمره إلا من يمرون به من البدو، ثم يبقى كذلك إلى أن يستدير العام وتعود أيام الحج فى العام التالى .

ويفيض الناس من عرفات إلى المشعر الحرام بالمزدلفة، يأخذون منه الجمرات إلى منى.. والمشعر الحرام مسجد قائم فى عزلة الصحراء بين هذه الجبال القليلة الارتفاع، والتى تتصل من مكة الى عرفات وقل أن يرى أحد من الحجاج مسجد المشعر الحرام لأنهم يمرون به بعد الافاضة ليلا .

ولا يقيمون عنده الا سويعات تطول أو تقصر حسب ساعات الافاضة، فمن أفاض بعد العشاء أتيح له أن يبقى زمنا الى ما بعد منتصف الليل ومن أفاض من عرفات قبيل منتصف الليل لم يقف بالمشعر الا ريثما يتم جمع الجمرات.

ويبلغ الحجاج منى قبيل الفجر، ثم يقضون بها ثلاثة أيام يرمون فيها الجمار ويصلون بمسجد الخيف، على أن الناس يهبطون من منى أول أيام عيد الأضحى ليطوفوا بالبيت ومنهم المحرم ومنهم من حل احرامه فإذا أتموا الطواف والسعى، عادوا الى منى فقضوا بها أيام عيد الأضحى، ثم رجعوا الى مكة ينظمون سفرهم منها الى المدينة أو عودتهم إلى بلادهم .

هذه هى الأماكن المقدسة التى تتصل بالحج عند المسلمين

وهذه الصورة السريعة التى عرضتها عليك تدلك على أن ما كان خارج مكة من هذه الأماكن لا تتجلى حرمته الا فى أيام الحج. فأما ماخلا ذلك من أيام السنة، فهو خلاء لايشهده ولا يمر به الا المقيمون حوله.. أما بيت الله الحرام وأما المسجد الحرام، فتظل شعائرهما متصلة طول العام.. وعلى كل من دخل مكة أن يطوف بالبيت وأن يسعى بين الصفا والمروة .

والمكان المقدس عند المسلمين بعد بيت الله، هو القبر النبوى بالمدينة .

المسجد النبوى

قل من المسلمين من حج بيت الله الحــرام بمكة، ولم يزر الحجرة النبوية بالمدينة وكثيرا ما كان النـــــاس فى بعض الأزمان يكتفون بزيارة القبر النبوى فى موسم رجب، وكان ذلك واضحا بنوع خاص أيام كانت سكة الحديد الحجازية ممتدة بين الشام ومدينة الرسول . والحق أن قدسية المسجد النبوى والحجرة النبوية، لا تقل فى نظر الأكثرين عن قدسية المسجد والبيت الحرام بمكة. وإن لم يفرض الإسلام لمسجد المدينة شعائر خاصة به .

والمسجد النبوى بالمدينة، يحتوى على الحجرة النبوية حيث دفن رسول الله ﷺ وحيث دفن الخليفتان الأولان أبو بكر، وعمر، ومن هنا، ازدادت قدسيته وازداد إقبال الناس على زيارته على أن لمسجد المدينة مكانة خاصة، لأن رسول الله ﷺ هو الذى أقامه فى صورته الأولى.. فهو لذلك مسجد أقيم خالصا للمسلمين .

فقد دخل رسول الله ﷺ المدينة بعد هجرته من مكة، وليس

له فيها مكان يقيم به، فلما بركت الناقة التى كان يمتطيها عند مربد يجفف فيه التمر لغلامين يتيمين من بنى النجار، سأل عليه السلام لمن المربد، وأجابه معاذ بن عفراء إنه لسهل وسهيل ابني عمر، وهما يتيمان له وسيرضيهما، ورجا رسول الله ﷺ أن يتخذه مسجدا، وقبل النبى أن يبنى فى هذا المكان مسجده وأن يبنى داره.

وأمر رسول الله، فقطع ما بالمربد من نخل وغرقه، وسوى ما كان به من قبور الجاهلية، وجفف ما كان به من الماء، ثم بدأ البناءون يبنون المسجد والرسول معهم ينقل اللبن، واذ كان البناء بسيطا، جدره من اللبن وسقفه من الجريد وعمده من خشب النخل، فسرعان ماتم .

وبنى بيت رسول الله ﷺ بجوار المسجد.. وإلى أن تم بناؤه كان رسول الله ﷺ يقيم بدار أبى أيوب الأنصارى .

وكانت مساحة المسجد حين أتم النبى بناءه لأول مرة، لا تزيد على خمسة وثلاثين مترا فى ثلاثين، وكان بحجمه هذا، كافيا لصلاة المسلمين الأولين بالمدينة من المهاجرين والأنصار، فلما أجلى النبى اليهود عن المدينة وأجلاهم عن خيبر، وخلصت المدينة بذلك للمسلمين، لم يكن بد من أن يزيد النبى فى رقعة المسجد، فجعله خمسين مترا فى خمسين وكانت قبلة المسجد يؤمئذ من جذوع النخل، وقد بقيت متجهة الى ناحية المسجد

الأقصى حتى عدل بالقبلة الى ناحية الكعبة.

ولم يتخذ رسول الله ﷺ لنفسه منبرا أول ما بنى المسجد، بل كان يخطب الناس مستندا إلى جذع نخلة كانت عمادا من عمد المسجد فلما شعر أصحابه أن القيام شق عليه، صنعوا له منبرا من الخشب درجتين ومجلسا .

توسيع المسجد

وانقضت خلافة أبى بكر والمسجد كما كان على عهد النبى ﷺ.. فلما اطردت زيادة المسلمين رأى عمر أن لابد من الزيادة فى المسجد .. فزاد فيه خمسة أمتار من الناحية الشمالية، ولم يزد شيئا من الناحية الشرقية، اذ كانت بها بيوت أزواج رسول الله ﷺ أمهات المؤمنين ولم تكن زيادة عمر المسجد الا زيادة فى رقعته .. أمام فن البناء فبقى كما كان على عهد رسول الله ﷺ ، لأن العرب إلى ذلك العهد كانوا يقصدون بالعمارة سد الحاجة الماسة على أبسط صورة .

وازداد سكان المدينة بازدياد رقعة الفتح الإسلامى، فشكا الناس إلى عثمان ضيق المسجد يوم الجمعة. وشاور عثمان أهل الرأى من الصحابة فأجمعوا على أن يهدم ويزاد فيه، وهدم عثمان المسجد وزاد فيه بقدر زيادة عمر، ثم أحدث من التطور في عمارته أن بني جدرانه بالحجارة المنقوشة، وجعل

عمده من حجارة منقورة.. ادخل فيها عمد الحديد وصب فيها الرصاص ونقشها من خارجها وجعل السقف من خشب الساج.

الوليد يعيد بناء المسجد

وبقى المسجد على بناء عثمان حتى استقر الأمر للوليد بن عبد الملك الأموى، ولم تبق للثائرين بالحجاز قوة. وقدم الوليد الحجاز حاجا وزار المدينة، فألفى أحفاد على بن أبي طالب يلوذون ببيت فاطمة إلى جوار المسجد، ورأى في ذلك تحريضا قد يعيد الثورة مشبوبة بالحجاز من جديد، هنالك قرر أن يزيد في المسجد وأن يدخل بيت فاطمة وبيوت النبي ﷺ جميعا فيه.. لم يثنه عن ذلك جزع الناس وبكاؤهم لإزالة هذه الآثار التاريخية الباقية للنبى ولحياته فى المدينة.

وكان للوليد فى العمارة وزخرفها رأى غير رأى العرب.. فقد قضى حياته بدمشق وبين الآثار المسيحية والرومية فى الشام وقد أقام والده عبد الملك بن مروان قبة الصخرة ببيت المقدس فبز بها الكثير من الكنائس البارعة.. لذلك لم يلبث حين استقر رأيه على هدم مسجد النبى ﷺ وإعادة بنائه، أن كتب الى ملك الروم يستعينه بعمال وفسيفساء.

وهدم عمر بن العزيز عامل الوليد على المدينة مسجد النبى،

وأدخل فيه حجرات أزواج النبى وبينها حجرة عائشة.. بذلك أصبح القبر النبوى داخل المسجد وبالغ عمر فى تجميل المسجد.. زخرف المحراب، والشرفات، والمنابر، زخرفا لا عهد للعرب به وعنى بسقف المقصورة النبوية عناية جعلته بدعا فى الفن وقد أعجب الوليد بن عبد الملك بما رأى من ذلك حتى لقد نظر إلى ابان بن عثمان يقول له : «أين بناؤنا من بنائكم» لكن ابان أجابه : «إنا بنيناه بناء المساجد وبنيتموه بناء الكنائس».

حريق المسجد

تمت هذه العمارة سنة تسعين للهجرة.. وظل المسجد قائما بها إلى سنة ست وستين ومائة، حين جاء المهدى العباسى فأمر بزيادة المسجد.. وزيد فى ناحيته الشمالية زيادة كبيرة اخذت لها عمارة الوليد طرازا. واستقرت رقعة المسجد على زيادة المهدى الى سنة ٦٥٤ للهجرة، اذ ترك موقد المصابيح مشعلا فى مخازن المسجد فامتدت النار منه إلى ما حوله، وسرت الى المسجد فلم تبق على خشبة واحدة. أكلت النار المنبر النبوى والأبواب والخزائن والنوافذ والمقاصير وما اشتملت عليه من كتب، وامتدت الى كسوة الحجرة ووقع السقف الذى كان بأعلى الحجرة على سقف بيت النبى، فوقع جميعا فى الحجرة وعلى القبور التى بها .

كانت بلاد الدولة الإسلامية حين ذلك فى قلق واضطراب .. لذلك اكتفت كل منها بأن بعثت من مواد العمارة الى المدينة ما أرضى عقيدتها. وقام أهل المدينة بما يستطيعون من عمارة المسجد..لكن أحداث الاضطراب في رقعة المملكة، كانت تقف العمل وتجعله اذا سار يسير فى غير خطة مرسومة، فلما تولى الظاهر بيبرس أمر مصر بعد ست سنوات من الحريق، جهز الصناع وكل ما يحتاج اليه البناء وبعث بذلك كله الى المدينة، وسار العمل فى البناء حتى تم وقام المسجد كما كان قبل الحريق .

لم يطرأ على عمارة المسجد بعد ذلك الى سنة ست وثمانين وثمانمائة، تغيير جوهري، وكل ماحدث أن جدد سقفه أو زيد فيه طمعا من بعض أمراء البلاد الإسلامية، وأمراء مصر بنوع خاص، فى المثوبة، أما فى سنة ست وثمانين وثمانمائة، فقد انقضت صاعقة على مئذنة المسجد الرئيسية.. فانتقلت النار من المئذنة إلى سقف المسجد ثم الى البناء كله حتى احترقت المقصورة والمنبر والكتب والمصاحف ولم يسلم من الحريق الا الحجرة وقبة مبنية بصحن المسجد .

قايتباى يعيد بناء المسجد

كان التطور الذى حدث فى عمارة المسجد بعد انقضاض الصاعقة عليه أكثر وضوحا لقد رأيت كيف انتقل من بساطته

الأولى إلى هذه العمارة الفنية البديعة التى ابتغى بها الملوك والأمراء مثوبة الله. أما بعد حريق الصاعقة، فقد وجد أمير مصر الملك الأشرف قايتباى من أعادوا بناء المسجد على صورة بلغت غاية التأنق، واقتضت من النفقة ستين ألفا ذهبا من الجنيهات.

كانت مصر هى التى تقوم بعمارة المسجد النبوى ـ أو بالحظ الأكبر منها فى تلك العهود ـ فلما آلت الخلافة لآل عثمان بالآستانة، وجه سلاطين آل عثمان إلى المسجد عناية فائقة.. ففى القرن العاشر الهجرى عمره السلطان سليم الثانى وشيد به محرابا جميلا لايزال قائما الى اليوم غرب المنبر النبوى. وفى القرن الثالث عشر بنى السلطان محمود القبة الخضراء .

وفى عهد السلطان عبد الحميد، فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، لوحظ أن المسجد بحاجة الى العمارة بعد أن انقضى على عمارته أربعة قرون لم تحدث به أثناءها عمارة هامة. وقد كان المهندسون يهدمون جزءا من المسجد ويقيمون مكانه ما يحل محله، ثم يهدمون بعده جزءا غيره، حتى تمت عمارة المسجد كله فيما بين سنة ١٢٦٥، وسنة ١٢٧٧. وقد زيد فى الجدار الشمالى ما كفى لبناء مخازن ومكاتب وأحواض

الوضوء، وشيدت المئذنة المجيدية على طراز بالغ غاية الروعة والابداع، وبلغت نفقات هذه العمارة ثلاثة أرباع المليون من الجنيهات المجيدية.

خطوط رائعة

وقد سجلت هذه العمارة من آثار الفن الإسلامى فى بناء المسجد ما لايزال حتى اليوم بهجة الأنظار كتبت على جدران المسجد سورة الفتح، وأسماء الله الحسنى وقصيدة البردية وأسماء النبى عليه السلام بخط بلغ غاية الروعة والدقة الفنية والخط العربى هو الذى حل محل التصوير والنقش بعد أن حارب الإسلام التماثيل والصور وقد قضى الخطاط العظيم عبد الله بك زهدى عشر سنوات فى كتابة ما كتب على جدران المسجد من هذه الآيات الرائعة فى عالم الفن .

هذه العمارة هى القائمة الى اليوم، لم تزد عليها الا بعض ترميمات فى محاربين وفى أرضه وفى عمده .

الروضة النبوية

على أن ما أشرت اليه من أمر المسجد لم يتناول القسمين الهامين فيه. أقصد القبر النبوى والروضة النبوية ـ والروضة هى الجزء الواقع من المسجد بين قبر رسول الله ﷺ ومنبره، وذلك لما روى عنه عليه السلام أنه قال: «بين قبرى ومنبرى

روضة من رياض الجنة» ، والروضة تمتد اليوم إلى ما بعد منبر النبى ﷺ ويطلق اسمها على كل القسم الذى به عمد مسجد النبى، وقد نقشت عمد الروضة بالأزهار، وقام على جانب منبر النبى ﷺ محرابان آية فى الدقة والجمال. وفرشت أرض الروضة بأثمن السجاجيد .

وتعتبر الروضة النبوية من أكثر الأماكن الإسلامية تقديسا.. فكل من أم المسجد بدأ بزيارة القبر النبوى، ثم ذهب الى الروضة يصلى فيها تحية المسجد، ويبقى الي الفرض الذى يلى حضوره.. وقد يبقى بها الى أكثر من فرض ، وهو يجد فيها المصاحف ودلائل الخيرات موضوعة على كراسيها، يقرأ فيها من شاء تبركا ومثوبة .

فأما القبر النبوى والحجرة النبوية، فموضع الاجلال والتقديس يؤمها الزائر لأول ما يدخل المدينة كما يؤم الكعبة لأول ما يدخل مكة.. ويتلو عندهما من الدعوات ما شاء الله أن يتلو، ويصلى فى الروضة على مقربة منهما ما شاء الله أن يصلى، وجمال الحجرة والقبر فى داخلهما يأخذ بالنظر. لكنهما يثيران فى النفس من العبرة ما يزيدها للنبى العربى اجلالا وتقديسا .

لقد كانت هذه الحجرة آية فى البساطة يوم دفن فيها

رسول الله ﷺ . كانت قبرا سوى على صاحبه عليه السلام، وظلت حجرة القبر على بساطتها إلى أن أمر الوليد بن عبد الملك بضمها، وضم بيوت أمهات المؤمنين إلى المسجد.. عند ذلك، أقام عمر بن عبد العزيز الحجرة فخمة لا تمت إلى بساطتها الأولى بأية صلة. ولقد أنكر أولو الورع من المسلمين ما حدث من ذلك وعدّوه بدعة، ورأوا فيه خروجا على الأسوة الحسنة ..

لكن ذلك لم يغير شيئا من اتجاه المسلمين بعد الى الناحية التى اتجه اليها الوليد بن عبد الملك.. فقد تجدد بناء الحجرة بعد ذلك غير مرة، وفى كل مرة كانت عمارتها تزداد فخامة عن المرة التى سبقتها.. ثم إن الحجرة كسيت كسوة مطرزة أجمل طراز.. ثم جعلت الهدايا تهدى اليها، وفى مقدمتها قناديل الذهب والفضة، وقد بلغ وزن قناديل الذهب في وقت من الأوقات تسعة قناطير كذلك أهديت للحجرة هدايا من الأحجار النفيسة، كان بينها حجر من الماس أطلق عليه اسم الكوكب الدرى، قدرت قيمته بثمانمائة ألف جنيه ذهبا. وعلق تحت هذا الكوكب الدرى كف من الذهب مرصع بالجوهر فى وسطه حجر من الماس أصغر من الكوكب الدرى.. هذا إلى نفائس كثيرة لا تقدر بثمن .

لم يبق لهذه النفائس اليوم أثر بالحجرة، لأن تقلب الأحوال والنظم السياسية على الحجاز في هذا القرن العشرين أدى الى نقلها الى حيث توجد اليوم .

القبر النبوى، والروضة، والمسجد النبوى.. هذه هى المجموعة المقدسة التى تلى فى نظر المسلمين الكعبة بيت الله الحرام. وهى لا ريب مجموعة لانظير لها بين الآثار الإسلامية فى قيمتها التاريخية وفي قيمتها الفنية .

المسجد الاقصى

تناولت الفصول السابقة إلمامات سريعة عن الأماكن المقدسة بالحجاز.. وننتقل الآن الى فلسطين، لنتحدث عن أماكنها المقدسة.. وأولها المسجد الأقصى.

والمسجد الأقصى من الأماكن المقدسة عند المسلمين.. لكنه يرجع فى تاريخه الى عهد قديم سبق الإسلام والمسيحية واليهودية جميعا. وهو فى سبقه الأديان الثلاثة، يشبه الكعبة وان لم يكن له قدمها. والمسجد الأقصى يقوم على الصخرة التى كان يقوم عليها هيكل سليمان، وقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ان الله أوحى إلى داود، أن ابن لى بيتا أذكر فيه» فخط داود خطة بيت المقدس، فإذا تربيعها بدار رجل من بنى إسرائيل.. فسأله داود أن يبيعه اياها فأبى، فحدث داود نفسه أن يأخذها، فأوحى اليه الله أن يا داود أمرتك أن تبنى لى بيتا أذكر فيه، فأردت أن تدخل فى بيتى الغصب، وليس من شأنى الغصب. ان عقوبتك ألا تبنيه قال : يارب فمن؟.. ولدى قال ولدك.. وبناه سليمان ابن داود .

وتذهب بعض الروايات الى أن داود أقام بيتا صغيرا للعبادة، وأن سليمان هو الذى أقام الهيكل من بعده، وفى

رواية أخرى، أن البيت الذى أقيم على الصخرة المقدسة يرجع فى تاريخه الى ما قبل داود.. ولعله نسب الى الملائكة أو الى آدم كما نسب بناء الكعبة.

وبنى سليمان الهيكل على الصخرة المقدسة التى اختارها أبوه بوحى من ربه.. بناه فخما على طراز هياكل المصريين القدماء، فجعل له بابا رفيع العمد، وجعل له من وراء الباب بهوا فسيحا تقوم فيه العمد ثم جعل من وراء البهو قدسا للأقداس. وكما اتخذ طراز المصريين فى نظام البناء، اتخذ طرازهم فى جلاله وفخامته وعظمته. ولم يكن عجبا أن يبنى سليمان على الطراز المصرى الفرعونى، وكثيرا ما كانت مصر تغير على فلسطين وتخضعها لحكمها.. هذا الى أن البلاد المشاطئة للجانب الشرقى من البحر الأبيض المتوسط ـ مصر وفلسطين وفينيقيا واليونان ـ كانت دائمة الاتصال فى شئونها التجارية والفنية والثقافية .

احتراق الهيكل

كانت مصر حاكمة فلسطين قبل داود وسليمان وقد استقلت فلسطين عن مصر فى عهدهما، ثم عادت بعد وفاة سليمان الى مصر فى عهد الفرعون شيشاك، وحكمت فارس فلسطين بعد ذلك، فاحترق بيت المقدس واحترق الهيكل أثناء

حكمها، ثم أقام حاكم الاقليم بيت المقدس بأمر كسرى، ثم أقام الهيكل من غير أن يجعله فى مثل جلاله وعظمته يوم أتم سليمان تشييده .

كان حريق الهيكل فى سنة ٥٨٦ قبل الميلاد.. وقد أعيد بناؤه فى سنة ٥٢٠ قبل الميلاد، وأهديت إليه حاملات الشمع والمباخر المصنوعة من الذهب ، فعوضته بعض الشىء عما أصابه بعد بانيه الأول .

استقر اليهود بفلسطين بعد موسى، واتخذوا من هيكل سليمان معبدهم والمكان المقدس لشعائرهم .. واذا كانت فلسطين معرضة لغزو مصر وغزو فارس وغزو الروم، فقد حصنوه أكمل تحصين، وقووا عمارته وأكثروا من النفائس المهداة له. بذلك أصبح قلعة ومعبدا فى آن واحد . وقد حاصر الإمبراطور الرومانى بومبى بيت المقدس فى سنة ٦٣ قبل الميلاد فصمدت له، وكان حصن الهيكل المقدس من الحصون المنيعة التى قاومته.. صحيح أنه انتهى الى اخضاعها، لكن مقاومتها كانت ذات خطر حين الحصار من ناحية، ومهدت للثورة بالحكم الرومانى بعد ذلك بقليل من ناحية أخرى .

هيرودس الفلسطيني

على الرغم من هذه الثورة تمكن هيردوس الفلسطيني من أن يكون عامل روما على فلسطين، وأن يخضعها لحكم الإمبراطورية وقد استطاع بمهارته أن يحمل اليهود من رعاياه على اقراره على هدم الهيكل وإعادة بنائه . وقد هدمه وأعاد بناءه على صورة من الفخامة ضاعفت مساحة بعض الأجزاء فيه، ورفعت البعض الى ضعف ارتفاعها السابق وخلعت عليه بهاء أعاد له بهاءه حين بناه سليمان ان لم يزد عليه كما جعل به من النفائس أكثر مما كان فيه من قبل.

ظل هيكل سليمان المكان المقدس لليهود بفلسطين إلى أن استقرت المسيحية بها وحاربت اليهودية فيها. وقد جنى ذلك على الهيكل حتى كاد يصبح أطلالا فلما غزا العرب سوريا ومصر أحالوا الهيكل مسجدا هو المسجد الأقصى.. على ان اسم المسجد الأقصى قد أطلق عليه في الإسلام قبل غزو العرب بلاد الشام وقبل دخولهم فلسطين أطلق عليه في القرآن لمناسبة حديث الاسراء في قوله تعالى. «سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله» والمسجد الحرام هو مكة.. والمسجد الأقصى هو الهيكل ببيت المقدس.. وورود هذه التسمية في القرآن، تشهد بأن لفظ

المسجد كان مستعملا عند العرب لكل مكان للسجود والعبادة، وأنه لم يكن مقصورا ـ كما هو اليوم ـ على أماكن العبادة الإسلامية .

فالمسجد الحرام لم يكن يزيد ـ يوم نزلت هذه الآية ـ على الكعبة ومطافها، وهذا المسجد لم يكن يؤمئذ إسلاميا كما هو اليوم، بل كان للعرب جميعا على اختلاف نحلهم، وكانت أصنام العرب قائمة فيها، والمسجد الأقصى لم يكن قد اتصل بالإسلام والمسلمين في شيء الا في حديث الاسراء .

الإسراء والمسجد الأقصى

والاسراء هو الذى جعل المسلمين يتطلعون بعد أن فتحوا الشام ووضعوا أيديهم على بيت المقدس، الى المسجد الأقصى لجعله من أماكنهم المقدسة.. فأكثر الروايات التى وردت عن الاسراء تذهب الى أن رسول الله ﷺ قيد البراق بالصخرة المقدسة حين بلغ به الاسراء الى بيت المقدس، وانه صلى على أطلال هيكل سليمان إماما لابراهيم وموسى وعيسى وانه عرج الى السماء بعد ذلك متخذا من صخرة يعقوب مرتكزا للمعراج فلما بلغ سدرة المنتهى وأتم الله آيته، عاد رسوله الى بيت المقدس فامتطى البراق كرة أخرى الى مكة .

لا جرم، وذلك شأن المسجد الأقصى، أن يتطلع المسلمون

اليه على أنه من أماكنهم المقدسة، فاذا أضفت إلى ذلك أن المسجد الأقصى كان قبلة المسلمين يتوجهون اليه في صلواتهم منذ بعث رسول الله ﷺ ، وطيلة مقامه بمكة، وفى السنتين الأولى والثانية بعد هجرته الى المدينة الى أن حولت قبلة المسلمين الى المسجد الحرام.. اذا أضفت هذا الاعتبار الى الاسراء لم يكن عجبا أن ترى المسلمين يتخذونه مكانا مقدسا لهم، ويقيمون فيه حرما كالحرم المكي وكالحرم المدنى، وأن يكون له عندهم من القداسة ما لايزال يقتضيهم عناية به كعنايتهم بالبيت الحرام والمسجد النبوى من حيث العمارة والصيانة والرعاية.

الاهتمام بالمسجد

على أن المسلمين لم يعيروا المسجد الأقصى عنايتهم فى عهدهم الأول .. وما كان لهم أن يفعلوا، وهم لم يفتحوا بيت المقدس الا فى عهد عمر بن الخطاب، وما كان عمر ليفكر فى عمارة المسجد الأقصى، أو فى اقامة القبة على الصخرة المقدسة فى أعقاب الفتح، بينما المسلمون فى شغل بمحاربة الروم وفارس.. بل لقد كان تفكير عمر متجها حين فتح بيت المقدس الى اقناع أهلها حتى يستريحوا إلى حكم المسلمين، ويرونه خيرا من حكم الروم .

لما تغلب عمرو بن العاص على القائد الرومانى أرطبون فى فلسطين، وكان على أبوب بيت المقدس، أعلن بطركها صفرنيوس انه يريد التسليم والصلح شريطة أن يجيء الخليفة عمر بنفسه الي المدينة المقدسة، وسار عمر من المدينة الى ميدان الحرب لعقد هذا الصلح وابرام شروطه وفتحت بيت المقدس أبوابها أمامه بعد توقيع الصلح . وصحب صفرنيوس عمر يوما خلال المدينة يريه آثارها ومواضع الحج فيها.. واذ أدرك عمر موعد الصلاة، وهو بكنيسة القيامة، طلب البطرك اليه أن يصلى بها، فهى من مساجد الله.. لكن عمر اعتذر بأنه ان يفعل اتبعه المسلمون، واعتبروا عمله سنة مستحبة.. فأدي ذلك إلي اخراج المسيحيين من كنيستهم ثم صلى فى مكان قريب من الصخرة المقدسة على أطلال الهيكل وفى هذا المكان أقيم من بعد مسجد عمر، وهو الذى أطلق عليه اسم المسجد الأقصى.. أقامه عمر من ساذج البناء، كمسجد النبى بالمدينة يوم أقيم .

وظلت الدولة الإسلامية من بعد، فى شغل بحروبها طيلة عهد عمر وعثمان، ثم شغلت بالخلاف ما بين عليّ ومعاوية.. لذلك لم يفكر أحد فى عمارة مسجد عمر ببيت المقدس عمارة تضارع بيوت العبادة فى بلاد الشام، وظل الحال على ذلك الى أن تولى عبد الملك بن مروان الأموى الحكم .

كانت الثورة على الأمويين لاتزال مشبوبة فى الحجاز، وعلى رأسها عبد الله بن الزبير بمكة.. وكان هؤلاء الثائرون موضع عطف الكثيرين من العرب والمسلمين لأنهم كانوا ينتمون الى أهل بيت رسول الله.. ثم انهم كانوا سدنة البيت الحرام بمكة والقائمين على شئون مسجد النبى عليه السلام بالمدينة، فكان حج المسلمين واختلاطهم بهم يزيدهم عطفا عليهم .

قبة الصخرة

أشرنا إلى أن عبد الملك بن مروان، كان قد شغف بالعمارة البيزنطية لمقامه بدمشق بين كنائس النصارى وآثارهم وانه لذلك كان أول من قام بعمارة البيت الحرام بمكة على نحو زواج بين البساطة وما يطمئن له فن العمارة .. واعادته بناء البيت الحرام لم يكن أول عمل له فى العمارة.. فقد قام قبل ذلك بتشييد مساجد بالشام فيها جمال فنى يأخذ بالقلوب والأبصار على أن أروع آياته فى البناء وأشدها أخذا بالنظر كان فى عمارة قبة الصخرة وبناء المسجد الأقصى .. قد شاد القبة على نحو بز ما قام به من بعد فى عمارة البيت الحرام، بل لعله قد بز ما بناه من المساجد والعمائر .

وقد دهش الناس لفائق عنايته ببناء قبة الصخرة وترامت أنباء ذلك الى مختلف الأمصار الإسلامية وتساءل كثيرون

ما قصده من هذه المبالغة في عمارة القبة؟.. وزاد في تساؤلهم أن عبد الملك حظر الحج على المصريين وأهل الشام بحجة الثورة القائمة بالحجاز عند ذلك أذاع عبد الله بن الزبير في الناس أن عبد الملك قصد من بناء القبة والمسجد الأقصى الى صرف الناس عن حج البيت الحرام والمسجد الحرام الى حج المسجد الأقصى والصخرة المقدسة متأسيا في ذلك بأبرهة حين بنى بيت صنعاء ليصرف الناس عن بيت مكة ويتعذر القطع بصحة ما أذاعه ابن الزبير من هذه الدعاية وبخاصة لأن ابن الزبير مات بعد ذلك بقليل.. وعلى أثر موته استولى عبد الملك على مكة وقام بعمارة المسجد الحرام على نحو أرضى به ذوقه الفنى، كما أنسى المسلمين تلك الدعاية التى أذاعها ثائر الحجاز ضده.

وأرصد عبد الملك لبناء القبة مالا كثيرا، قيل إنه خراج مصر سبع سنين وجمع الصناع من الفينيقيين، واستعان بصنّاعة بيزنطية وبعد أن وضعوا تصميما لبناء القبة رضى عبد الملك عنه، تولى رجاله تنفيذ ذلك التصميم وأتموه على خير وجه. ومع ذلك بقى من المال الذى خصص لهذا الغرض مئة ألف دينار أنفقت فى عده الوليد بن عبد الملك لاتمام بناء المسجد الأقصى، ولتقوية أجزاء وهنت منه .

ولم تكن عناية عبد الملك بعمارة المسجد الأقصى دون عنايته بعمارة قبة الصخرة فقد جلب له عمد الرخام.. أقام عليها خمس عشرة قبة وسقفه بالخشب الجميل المتين، وجمل به أربعة منابر وأربعة وعشرين صهريجا، وجعل له أبوابا كثيرة وعلق فيه قناديل، بالغ الرواة فى عددها حتى بلغ بها بعضهم خمسة آلاف، ورتب له ثلاثمائة خادم.

ظل المسجد، وظلت القبة بعد ذلك أربعة قرون فى يد المسلمين محاطة من آي الاجلال والإعظام بما أحيط به البيت الحرام والمسجد الحرام حتى لم يكن يباح لغير مسلم أن يطأ أرضهما فلما كانت أواخر القرن الخامس الهجرى دخل الصليبيون الشام وتقدموا الى فلسطين ووضعوا يدهم على بيت المقدس فى سنة ٤٩٢ هجرية. وقد أقاموا ببيت المقدس قرابة قرن كامل حتى أجلاهم صلاح الدين الأيوبى عنه فى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة.. بذلك عادت الى المسجد والى القبة قدسيتهما الأولى، وعاد حراما على غير مسلم أن يدخلهما أو يطأ أرضهما.

على أن الحروب الصليبية ظلت متداولة بعد ذلك بين المسيحيين من أهل أوروبا والمسلمين القائمين حول البحر الأبيض المتوسط، وقد استولى الصليبيون أثناءها على القدس

غير مرة ثم أجلوا عنها.. واضطربت شئون المملكة الإسلامية بعد ذلك بسبب تعدد الدول واقتتال الملوك والأمراء الى أن آل الأمر الى آل عثمان ولم يغير ماحل بالمملكة الإسلامية من الاضطراب من حرمة بيت المقدس على المسلمين ومن حرمة المسجد والقبة بنوع خاص فلم يبح لغير مسلم أن يدخلهما أو يطأ أرضهما الا بعد حرب القرم في أواخر القرن التاسع عشر الميلادى ولم يبح ذلك الا بمقدار وفى حدود ضيقة .

ولايزال المسجد الأقصى ولاتزال القبة، ولهما من القداسة عند المسلمين ما كان لهما من قبل على رغم تبدل الأحوال السياسية وقدسيتهما هى التي تجعل الأمم الإسلامية وتجعل ملوك المسلمين يحرصون على عمارتهما الحين بعد الحين وكيف لا يذكر المسلمون المسجد الأقصى وهم يذكرون قوله تعالى: «سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير».. انهم سيذكرونه ويذكرون ماحوله مما بارك الله، وسيبقى هذا المسجد لذلك حرما مقدسا مابقى الإسلام وما بقى المسلمون .

الأماكن المسيحية المقدسة

- كنيسة المهد ببيت لحم
- كنيســـة القيـــامة

كنيســـة المهد

تناولت الفصول السابقة عن الأماكن المقدسة بالشرق الأوسط إلمامات عن بيت الله الحرام وعن المسجد الحرام بمكة، وعن المسجد النبوى بالمدينة، وعن المسجد الأقصى ببيت المقدس.. وهذه الأماكن المقدسة إسلامية كلها فلننتقل بالحديث الآن إلى الأماكن المسيحية المقدسة بفلسطين. وسنكتفى بأن نتناول مكانين اثنين منها: كنيسة المهد ببيت لحم وكنيسة القيامة ببيت المقدس.

كان في وسعنا أن نتحدث عن أماكن أخرى بفلسطين لها قدسيتها عند المسيحيين.. لكننا قصرنا حديثنا حتى الآن على الأماكن المقدسة التى لقيت على تعاقب الأجيال من العناية بعمارتها ما رأيت. ولم يلق أثر مسيحى من هذه العناية بفلسطين ما لقيت كنيسة المهد، وكنيسة القيامة.

ولا عجب أن تلقيا كل هذه العناية، واحداهما تقوم ذكرا لمولد عيسى، والأخرى تقوم ذكرا لدفنه قبل الصعود..

ومولد عيسى وقصة صلبه ودفنه وصعوده معجزتان على التاريخ، من أورع ما قص التاريخ.

مولد عيسى

فمولد عيسى معجزة فى الإسلام، كما أنه معجزة فى المسيحية.. فقد نفخ الله من روحه فى مريم، فحملت فولدت عيسى.. فكان ذلك آية من آيات الله. وفى ذلك يقول تعالى: «واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا. فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا. قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا. قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا. قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا. قال كذلك قال ربك هو علىّ هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا».

والرواية المسيحية، تجرى بأن مريم وضعت عيسى.. لما أحست قر الشتاء عقب وضعه، حملته إلى مزود قريب منها كانت الأبقار تأكل فيه، أرادت بذلك أن يبعث إليه تنفس الأبقار من الدفء ما يقيه قارس البرد فى ذلك الفصل القرير. أما رواية القرآن لمولد عيسى فهى: «فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا. فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا. وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا. فكلى واشربى وقرى

عينا»، ترى هل حملت مريم طفها بعد ذلك إلى مزود الأبقار لينال ما ابتغت له من الدفء؟ ذلك ما لا محل الآن للكلام فيه.

هيرودس يقتل الأطفال

ذكروا أن هيرودس، حاكم فلسطين من قبل روما فى ذلك العهد، رأى فى منامه رؤيا أفزعته.. فطلب إلى أهل العلم بالأحلام أن يفسروا له ما رأى، فذكروا له أن من بين الأطفال الذين ولدوا فى الأعوام الخمسة الأخيرة طفلا، سيكون له شأن يقض مضجع الامبراطورية ويسوء أثره فيها. ورأى هيرودس أن الخير فى قتل الأطفال الذين ولدوا فى هذه الفترة جميعا. وقتلهم ودفنهم فى مغارة ببيت لحم. وكان عيسى قد ولد فى هذه الفتـرة، ففرت به مريم إلى غار أقامت به حتى فرغ هيرودس من ارتكاب جريمته وقتل من قتل من الأطفال،، ثم انها تحملت بابنها ممتطية حمارا وسارت به ومعها يوسف النجار حتى بلغت مصر . وهناك أقامت ثلاث سنوات فى رواية، واثنتى عشرة سنة فى رواية أخرى، ثم عادوا بعد ذلك إلى مسقط رأسه، ومقر آبائها وأهلها بفلسطين.

أين ولد عيسى ؟

أين ولد عيسى؟ .. المقرر أنه ولد ببيت لحم ، على مقربة من بيت المقدس. وسترى خلال هذا الحديث تحديد المكان الذى ولد فيه.. ولكن قوما يذهبون إلى أنه ولد بالناصرة، ويستدلون على

ذلك بنسبته إليها. أليس هو عيسى الناصرى؟ .. لكن أصحاب الرأى المقرر لا يترددون فى القول بأن تسميته عيسى الناصري لا ترجع إلى مولده بالناصرة، وانما ترجع إلى مقامه بها، وقيامه بتعاليمه فيها وإلى ما نسب إليه من المعجزات فى بحيرة طبرية التى تقع الناصرة عليها.

ولسنا نأخذ بنصيب فى هذا الجدال الذى ثار حول مولد عيسى ، كما ثار حول مولد الأنبياء والعظماء فى مختلف العصور .. وغاية ما نذكره، أن المدة التى انقضت بين مولد المسيح عليه السلام وبين اقامة الهيكل الذى شاده الامبراطور قسطنطين ، تذكارا لهذا المولد.. هذه المدة تزيد عن ثلاثمائة سنة .

هيكل قسطنطين

والهيكل الذى شاده قسطنطين ، هو النواة التى شيدت حولها كنيسة المهد على ما نراها اليوم. وكنيسة المهد هى الأثر الذى يذكر مولد السيد المسيح كما تقدم . وعلى مقربة منها تقوم مغارة اطلق عليها اسم مغارة الحليب .. يذكرون انها هى التى أوت إليها مريم ، وأقامت بها مع ابنها .. بينما كان هيرودس يقتل الأطفال الذين ولدوا فى الفترة التى ولد فيها المسيح . وهذه المغارة جديرة بأن نقف بالقارىء وقفة قصيرة عندها ، بعد أن نتم حديثنا عن كنيسة المهد.

قدمنا أن هذه الكنيسة ، أنشئت حول الهيكل الذى أقامه الامبراطور قسطنطين ، بعد ثلاثة قرون من مولد السيد المسيح.. ذكرا لهذا المولد . ولم يكن الموضع الذى أقيمت به خلاء يوم أقام قسطنطين الهيكل ، بل كان به معبد لادونيس الذى أقيم فى عهد الامبراطور هادريان، فأمر به قسطنطين فهدم، وقام الهيكل المسيحى مكانه. وسنرى حين الكلام عن كنيسة القيامة التى أقامها قسطنطين كذلك، انها قامت على أطلال معبد أقامه هادريان ببيت المقدس لعبادة الزهرة.. أمصادفة هذه؟.. أم هى دليل على ان هادريان كان يتعقب آثار المسيحية ويقيم فيها المعابد الوثنية، ليعفى على الدين الجديد قبل أن يستفحل أمره؟!

كان الهيكل الذى أقامه قسطنطين جميلا، ولكنه لم يكن فسيح الجنبات.. فلما آل أمر الامبراطورية إلى جوستنيان، أقام مكان الهيكل معبدا أفسح رقعة وأكثر بهاء. ولما تشعبت المسيحية إلى شعبها المختلفة، بدأت كل شعبة تبنى فى هذا المكان المقدس، وحول الكنيسة الأولى، ما طاب لها البناء، ومبانى طوائف الروم واللاتين والسريان، ماتزال قائمة إلى اليوم، ومايزال لاختلاف هذه الطوائف أثره فى شعائر كنيسة المهد.

مغارات الكنيسة

وكنيسة المهد اليوم، فسيحة الجنبات مترامية الأطراف .. وأفنيتها تقوم فوق مغارات كثيرة.. يروى لك الموكلون بها شيئا كثيرا من القصص المنسوب لها . فواحدة من هذه المغارات يطلق عليها اسم مغارة الأطفال، وتذكر قصتها أنها المغارة التى دفن هيرودس فيها من أمر بقتلهم من الأطفال تفسيرا للحلم الذى أسلفنا أنه رآه . ومغارة أخرى بها صورة زيتية لقديس قيل إنه القديس جيروم الذى قضى بهذه المغارة ثلاثا وعشرين سنة يترجم الإنجيل . وبين هاتين المغارتين وحولهما ، مغارات أخرى زينت كل واحدة منها بصورة زيتية تمثل المشهد الذى تخلد المغارة ذكره .

تقع مغارة المهد على مقربة من مغارة الأطفال .. ومغارة المهد قبو ضيق ، يهبط إليه الإنسان على درج نقر فى الصخر وهذا الدرج يصل بين المغارة وبين مذبح كنيسة المهد وهيكلها وقد نقرت فى الصخر ، إلى جانب هذا القبو ، فجوة ترتفع إلى قامة الإنسان ، وضعت فيها صورة العذراء .. وثبتت فى مكان منها نجمة من الفضة تحدد المكان الذى قررت الطوائف المسيحية أنه مكان مولد المسيح ، وهو لذلك مكان مبارك عند الطوائف كلها . وكثيرا ما كانت بركته سبب منازعات دامية بين الطوائف المختلفة ، ابتغاء الاستئثار بهذه البركة.

المـــزود

يقابل نجمة الميلاد ، حوض من الحجر موضـــوع فى الأرض يذكرون انه المزود الذى كانت الأبقار تأكل فيه ، حين وضعت مريم طفلها ثم نقلته إلى المزود اتقاء البرد القارس . ولا أظن أحدا يذهب إلى أن هذا الحوض من الحجر ، هو المزود الذى وضع المسيح فيه بالفعل . فقد رأيت أن أول صورة لكنيسة المهد ، لم توجد إلا بعد ثلاثة قرون من وفاة الســـيد المسيح ، وأن معبدا أقامه أدونيس كان موجودا فى هذا المكان ، قبل بناء الكنيسة المسيحية لأول مرة.

وهذا الحوض من الحجر الذى يمثل المزود ، ينحدر دون نجمة الميلاد قرابة مترين ، ويبعد عنها نحو ثلاثة أمتار . أفيكون هذا لأن مريم كانت فوق أكمة ساعة الوضع ، وأن الأبقـار ومزودهـا كانت فى ســفح هذه الأكمة ، أم أن مريم كانت فى مغارة هى محرابها الذى أشار إليه القرآن ، وان الأبقار كانت فى بطن من الجبل دون المغارة ؟.. هنا يجب أن أقول الله أعلم!

فجوتان عجيبتان

ليست كثرة المغارات فى هذا الموضع مثارا لعجب .. فهو جبل منبسط السطح ، يرتفع ثمانمائة متر فوق سطح البحر ، ويقوم بيت لحم على سطحه .. ولعل مغاراته الكثيرة تفسر لنا

أمرا يحار الإنسان أول الأمر فى تفسيره . فأنت إذ تدخل من باب الكنيسة إلى البهو الذى يفصل بين الباب ومذبح الكنيسة وهيكلها .. ترى فى أرض البهو بابين يستوقفان نظرك . فإذا فتح أى من هذين البابين ، ألفيته يغطى فجوة أشبه شيء بالمغارة أو الجب فإذا أضيئت هذه الفجوات ، رأيت أرضها من الفسيفساء المنقوشة نقشا بديعا يمثل الفاكهة والنبات والطير وما إليها .

وقد كشف هاتين الفجوتين – منذ أمد غير بعيد – مهندس فرنسى كان يقوم بترميم بعض الأجزاء فى أعلى الكنيسة . ويظهر انه كان قد وقع فى قراءاته على ما هداه إلى أن هذه الكنيسة تقوم فوق آثار كنيسة سبقتها ، كما هداه إلى موضع هذه الفسيفساء . وقد حفر فى هذين المكانين اللذين تقوم الأبواب فوقهما فصدق ظنه . ولم يحفر فى غيرهما لأن قراءاته دلته على أن ليس في غيرهما ما يهدى الحفر إليه.

قلت ان الفجوتين تقعان فى البهو، بين باب الكنيسة ومذبحها وهيكلها . والمذبح والمعبد لكنيسة المهد آية فى الابداع والروعة الفنية ، فضلا عن قيمتهما لما يحتويان عليه من تماثيل وآنية من الذهب أهداها المؤمنون الذين بسط الله لهم فى الرزق طلبا للمثوبة ، وابتغاء المزيد من سعة الرزق.

باب الكنيسة

أما باب هذه الكنيسة ، فأمره عجب .. لقد ألف الناس فى أبواب الكنائس بهاء وعظمة وجلالا ، وألفوا فيها دقة فى الفن توازى سائر أجزاء الكنيسة أو تزيد عليها . وكنيسة المهد من أفخم الكنائس وأفسحها رقعة وأكثرها مهابة.. أما بابها فأعجوبة من الأعاجيب.. فهذا الباب أدنى لأن يكون فجوة ضيقة لا يمكن أن تكون بابا لمعبد من المعابد بالغا ما بلغ صغره، وأنت حين ترى هذا الباب، لا يذهب بك الظن إلى أنه أكثر من مدخل لصومعة راهب من الرهبان نذر الرواقية والتقشف . وكيف يزيد على ذلك، وهو دون قامة الإنسان ارتفاعا، ولا يمكن لأكثر من رجل واحد أن يدخل منه حانيا رأسه؟!

وإنما دعا لبناء الباب بهذا الضيق، ما ذكرنا من أن طوائف الروم واللاتين والسريان، قد اشتركت على الأجيال فى بناء هذه الكنيسة والمنازل المحيطة بها، وان بين هذه الطوائف من الخلاف ما تخشى مغبته إذا ثار.. فلكل طائفة من هذه الطوائف حقوق فى الكنيسة، إذا اعتدت طائفة أخرى عليها كانت الثورة الدامية. لذلك تحرص الحكومة على ألا تدع لأسباب الخلاف أن تثور، وعلى ألا يدخل الكنيسة إلا من تريده أن يدخل .

صورتان من الخلاف الطائفى

ولتتبين لك صورة من هذا الخلاف، أعود بك إلى ذكر نجمة الميلاد.. فهذه النجمة كثيرا ما كانت تنزع من مكانها حين كانت تتقرب طائفة بنجمة أخرى مصنوعة من الذهب أو مرصعة بالماس . وعند ذلك كانت الطوائف تختلف على ملكية النجمة .. لذا وضعت السلطات هذه النجمة من الفضة حتى لا تدعي طائفة ملكيتها.

وصورة أخرى لخلاف الطوائف ، بساط ممدود إلى جانب أول عماد من عمد الكنيسة ، قائم إلى يسارك بعد دخولك من بابها الضيق .. هذا البساط لا يستطيع أحد تقديمه أو تأخيره عن المكان الذى هو به ، أو تلتحم الطوائف التحاما داميا .. فلكل طائفة موضع من البساط أو حوله ، ان تقدمت أو تأخرت عنه مست حقا لطائفة أخرى . وتنظيف البساط وكنس ما حوله مقررة فيه حقوق الطوائف ، كالبساط نفسه .. فلا يجوز لطائفة أن تكنس التراب من موضع ليس لها ، أو تتهم بأنها تسعى إلى حق تغصبه غيرها . وتحافظ الحكومات على حقوق الطوائف محافظة دقيقة ، مخافة ما يجره التفريط فيها أو الاعتداء عليها من نتائج وخيمة العاقبة.

مغارة الحليب

تقع مغارة الحليب قريبة من كنيسة المهد .. وهى أكثر سعة من المغارات القائمة تحت الكنيسة المذكورة. وتختلف المغارة فى تنسيقها الحالى عن سائر مغارات الكنيسة ، وإن تشابهت جميعا فى طبيعتها .. ففى أول مغارة الحليب – بعد المدخل – تمثال صغير للعذراء والمسيح ممتطيين حمارا يسير بهما إلى مصر ، ويسير إلى جانبه رجل لعله يوسف النجار وينحدر الإنسان إلى كنيسة صغيرة ، يخال انها منقورة في الصخر ، وان هبط إليها ضوء النهار من أعلاها . وإلى جانب الكنيسة الأيمن صورة كبيرة للعذراء .. وهذه الآثار كلها تضيئها الكهرباء مختلف ألوانها ، فتلقى عليها بهاء لا مثيل له فى مغارات الكنيسة الكبرى.

ليس لمغارة الحليب من القدسية ما لكنيسة المهد بطبيعة الحال .. وليس فى كنيسة المهد مكان أكثر قدسية من مكان المهد نفسه . وليس يزيد على كنيسة المهد فى القدسية غير كنيسة القيامة ببيت المقدس.

كنيسة القيامة

أشرنا إلى معجزة الله فى مولد عيسى وكنيسة المهد تقوم ببيت لحم ، ذكرا لهذا المولد ولهذه المعجزة .. أما كنيسة القيامة ، فإنها تقوم ذكرا للرواية المسيحية عن صلب المسيح وصعوده إلى السماء ، وقصة الصلب والصعود معجزة - هى الأخرى - جديرة بالذكر ، وبأن يقام لها هذا الأثر الفخم الذى يحج إليه المسيحيون من أقطار الأرض جميعها ، والذى كان مثارا للحروب الصليبية التى امتدت على القرون.

والإسلام والمسيحية يختلفان فى صلب المسيح ، وإن أمكن التوفيق بينهما فى قصة الصعود . وليس يرجع الخلاف على قصة الصلب إلى خلاف على مقدماتها وما سبقها ، ولا إلى خلاف على واقعتها .. بل يرجع إلى وقوع الصلب على شخص المسيح نفسه . أما الصعود ، فقد ورد ذكره فى القرآن فى غير موضع .. إذ يقول تعالى يخاطب المسيح : « إنى متوفيك ورافعك الىّ » ويقول: « بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما ».

قصة الصلب

لا يقع الخلاف فى قصة الصلب على مقدماتها .. فالمسيح كلمة الله ورسوله ، عند المسلمين وعند المسيحيين .. أرسله الله إلى قومه بفلسطين حين حكمتهم روما حكم بطش واستبداد ، وحين فرقت كلمتهم ، وجعلت للأغنياء وذوى المكانة سلطانا على الفقراء ، وعلى الشعب يسومونه سوء العذاب . ولم يكن شعب فلسطين يومئذ ، قد استسلم إلى المذلة ورضى حكم الرومان .. بل كانت أسباب الثورة تضطرب بها أحشاء البلاد كلها ، وكان الناس هناك يؤمنون بأنهم سيتحررون من نير روما ، بل سيحكمون العالم بدورهم عما قريب.

فلما قام المسيح بينهم وجعل يذيع تعاليمه فيهم ، بدأت السلطات تخاف أثره ، وبدأ الأغنياء وذوو المكانة ورجال الدين من اليهود يناوئونه .. على أن سخطهم عليه وثورتهم به ، لم يبلغا ذروتهما حتى جاء بيت المقدس . أما حين كان يلقى تعاليمه على أتباعه متنقلا من الناصرة إلى الجليل إلى غيرهما من البلاد، فيتناقلها الناس ويذيعون بينهم معجزاته.. فقد كان البرم به محصورا فى دائرة ضيقة، فلما دخل بيت المقدس بعد أن ذاعت فى الناس معجزاته وتعاليمه ، خشى اليهود مغبة ما يصيبهم إذا استفحل أمره ، وزينوا للحاكم من قبل روما ما جعله يعتقد أن المسيح يضلل الناس بما يزعم من إحياء الموتى

وابراء المرضى واعادة الصواب إلى ذى الجنة .. وجيء بعيسى، وحوكم فحكم عليه بالموت . وكانت عقوبة الإعدام تنفذ بالصلب فى مصر وروما وفلسطين، وغيرها من البلاد المجاورة لها .. وصلب عيسى ، ودقت المسامير إلى يديه وساقيه، فسال دمه.. فافتدى به خطايا الخلق. فلما مات ورفع من فوق الصليب، أودع قبرا هو الذى تقوم كنيسة القيامة اليوم ذكرا له. وبعد ثلاثة أيام من دفنه ، عاد إلى أصحابه حيا، فأمرهم أن يتفرقوا فى الأرض فيذيعوا فى الناس تعاليمه.وتفرق الحواريون، واتبعهم من اتبعهم، وظلوا يسامون فى روما وفى غير روما ألوان العذاب، حتى لان قلب العاهل الرومانى قسطنطين إلى المسيحية فاعتنقها ، وكان أول من أمر ببناء كنيسة المهد وكنيسة القيامة.

هذه إلمامة سريعة عن صلب المسيح ، كما يصور فى الأناجيل وفى التواريخ المسيحية . أما الروايات الإسلامية ، فتنفى أنه صلب وان لم تنف ما سبق الصلب . وهى تنفى الصلب بقوله تعالى. « وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم . وان الذين اختلفوا فيه لفى شك منه. ما لهم به من علم إلا اتباع الظن ، وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما ».

ويقول المؤرخون المسلمون إن اليهود ضاقوا ذرعا بالمسيح، فشكوه إلى الحاكم الرومانى، فأمر بالقبض عليه.. فلم يعثر به

الباحثون عنه ، وإنما عثروا برجل يشبهه .. فساقوه إلى المحاكمة مربوطا فى حبل . وجعل اليهود يقولون له: « ان كنت تحيى الموتى ، أفلا تخلص نفسـك من هـذا الحبـل ! » ثم يوجهون إليه ألوان الأذى والاساءة .. فما صلب ومات استوهبه يوسف النجار من الحاكم الروماني فيلاخوس ودفنه فى قبر كان يوسف أعده لنفسه.

ليس المقام هنا مقام تفصيل لصعود عيسى ، أكان بجسده أم بروحه ، وما وقع على ذلك من خلاف ، فنحن انما سقنا ما تقدم تمهيدا للحديث عن كنيسة القيامة التى أقيمت ذكرا لدفن عيسى فى القبر الذى رفع منه إلى الله بعد أن توفاه.

هيكل لادونيس

سبقنا إلى القول حين حديثنا عن كنيسة بيت لحم، إن قسطنطين بنى المعبد الأول لذكر الميلاد ببيت لحم بعد وفاة عيسى بثلاثمائة سنة ، وانه بنى هذا المعبد فى المكان الذى كان يقوم فيه هيكل لادونيس الذى بناه هادريان.. ومثل ما حدث ببيت لحم لكنيسة المهد، حدث ببيت المقدس لكنيسة القيامة. فقد بنى هادريان عدة مساجد وثنية أثناء حكمه، ومن بين هذه المعابد معبد لافروديت أو الزهرة ببيت المقدس. وكان بناء هذا المعبد الوثنى فى سنة ١٣٥ ميلادية.. فلما تولى قسطنطين امبراطورية روما، واعتنق المسيحية بعد ست سنوات

من امبراطوريته، شن حروبا عدة حالفه النصر فيها، وكان يعتقد أن الصليب سبب انتصاره لذلك عول أن يبحث عن مكان صلب المسيح وعن مكان مولده. واهتدى الباحثون إلى أن مكان المولد كان حيث يقوم هيكل لادونيس وان مكان الصلب كان حيث يقوم هيكل افروديت. أترانا نستنتج من هذا ان هادريان عرف مكان مولد المسيح، ومكان صلبه ودفنه، فأقام فيهما هذين الهيكلين ليعفى على آثار المسيحية الناشئة، أم ان الأمر يرجع إلى محض المصادفة؟ .. يقول الباحثون انه محال القطع فى هذا الأمر برأى يستند إلى سند علمى.

مكان الصلب والدفن

قرر الامبراطور قسطنطين أن يقيم كنيسة حيث صلب المسيح، ومن حيث صعد إلى السماء.. فعهد بالبحث عن مكان الصلب والدفن والصعود إلى القس مكاريوس. وقرر هذا القس أن المكان الذى كلف بالبحث عنه، يوجد تحت الهيكل الذى أقامه هادريان للزهرة. وأمر الامبراطور فهدم الهيكل ، فوجد قبر منقور فى الصخر .. وعلى مقربة من هذا القبر إلى ناحية الشرق، وجدت صلبان ثلاثة لوحظ أن أحدها يشفى المرضى فلم يبق شك فى أنه هو الذى صلب عليه المسيح. وأن القبر المنحوت فى الصخر هو الذى دفن فيه بعد صلبه . وأبلغ هذا الاكتشاف إلى الامبراطور قسطنطين ، فأمر

مكاريوس أن يقيم عمائر فخمة فى هذا المكان المقدس.

نقف هنيهة قبل الكلام عن عمارة كنيسة القيامة من ذلك العهد، فنذكر أن كثيرين أبدوا الريبة فى صحة هذا الاكتشاف الذى أعلنه مكاريوس إلى الامبراطور ، وأن كتبا وبحوثا نشرت للتدليل على هذا الرأى . وليس فى ابداء هذا الرأى، ولا فى نشر تلك البحوث ، عجب .. وقد نشر مثلها فى أمر كثير من الأماكن المقدسة فى أديان مختلفة، ونشر مثلها فى أمر كثيرين من العظماء، ومن يذكر التاريخ أنهم وجهوا العالم فى عصرهم وجهة جديدة. فإذا ذكرنا أن مكاريوس بدأ بحثه عن مكان الصلب ومكان الصعود بعد وفاة المسيح بثلاثة قرون ، وان الحرص على تحديد هذين المكانين كالحرص على تحديد مكان مولده عليه السلام، كان أقوى فى نفسه من الحرص على الأسانيد العلمية فى البحث .. التمسنا له ولأمثاله من العذر حسن نيتهم من ناحية ، وشدة توقهم لقيام معبد يذكر الناس بهذه الأحداث الجليلة فى حياة العالم الروحية من الناحية الأخرى.

أبلغ مكاريوس اكتشافه إلى الامبراطور قسطنطين، فأمره الامبراطور أن يقيم عمائر فخمة ذكرا لصلب المسيح وصعوده. وشيدت يومئذ كنيستان .. احداهما فوق القبر ، والأخرى حيث وجدت الصلبان الثلاثة .. وكانت هذه الثانية أكبر وأفخم . وبين

الكنيستين قام مرتفع قيل انه مرتفع الجلجثة .. وسويت الأرض المحيطة بالكنيستين وأحيطت بالأبواب والعمد.

وكانت كنيسة القبر ، كما بنيت في ذلك العهد ، مستديرة قامت فوقها قبة جميلة ، أما كنيسة الفداء أو كنيسة الصليب ، فكانت مستطيلة شيدت فوقها قبة هي الأخرى ، وأقيم الصليب الذي قيل إن المسيح افتدى عليه خطايا الخلق في المرتفع القائم بين الكنيستين.

تم بناء الكنيستين سنة ٣٣٦ للميلاد، وظلتا قائمتين إلى سنة ٦١٤ ، إذ أصابهما الفرس بتلف جسيم ، ونقلوا الصليب الأعظم إلى بلادهم ، وذلك حين دخلوا بيت المقدس في حكم كسرى .. على أن هذا الحكم لم يطل عهده ، فقد انتصر هرقل على الفرس في سنة ٦٢٥ ، فأصلح عامله على بيت المقدس ما تلف من الكنيستين استعدادا لدخول هرقل المدينة المقدسة ورده الصليب الأعظم إلى مكانه.

ودخل العرب فلسطين في عهد أبي بكر الصديق، ثم فتحوا بيت المقدس في عهد عمر بن الخطاب .. فلم يتعرضوا للمعابد المسيحية بأذى، وبقيت كنائس بيت المقدس في عزها وكرامتها.

أفكانت الكنيستان قائمتين حين فتح عمر بيت المقدس، أم انهما كانتا أدمجتا في كنيسة واحدة ؟.. ليس من اليسير القطع في الأمر برأي .. فمنذ القرن الثامن الميلادي ، لم يذكر

أحد ممن حجوا بيت المقدس كنيسة الصليب .. انما كانوا يذكرون جميعا كنيسة القيامة ، أترى هدمت كنيسة الصليب قبل الفتح العربى أو بعده بقليل، أم أن كنيسة القيامة أصبحت ذات مكانة خاصة أنست الحجيج من المسيحيين الكنيسة الأخرى؟.. لست أبدى فى الأمر رأيا.

وفى أوائل القرن الحادى عشر، أمر الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله، فهدمت كنيسة القيامة حتى لم يبق منها إلا أطلال .. لكن ما أصاب الكنيسة المسيحية المقدسة من هذا الشر لم يدم طويلا، فقد استولى الصليبيون على بيت المقدس فى أواخر ذلك القرن الحادى عشر، وأعادوا بناء الكنيسة على نحو من الفخامة ووسعوا رقعتها .. ثم جعل المسيحيون من بعدهم يضيفون إليها على الأجيال، حتى صارت إلى ما هى عليه اليوم من فسحة وفخامة وجلال.

أكثر المواضع قدسية فى كنيسـة القيامة، موضع القبر الذى دفن فيه السيد المسيح بين وفاته وصعوده.. وهو يقع إلى يسار الداخل إلى الكنيسة ، بعد خطوات من بابها. وقد بولغ فى تجميل عمارته ، وفى تزيينه وترصيعه ، مبالغة تدعونا لنذكر بساطة المسيح فى حياته .. ولنعجب كيف تؤدى هذه البساطة إلى كل تلك الزينة، وإلى هذا التأنق الفنى فى نحت القبر من أبدع الرخام وفى اضاءته على نحو لم يدر بخاطر

صاحب القبر، ولا بخاطر أحد من حوارييه.. ولكن، فيم العجب أو ليست كنيسة القديس بطرس بروما دون كنيسة القيامة جلالا وبهاء وروعة .. وفيم العجب والمسجد النبوى بالمدينة لا يتفق جمال عمارته فى شىء مع بساطته ، يوم شاده النبى من اللبن ، وجعل سقفه وعمده من جذوع النخل ؟ !

وكنيسة القيامة ، فيما وراء قبر السيد المسيح ، مضرب للمثل في الفخامة والمهابة والجلال ، وليست مبالغة المسيحيين في اكبارها وتعظيم عمارتها، مما يوجب أية دهشة . ولا يرجع ذلك إلى مكانتها المقدسة من نفوسهم فحسب .. بل يرجع كذلك إلى ما احتملوه خلال الحروب الصليبية من تضحيات جسام ، جعلتهم يودعون فيها ذكر هذه التضحيات التى بذلت فداء للعقيدة ، كما ضحى المسيح بنفسه - فى اعتقادهم - ليفتدى بدمه خطايا الناس جميعا .

تمتاز كنيســـة القيامـة على غيرهـا من الكنـائس بأنهـا لا تقتصر على الفناء والمذبح والهيكل ، بل لقد أقيم بجوارها بناء متصل بها يرتفع سطحه عن سطحها . ويذكر بعض القائمين بشئونها ، انه أقيم حيث المرتفع الذى صلب عليه السيد المسيح ، والذى كان يصلب عليه من حكم عليهم فى عهده. وهذه الرواية موضع ريبة فى نظر كثيرين من المسيحيين الذين يؤمون بيت المقدس ، ويحاولون تحقيق مواضع الأماكن

المقدسة فيها تحقيقا علميا .. فهؤلاء لا يذهبون مذهب من يرتاب في صحة مكان القبر .. ولكنهم يقطعون بأن هذا البناء المرتفع المتصل بالكنيسة ، لا يذكر بمكان الصلب فى كثير ولا فى قليل.

وتقع إلى جوار الكنيسة، كنيسة أخرى صغيرة حفظت بها بعض آثار تنسب إلى عهد المسيح والحواريين. وباب هذه الكنيسة يفتح إلى الفضاء الواقع أمام باب كنيسة القيامة. وليس شيء من الآثار المحفوظة بهذه الكنيسة الصغيرة ثابت النسب ثبوتا تاريخيا ذا قيمة. وما يرويه سدنة الكنيسة من ذلك، لا يعدو أن يكون من نوع القصص الذى يرويه سدنة كل معبد، يجذبون به قلوب المؤمنين ممن من الله عليهم بإيمان العجائز، أو بإيمان كإيمانهم.

هذان الأثران المسيحيان اللذان ذكرتهما - كنيسة القيامة وكنيسة المهد - هما اللذان يضارعان ما تحدثت عنه من الآثار الإسلامية بالحجاز وفلسطين في فن العمارة.. وكما أن بالحجاز أماكن إسلامية لها من القدسية ما يستهوى إليها قلوب المسلمين الذين يؤدون فريضة الحج ، فإن بفلسطين وحول بيت المقدس نفسها أماكن لها فى قلوب المسيحيين قدسية كبرى ..

وحسبى أن أشير من هذه الأماكن المتصلة ببيت المقدس إلى جبل الزيتون وطريق الآلام.. على اننى لا أريد الوقوف عند هذه الأماكن المسيحية أو تلك الأماكن الإسلامية، لأننى كما ذكرت من قبل انما وقفت عند الأماكن التى نالت بحكم قدسيتها من العناية الخاصة، ما سنفسره فى الفصل الأخير عن الأماكن المقدسة فى الشرق الأوسط، لنستشف منه الدوافع التى حركت الوجدان الإنسانى للعناية بتلك الأماكن المقدسة لكنى أحرص قبل الحديث عن هذه الدوافع، على أن أتحدث عن حائط المبكى. فهو المكان المقدس لليهود فى أرض الميعاد.. واليهودية هى أولى الأديان السماوية الثلاثة التى نزلت بالشرق الأوسط. صحيح أن حائط المبكى لم يعمره اليهود .. وما كان لهم أن يعمروه. لكنه يحدث عن معنى له من القدسية فى نفوسهم ما للأماكن المقدسة التى تحدثنا عنها فى نفوس المسلمين ، وفى نفوس النصارى .

مبكى اليهود

- صورة الحداء
- الشعب المختار
- حضارة بني إسرائيل
- السيد المسيح
- هدم الهيكل

مبكى اليهود

ألف الناس من أهل بيت المقدس ، منظرا تقع عليه أعينهم بعد ظهر الجمعة وصبح السبت من كل أسبوع على مدار السنة .. منظر فذ لا مثيل له فى العالم كله ، وهو لذلك مثار طلعة الغريب النازل ببيت المقدس حاجا أو سائحا . ففى هذين الموعدين من كل أسبوع ، تكتظ شوارع المدينة وطرقها بعدد عظيم من الرجال والنساء والأطفال .. لبسوا أجمل ثيابهم على اختلاف صورها وألوانها .. فمنهم لابس القفطان والقبعة ، ومنهم لابس السروال والعمامة السوداء . والنساء فى أزيائهن المتباينة ، قد لبسن أفخر ما عندهن .. فقيرات كن أو ثريات وألبسن أطفالهن أجمل ثيابهم ، ويتأبط كل من هؤلاء كتابا من كتب العبادة ، ويتوجهون جميعا وجهة واحدة ، يتوجهون إلى ناحية حائط المبكى .. فأولئك هم اليهود ذاهبون يبكون ، فإذا اتبعتهم فى طرق البلد المقدس ، بلغت معهم ذلك الحائط الغربى الباقى من الهيكل المقدس .. ثم رأيتهم وقفوا جميعا أمامه ، يقبل بعضهم أحجاره ويتمسح بعضهم بها تبركا وطلبا

للمثوبة فإذا حان موعد البكاء ، رأيت ربانيهم وقف على رأسهم يحدوهم ويجيبونه ، وقد صور غير واحد من السائحين الذين شهدوا هذا المنظر المثير للشجن ، صورة هؤلاء الباكين تسيل دموعهم على خدودهم ، وتخنق العبرات بعضهم حتى يكاد يغص بها .. وذكر هؤلاء السائحون حداء الربانى وجواب شعب بنى اسرائيل .. هذا الحداء وهذا الجواب اللذان لم يتغيرا من تسعة عشر قرنا ، واللذان لايزالان يترددان كل أسبوع فى أجواء بيت المقدس إلى وقتنا الحاضر .

صورة الحداء

وجدير بنا أن نروى صورة هذا الحداء وهذا الجواب اللذين لم يقفوا من بعد عليهما ، ليروا صورة من آلام شعب إسرائيل وآماله . وننبه قبل أن نبدأ الرواية إلى أن جواب الشعب لايزيد فى بدء النظر على هذه الكلمات : «نجلس فى عزلتنا وننوح» .. أما ما سوى هذه العبارة ، فحداء الربانى .. والمنظر يجرى كما يأتى :

الربانى : من أجل القصر الذى هجر ..

الشعب : نجلس فى عزلتنا وننوح ..

– من أجل الجدران التى هدمت ..

– نجلس فى عزلتنا وننوح ..

– من أجل مجدنا الذى ذهب ..

– نجلس فى عزلتنا وننوح ..

– من أجل الهيكل الذى طار أطلالا ..

– نجلس فى عزلتنا وننوح ..

– من أجل عظمائنا الذين ماتوا ..

– نجلس فى عزلتنا وننوح ..

– من أجل رهباننا الذين قتلوا ..

– نجلس فى عزلتنا وننوح ..

– من أجل ملوكنا الذين امتهنوا ..

– نجلس فى عزلتنا وننوح ..

وقد ينقلب الحداء والجواب ، فى بعض هذه الاجتماعات ، إلى دعاء يتبادله الربانى والشعب على النحو الآتى :

الربانى : نبتهل إليك أن ترحم صهيون ..

الشعب : وأن تجمع أبناء بيت المقدس في صعيد واحد ..

الربانى : أعجلنا بالخير يا منقذ صهيون ..

الشعب : وتحدث إلى قلب بيت المقدس ..

الربانى : ولتعد مملكة صهيون عما قريب ..

الشعب : رطب قلوب الذين ينوحون على بيت المقدس ..

قد يختلف الحداء والجواب ، وقد تختلف الأدعية فى صورتهاءعما تقدم .

لكنها جميعا تدور حول هذه المعانى ، وتعبر عن هذه الآلام والآمال . أليست هى آلام كل يهودى منذ غلبهم الرومان ، وأدالوا دولتهم وهدموا هيكلهم .. ثم شتتوهم فى الأرض ، فصاروا لا يعرفون لهم إلى اليوم وطنا ولا مستقرا . وهم يحاولون بكل الوسائل ، يرجون أن تعود لهم الدولة فى أرض المعاد .. وهذا النوح ، وهذا الدعاء وهذا الاستغفار ، وهذا التوسل للبارىء جل وعلا .. بعض تلك الوسائل ، وإن كنا لا ندرى بأى قدر يتعلق بهذه الوسيلة أملهم فى عالمنا الحاضر .

وهذا الحائط الغربي الذى ينوحون عنده ، لايزيد على أنه بقية من جدران الحرم الذى أقامه سليمان لهيكل بيت المقدس.. هذا الحرم الذى بنيت كنيسة القيامة فوق جانب منه ، وبنى المسجد الأقصى فوق جانب آخر . وبنيت قبة الصخرة فى المكان الذى كان يقوم قدس الهيكل عليه .. هذه البقية الباقية من هيكل سليمان ، هى الأثر الذى يحدث شعب اسرائيل عن ذلك المجد الغابر ، الأثر المحطم اليوم ، والذى كان شامخا رفيع العماد فى عهد مضى حين عز اليهودية وعظمة بنى إسرائيل . وهذا الأثر هو الذى يريد بنو إسرائيل أن يعيدوا إليه مجده ، ويلتمسون لذلك كل الوسائل .

وأنت تستطيع أن تقدر حزن هؤلاء النائحين ومبلغ عمقه ، حين تذكر المجد الغابر الذى كان لهم ، والذلة التى ضربت منذ عشرين قرنا عليهم ..فبنو اسرائيل هم سلالة إبراهيم واسحق ويعقوب .. وهم الذين أرسل الله إليهم موسى بكلمة التوحيد ، يوم كانت الوثنية هى الدين القائم فى الأمم المحيطة بهم ..

الشعب المختار

كان فرعون يقول لأهل مصر : «أنا ربكم الأعلى» وكان المصريون يرون الطبيعة آلهة ، فيخلعون مجالى الألوهية على كل مظاهرها .. فالشمس إله ، والسماء إله ، والأرض إله ، والليل إله . وكانت وثنية اليونان لاتزال فى بدائيتها ، وكانت آلهتها تتطور إلى مظاهر الطبيعة كذلك ، لتصبح أبولون ، وفينوس ، وسكان الأولمب جميعا ، وكانت مجوسية الفرس ترى فى النار والنور مصدر الحياة ، وتخصهما لذلك بالألوهية ..

فى هذا العالم الوثنى الذى لم يتخط الشعور فيه آثار الحس المباشر ، سما بنو اسرائيل إلى مراتب التجريد وألهموا سر الوجود ، وهداهم خالق الكون إلى وحدانيته وصمدانيته وبذلك كانوا شعبه المختار ..

وفى هذا العالم الذى كانت المعابد تقوم فيه .. يذكر فيها أمون رع بمصر ، ويذكر أبولون باليونان ، وتذكر فيها نار

المجوس بفارس . ذهب إبراهيم موغلا فى الصحراء حتى بلغ مكة ، فوضع فيها القواعد لأول بيت رفع للناس يذكر فيه اسم الله وحده لاشريك له ..

فى هذه الفلاة الموحشة ، أقام ابراهيم واسماعيل قواعد البيت بعيدا عن غزو الغزاة وعبث الطامعين .. فلما قويت شوكة اسرائيل ، بعث الله كليمه موسى ، فسار بمن كان منهم بمصر إلى وطن إسرائيل بكنعان من أرض فلسطين ، داعيا إلى عبادة الله وحده ، ونبذ ما يدعو المصريون واليونان والفرس إليه من عبادة مظاهر الطبيعة .. فالطبيعة ومظاهرها ليست إلا بعض ما خلقه الله جل شأنه وتعالت أسماؤه .

ولقى موسى وأهله عنتا من فرعون وقومه .. وكانت فلسطين خاضعة يومئذ لحكم مصر ، فاستقلت من بعد .. وتولى أمرها داود . ثم ابنه سليمان .. فأقام داود النواة الأولى للهيكل المقدس ، وأقام سليمان الهيكل كله فى بهائه وفخامته وجلاله .. أقيم هذا الهيكل يذكر فيه اسم الله وحده لاشريك له ، وأقيم فى فخامة تضارع فخامة المعابد المصرية التى تؤله فيها مظاهر الطبيعة ..

حضارة بنى إسرائيل

وآن لبنى إسرائيل أن يقيموا حضارة ، وأن يذكروا فى

الأرض اسم الله وحكمه وشريعته ، بذلك أثاروا عليهم ثائرة الفراعنة وثائرة الفرس .. وغزا الفراعنة فلسطين ، فوجدوا فى دين موسى من أثر عبادتهم ماصدهم عن محاربة هذا الدين وعن التعرض لهيكله الأقدس ، وغزا الفرس فلسطين من بعد ذلك .. فإذا دين اسرائيل ينكر دينهم ويتجافى عنه .. لهذا أحرقوا هيكل سليمان ، وتركوه يبابا .

على أن الهيكل أقيم بعد هذه الغزوات التى قام بها نبوخذنصر .. أقيم باديء الأمر على صورة دون صورته الأولى جلالا وفخامة .. لكن بناءه أعيد حين تولى هيرودس الأول حكم فلسطين باسم روما ، وأعيد أفخم مما كان فى أبهى عصوره وأكثرها عزا وأسماها مكانة .

تقلبت اسرائيل ، بحكم هذه الأحداث التى تعاقبت على القرون ، بين عزة الجاه العريض ، ومضطرب الثورة على الحكام الذين غزوها ، والعمل على دفع الغزاة عن أرضهم واستعادة سلطانهم عليها ودولتهم فيها .. لكنهم أبوا خلال هذه الأحداث جميعا أن ينشروا بين الناس عقيدتهم ، أو يذيعوا كلمة التوحيد فى غير شعبهم ، حرصا منهم على أن يظلوا شعب الله المختار .. أو سموا بفكرتهم عن أن يتناولها أولئك الذين يعبدون من دون الله بعض ما خلق الله .. لذلك ظلت اليهودية مقصورة عليهم لاتتعدى حدودهم ، ثم اندس إليها من

عوامل الانحلال الروحى ما يترتب حتما على الانحلال الاجتماعى الذى يجره الاستعمار فى ذيوله . لذلك انصرف شعب اسرائيل عن المعانى الروحية السامية إلى هذه الحياة الدنيا ، وإن بقى من أحباره ورهبانه من أقاموا على حكم التوراة ، ومن احتفظوا بمميزات هذا الشعب .. مميزات المثابرة ، ودقة المنطق ، وصفاء الذهن .

كان انصراف بنى اسرائيل عن شرعة التوراة فى أسمى معانيها ، يدعو بعض هؤلاء الأحبار والرهبان ليتوقعوا قيام نبى من قومهم يبعثه الله ، ليعيد إليهم مجدهم ويريد السلطان لدولتهم . وكانت الامبراطورية الرومانية إذ ذاك ، قد عظم أمرها فى أوروبا ، وآن لها أن تستقر على ضفاف بحر الروم من ناحية الشـــرق .. بعد أن كانت يدها تمتد إليه ، ثم تنقبض عنه .

وتم ذلك حين غزا بومبى فلسطين فى السنة الثالثة والستين قبل الميلاد .. لقد قاومت بيت المقدس ، وقاومت حصون الهيكل المقدس ، جيوش الروم مقاومة عنيفة . لكن هذه الجيوش انتهت إلى التغلب عليها . واقرار حكم الامبراطورية فى ربوعها .. على أن الروم لم يتعرضوا يومئذ للهيكل ، ولم يحاولوا دك قواعده .. بل تركوه قائما واستأمنوا أهله الذين

أعلنوا الخضوع والطاعة ، ورضوا أن تستقر روما فى أرض بنى إسرائيل .

السيد المسيح

لم ينقض القرن على غزو بومبى أرض فلسطين ، حتى أذن الله للسيد المسيح ، فقام يدعو قومه من بنى اسرائيل ليعودوا إلى الله وليدخلوا على ملكوته . وكانت دعوته بطبيعتها ثورة على انحراف اليهودية عن شرعة التوراة .. كما كانت ثورة على الغزاة الظالمين . وقد لقيت هذه الدعوة مقاومة من بنى قومه ، ومن الحاكم باسم روما . وبلغت هذه المقاومة شدة العنف حين دخل المسيح بيت المقدس ..

لكن الله كان قد أتم يومئذ كلمته على لسان عيسى ، وكان قد أعد حوارييه ليذيعوا هذه الكلمة فى الأرض ، لايحتفظون بها لأنفسهم كما فعل أسلافهم من قبل . فلما توفى الله عيسى ورفعه إليه ، خيل لقومه من بنى اسرائيل أنهم قد آن لهم أن يطمئنوا إلى عقائدهم لكن جذور الثورة التى بثتها كلمة عيسى للناس دفعت بنى إسرائيل أنفسهم لينقضوا على حكم روما وليثوروا بها .

وبلغ الانقضاض أوجه ، بعد أربعين سنة من وفاة عيسى .. عند ذلك ذهب تيطس فسبازيان من روما إلى فلسطين ، وأقسم ليخضعن بنى اسرائيل وليضربنهم بيد من حديد .

وقاومت فلسطين جيوشه مقاومة عنيفة .. يقول جوريفومل مؤرخ ذلك العصر ، كان يعيش فيه : «الآن ولم يبق أمل فى الخلاص ، فذلك أوان القتال حتى الموت .. فمن الشجاعة أن يقدم الانسان المجد على الحياة ، وأن ينهض إلى عمل نبيل تذكره الأجيال من بعده» .

قال المؤرخ هذه الكلمة البالغة فى سموها ، يوم كان أنين شعب إسرائيل لمظالم الرومان وقسوتهم قد بلغ غاية مداه .. لكن جيوش روما التى ألفت الظفر لم تصدها المقاومة ، بل سارت من مدينة إلى مدينة تقتل الناس وتحرق البلاد وتشيع فى الأرض الفساد .. فلم يكن لصدها سبيل . وحاصر الروم بيت المقدس ، فقاومتهم وطالت مقاومتها حتى تفشى بين أهلها المرض بسبب الجوع .. ثم أسلمت مفاتيحها إلى الفاتحين ..

هدم الهيكل

دخلت جيوش روما بيت المقدس ، فهدمت الهيكل وأعملت السيف فى رقاب أهلها ، وأسرت من بنى اسرائيل كل من لم يمت وأجلتهم عن المدينة .. بل أجلتهم عن فلسطين كلها ، فتشتتوا في البلاد المجاورة ..

ذهب منهم من ذهب إلى العراق ، وانحدر منهم من انحدر إلى شبه جزيرة العرب ، وعاد من عاد إلى مصر .. وانحل عنهم ذلك السلطان الذى كانوا يعتزون به ، وأصبحوا لايعرفون لهم وطنا ولا مستقرا .

أجلاهم المسلمون عن شبه جزيرة العرب فى العهد الأول للدين الحنيف ، بعد منازعات وحروب بين هؤلاء وأولئك . ونظر إليهم المسيحيون في مختلف بقاع الأرض ، نظرة متأثرة بما كان بين اليهود والمسيح .. مما انتهى إلى قصة الصلب فى كتب المسيحية المقدسة ، وأبى عليهم الناس جميعا أن يستقروا فى بقعة من الأرض تكون وطنا لهم .. ذلك شأنهم منذ ألف وتسعمائة سنة .. وذلك شأنهم إلى يومنا الحاضر وبنو اسرائيل خلال هذه المحن لايزال حنينهم إلى أرض الميعاد كحنين أجدادهم الأولين ولايزال رجاؤهم متصلا فى أن تعود إليهم دولتهم ، وأن يكونوا فى الأرض الحاكمين .

من أجل هذا الذى أصابهم ، يبكى اليهود وينوحون .. ومن أجله يذهب المقيمون منهم ببيت المقدس بعد الظهر من يوم الجمعة ، أو صبح السبت ، كل أسبوع .. على مدار السنة ، حتى إذا بلغوا بقية جدار الهيكل ، وقف ربانيهم على رأسهم يذكر ما أصابهم من هدم هيكلهم ، وقتل رهبانهم وذهاب ملكهم .. فتسيل لذلك دموعهم . ويهوى الحزن بقلوبهم إلى قرار سحيق ، ثم يضرعون إلى الله أن تعود دولتهم ليكونوا فى الأرض الحاكيمن (١) .

---

(١) سبق أن أشرنا إلى أن هذه الفصول كتبت فى حوالى عام ١٩٤٢ أى قبل احتلال الاسرائيليين لفلسطين سنة ١٩٤٨ (الناشر) .

الأماكن المقدسة لماذا لم تحتفظ ببساطتها ؟

- بساطـــة الأمـــاكن المقدســـــة
- جمال البناء والفن الذى انتقلت إليه
- نظـــــرة المفكــــرين للتجديد

بساطة الأماكن المقدسة

سبق أن أشرت إلى أن الفكرة التى أوحت بإقامة الأماكن المقدسة ، تستمد وجودها من الأديان السماوية الثلاثة التى نزلت بهذا الشرق الأوسط : اليهودية ، والمسيحية و الاسلام . وأن مصدر هذه الفكرة هو الالتجاء الروحى إلى مكان بذاته يعتبر فى نظر الذين يحجونه موئلا لأرواحهم ، وملاذا لقلوبهم المتعطشة إلى التطهير .. ترجوه حيثما تكون من بقاع الأرض ، ثم لاتطمئن إلى أنها أدركت حظها منه حتى تحج هذا المكان ..

فإذا أتم هؤلاء حجهم ، آمنوا بأن الله قبل توبتهم .. وحط عنهم أوزارهم وذنوبهم ، لقاء ما توجهوا إليه منيبين مخلصين ، وما سعت نفوسهم حين الحج إلي ذرى المعانى الروحية .

والواقع أن الصادقين فى حجهم ، من أهل هذه الأديان ، يخالج وجدانهم حين الحج شعور فياض بمعان تسمو كل السمو على ما ألفوا فيما سبق من حياتهم ..

هذه المعانى تختلف باختلاف منازع الناس ، ومبلغ ثقافتهم ، وألوان تفكيرهم .. تختلف عند الرجل الساذج عنها عند الرجل الذى ألف التفكير، ثم شعر كما شعر ذلك الساذج ، بمكان الحج يدعوه إليه ليطهر عنده .. لكنها عند الرجلين سمو بالنفس إلى ما فوق نفسها ، وحرص على الاتصال بالملأ الأعلى من ملكوت الله ، ورجاء فى وجهه الأكرم أن ييسر هذا الاتصال ، لنكون فى غدنا خيرا مما كنا فى أمسنا .. فنبلغ بذلك مكان النفس المطمئنة .. ترجع إلى ربها راضية مرضية ، تدخل فى عباده وتدخل جنته .

وقد رأينا كيف كانت هذه الأماكن أول أمرها بسيطة كل البساطة ، وكيف تطور أمرها على تعاقب القرون .. فبلغت من الفخامة والمهابة . والجلال أعظم مبلغ ..

وهذه ظاهرة نراها فى الأماكن المقدسة فى أنحاء الأرض جميعا ، بل نراها ظاهرة فى أماكن العبادة كلها فى الأديان المختلفة .. تبدأ هذه الأماكن بسيطة ، ثم تتدرج شيئا فشيئا إلى الفخامة .. وذلك أمرها بنوع خاص حين تقام ذكرا لأمر تاريخى جسيم الخطر .

ما سبب هذا ؟ ..

لم لا يحتفظ الناس لهذه الأماكن المقدسة ببساطتها الأولى لينعموا بما للبساطة من روعة ومهابة ؟ ..

السبب واضح .. فالفكرة التى أقامت هذه الأماكن خالدة ، ولذلك تبقى جديدة أمام كل جيل جديد ..

طبيعى أن يلتمس الناس لذكر الفكرة الخالدة مظهرا يبقى على الدهر أطول زمن يستطيع الإنسان أن يضمن بقاءه عليه .

هذا هو السر فى تشييد المصريين القدماء الأهرام والمعابد التى لا تزال باقية تشهدها أعيننا رغم مر السنين وكر القرون .. إنهم شادوها رمزا لمعان باقية ، فيجب أن يكون لها من حظ البقاء ما لهذه المعانى ..

وقد بقيت آثار القدْماء عمرا أطول من عمر المعانى التى قامت تخلدها .. فحق أن تبقى الأماكن المقدسة عمرا يوازى عمر هذه المعانى الجليلة التى شادتها ، والتى لا يجىء عليها الزمان .

فإذا عجز الانسان عن أن يقيم هذه الأماكن للخلود ، فليقمها لتعمر على القرون ، ما استطاع علمه وفنه أن يحفظها خالدة على القرون .

ترى لو أن مسجد النبى العربى بالمدينة ، بقيت عمارته كما شاده عليه الصلاة والسلام .. أفكان مقدرا له أن يبقى على وجه الزمان ، أم أنه كان يعرض لأعاصير الحدثان مما شهدته الأيام وما لا تزال تشهده أعيننا ؟ ..

لذلك قوى عثمان بن عفان عمارته كما رأينا ، وإن لم يفكر

فى زينته كما فكر عبد الملك بن مروان ، وكما فكر المسلمون على مر القرون التى تعاقبت من بعده ..

وما يقال عن مسجد النبى بالمدينة ، يصدق على غيره من الأماكن التى شيدت لتخلد فكرة عظيمة .. بدأت كلها بسيطة بساطة الفكرة التى دعت إلى إقامتها وأكثر الأفكار قوة أكثرها وضوحا وأكثرها لذلك بساطة .. لذلك تنغرس فى نفوس الناس وتستولى عليهم .. فيزدادون شعورا بقوتها ، فيزيدهم ذلك حرصا على تقوية الأثر الذى يذكرها .

ولما كانت الفكرة تتصل دائما برجل ألهمها أو أوحى إليه بها ، فذكر هذا الرجل يتصل بذكر الفكرة العظيمة التى تنسب إليه ، من ثم ، تقام للعظيم آثار كالآثار التى تقام لفكرته ..

أشرنا إلى مسجد النبى العربى .. هذا المسجد الذى أقامه النبى بسيطا ، فجعله المسلمون من بعده مثال المتانة والجلال والجمال ..

كذلك الشأن فى كنيسة المهد ، وكنيسة القيامة .. هما تقومان ذكرا للمسيح عليه السلام يوم ولد ، ويوم توفاه الله ورفعه إليه .. وهما لذلك آية فى المتانة والروعة .

هذه الآثار التى تقام للعظماء ، تضارع الآثار التى تقام تخليدا للفكرة التى جاءوا بها .. فبيت الله الحرام بمكة ، والمسجد الأقصى ببيت المقدس ، يقومان ذكرا لفكرة التوحيد

من يوم هدى الله أنبياءه ورسله إليه ، وألقى عليهم أن يبلغوا الناس فكرته ..

فهذان الأثران المقدسان يضارعان الاثار التي أقيمت لمن هدوا الانسانية إلى فكرة التوحيد قوة وجلالا وعظمة .

لايكتفى الناس بتقوية الأماكن المقدسة لتقاوم الزمان وأحداثه .. بل هم يضفون عليها من ألوان البهاء والجمال والجلال غاية مايهديهم إليه عملهم وفنهم ..

لماذا ؟ ..

لأن الفكرة العظيمة لها على بساطتها من البهاء والجمال والجلال ، مايبهر اللب ويأخذ بمجامع القلب .

الصورة المادية للمعانى المجردة

بهاء الفكرة معنوى ، وجلالها روحى ..

وبهاء الأماكن التى تذكرها ..

وجلال هذه الأماكن وجمالها مادى ..

فكيف يقاس المادى بالمعنوى ؟ ..

لك أن تسأل هذا السؤال .. وجوابنا عليه أن من طبيعة الانسان أن يخلع الصورة المادية على المعاني المجردة ، لأن الانسان قلما يدرك المعنى المجرد الا أن تقوم له فى نفسه صورة مادية ..

فإذا استطاع المفكرون أن يجردوا المعانى ، وأن يدركوها

لذاتها ، وأن تتمثل أمامهم حقائق لها صورتها الواضحة كوضوح الصورة المادية فى نظر سواد الناس .. فإن هذا السواد لاسبيل له إلى امتثال الصورة المعنوية أو الروحية الا أن يقيم لها فى أطواء نفسه صورة مادية .

لما فتح رسول الله مكة ودخل الكعبة ، ورأى جدرانها صورت عليها الملائكة نساء ذوات جمال .. فأنكر هذه الصورة لأن الملائكة ليسوا ذكورا ولا إناثا ، وليس لهم فى النفس التى تدرك المعانى المجردة صورة مادية .. لذلك أمر النبى فطمست هذه الصور ..

على أن للذين صوروها عذرهم الذى سبق بيانه .. فالصورة المجردة لايمكن أن تثبت فى نفس السواد قائمة بذاتها بل لابد لها من جسد تستقر فيه لتحيا به فى تصورهم كحياة الروح فى الجسم .

ولقد رأينا المصورين الأوروبيين فى القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر يصورون الملائكة على نحو يقرب مما كان على جدران الكعبة .. ولا يزال هذا شأن أهل الفن إلى يومنا .. ذلك بأن الصورة المجردة لايمكن أن تثبت أمام حواسنا إلا إذا اتخذت الصورة المادية لباسا لها تستقر عليه الحواس .

ودليل أكثر وضوحا على أن السواد لا يستطيع تمثل الصورة المعنوية إلاّ فى صورة مادية ، عبادة الأصنام .. فهذه

الأصنام كانت تعبد عند العرب ، وعند غير العرب ، على أنها صورة للإله على ماكان يتصورها أهل تلك العصور .

وليس بين المعانى التى تقوم بالنفس ما يسمو على كل صورة مادية كمعنى الألوهية السامى .. مع ذلك عجز السواد فى الماضى عن تصور هذا المعنى مجردا من المحسوسات المادية . فاتخذوا من الفن وسيلتهم إلى تمليق هذا العجز فى نفوسهم دون الاعتراف به صراحة وجهرا .

لهذا يضفى الناس على الأماكن المقدسة أروع صور الفن وأبدعها وأجملها ..

ولهذا أوحت المعانى الدينية إلى الفن ، وألهمت أربابه خير ما خلّفوا للانسانية من تراثهم البارع .

ولقد رأيت الشىء الكثير من هذا الفن حين تحدثنا عن مسجد النبى وقبة الصخرة ، وعن كنيسة المهد وكنيسة القيامة ..

وأنت ترى منه الشىء الكثير فى المساجد والكنائس حيثما ذهبت من أنحاء العالم .. ترى فن العمارة بالغا غاية عظمته وجلاله ، وترى سائر الفنون متجلية في التماثيل والصور في الكنائس وفى السجاجيد والخط الجميل فى المساجد ..

ذلك لأن الفكرة العظيمة التى أقامت هذه المعابد الفخمة ، حركت الوجدان الانسانى للعناية بها عناية تتفق مع جلال هذه الفكرة وعظمتها .

نظرة المفكرين للتجسيد المادى

ذكرت أن المفكرين قديرون على تصور الفكرة المجردة لذاتها ، وأنها تتمثل لبصائرهم فى صورة واضحة كوضوح الصورة المادية في نظر سواد الناس ،، وهم يسمون بالفكرة عن أن تلبس اللباس المادى سموا كبيرا ، بل هم يرون فى إلباسها هذا اللباس حدا منها وتضييقا لآفاقها ، يصلان فى كثير من الأحيان إلى إفسادها ..

فكيف يرضون عن النزول بها فى الأماكن المقدسة ، وفى غير الأماكن المقدسة إلى أن تصور صورة مادية ؟

وكيف يسكتون على ذلك ولا يحاربونه ؟

ثم كيف يحض الحاكمون وأولو الأمر عليه ويشجعونه ؟

لم لا يصنع المفكرون ما صنع النبى العربى حين طمس الصورة التى كانت على جدران الكعبة ، وحين حطم الأصنام القائمة فيها ؟

لا أرانى بحاجة إلى القول بأن ال[illegible]و إلى مقام الرسالة أمر غير ميسور ، إلا لمن أختارهم الله لها ..

وأزيد على ذلك أن أولى الأمر ليسوا دائما من المفكرين الذين يسمو تفكيرهم إلى مقام التجريد وتمثل الفكرة فى حيويتها الذاتية غير كاسية ثوب المادة ..

وسيان منهم من سموا إلى هذا المقام ومن لم يسموا إليه .. هم جميعا ينظرون إلى أمور الحكم بعين الواقع لا بعين التجريد والبصيرة المطلقة من قيود هذا الواقع ..

وهم يقدرون أن الرسول النبى العربى قد عفى على ما وجد بالكعبة من الآثار حتى لا يبقى لعبادة الأصنام فى النفوس آثر.

أما وقد بلغ الأمر من ذلك مداه ، ولم يبق لهذه العبادة فى النفوس باقية ، فلتكن معانى الحكم قريبة من متناول إدراك السواد حتى يطمئن الناس إلى هذا الحكم ويرضوا عنه ، ومن أسباب الرضا أن تقرب إلى أذهانهم المعانى النفسية فى صور مادية . ولذا أنفق عبد الملك بن مروان وغيره من الملوك والأمراء ، وبالغوا فى الانفاق على عمارة الأماكن المقدسة ، حتى يصل بها الفن إلى أبهى صور الجمال والجلال .

أما المفكرون ، فلا يحاربون هذا التجسيد المادى للمعانى الذهنية والروحية ، لأنم يرونه ظاهرة من ظواهر الحياة الانسانية لاغنى للناس عنها .. بل لعلهم يرون فى هذا التجسيد إبقاء على المعانى السامية فى نفوس السواد ، لأنه لا يستطيع أن يدرك هذه المعانى دون أن تلبس هذا الثوب ..

هؤلاء على الأقل هم المفكرون أولو الأفق الفسيح فى تصور الحياة وما تنطوى عليه ، أما المتزمتون فلا يذهبون مذهبهم ..

ألسنا قد ذكرنا ماكان من إنكار بعض المسلمين لعمل عثمان بن عفان ، حين زاد فى رقعة مسجد النبى ، وانتقل بعمارته من البساطة التى كان عليها فى عهد النبى وفى عهد أبى بكر وعمر إلى بعض الفخامة والزينة ؟

ألم نذكر كيف ضج المسلمون حين أدخلت بيوت النبى فى مسجده رغم ما كان من ابداع عمر بن عبد العزيز فى عمارة الحجرة النبوية وفى زينتها ؟

هذا .. ثم إن للفن الجميل مقامه السامى عند المفكرين ، قبل أن يكون له مثل هذا المقام عند غيرهم ، فإذا كانت الفكرة السامية حقيقة جديرة بالخلود ، فالفن الذى يخلد هذه الفكرة فى النفس الانسانية جدير بأن يشجع وألا يحارب . وهو إنما يشجع لذاته . فإذا أدت آثاره إلى أن تندس إلى النفوس معان وثنية قامت الفكرة للقضاء عليها كما هو الشأن فى الأديان التى قامت فى الشرق الأوسط فإنما تعلن الحرب على هذه المعانى الوثنية لا على الأثر الفنى الذى تنسب له ..

وهذا ماقام به المفكرون من قبل ، وما يقومون به اليوم .. وللجهود التى يبذلونها فى هذا السبيل أثرها القيم لا ريب .. هذا الأثر الذى كفل بقاء فكرة التوحيد فى نفوس السواد لا تطغى عليها الصورة الوثنية طغيانا يهدد كيانها أو يخشى خطره عليها .

الباب الثالث

وداعـــا ... أوروبـــا

---

* قام الدكتور هيكل في صيف ١٩٥٥ برحلة كانت الأخيرة قبل مرضه ووفاته في ١٩٥٦ نشر بعدها هذه المجموعة من المقالات التي تناولت في معظمها بلادا كان يزورها للمرة الأولى ولكنها تركت من الأثر في نفسه ما تعبِّر عنه هذه المقالات بوضوح (الناشر) .

تعال معى نبحث عن الجمال

تروى كتب الأدب العربية أن معاوية بن أبى سفيان سئل يوما : ما بقى من لذتك يا أمير المؤمنين ؟ وكان جوابه : محادثة الرجال . وهذا جواب حكيم لا ريب ، ومحادثة الرجال متاع أى متاع . لكن مشاهد الطبيعة لا تقل فى نظرى عن محادثة الرجال امتاعا ولذة ومتاعها يحلو كلما تكرر بين الحين والحين . وهو يزداد أخذا للنظر كلما تباعدت فتراته فعادت بذاكرتنا إلى أوقات من حياتنا كان الشباب يزيدنا أثناءها متاعا بكل ما فى الحياة .

كان ذلك شأنى خلال الأسبوع الذى قضيته بسويسرا بين السادس والثالث عشر من شهر أغسطس الحاضر ، صحيح أننى لم أنزل جنيف ، ولم أستمتع بمناظر بحيرتها الساحرة ، لكننى زرت فيما زرت أماكن وقفت عند بعضها منذ عشرين ومنذ ثلاثين سنة ، فكان متاعى بمشاهدتها اليوم وكأنه متاع جديد ، ضاعفته ذكريات سعيدة من عهد الشباب لم تنسنى إياها الكهولة المتقدمة إلى ناحية الشيخوخة .

وكان ذلك موقفى بنوع خاص أمام شلالات الراين عند بلدة شافوزن ، فقد زرت هذه الشلالات منذ سبع وعشرين أو ثمان

وعشرين سنة ، زرتها يومئذ مع زوجتى ووقفنا أمامها مأخوذين بعظمتها وجلالها وجمالها ، كتبت يومئذ عنها ما نشرته فى كتاب «ولدى» ثم أنستنيه السنون التى تنسى كل شيء ، تنسى السعادة والشقاء . تنسى المسرة والألم ، تنسى الفقر والغنى ، تنسى الحزن والفرح ، أنستنيه السنون حتى لقد زرت سويسرا بعد ذلك غير مرة فلم يمر بخاطرى أن أذهب لأرى هذه الشلالات بل لعلى نسيت وجودها وجمالها ، وإن بقيت ذكرى زيارتي الأولى إياها عالقة بذهنى تبعث إلى نفسى معانى النعمة والسعادة .

وللمصادفات في حياتنا شأن عجب . صادف أن جاء ولدى من انجلترا ليلقانى فى زيورخ بسويسرا مستقلا إليها سيارته وفى أثناء حديثه عن رحلته ذكر أنه مر بشافوزن ، وسألته إن كان رأى الشلالات فذكر أنه مر بها ليلا . وأنه كان يستعجل لقائى فلم يقف عندها ، عند ذلك عزمت أن أعود به وبابن أخى إليها لنقضى النهار عندها ، فمثل هذه المناظر البارعة الرائعة لاتكتفى منها بأن تمر بها ، بل هى تمسكك عندها ، وتستولى على لبك بروعة جمالها ، وتسلبك اختيارك فى مفارقتها ، وخير أن تسلم زمامك إليها لتزداد متاعا بها وإيمانا بقدرة بارئها ومصورها ذى الجلال .

والطريق من زيورخ إلى شافوزن طريق جميل يأخذ بالعين

ما حوله من أشجار وغابات وما امتازت به سويسرا بجبالها وسهولها من مناظر ذات روعة بارعة . فلما كنا عند الجسر الصغير الذى يتخطى الإنسان الراين فوقه الى منطقة المساقط تركنا السيارة وترجلنا وعبرنا الجسر وطال سيرنا حتى كنا عند البناء المطل على هذه المساقط التى تنحدر الشلالات من حولها شلالا فشلالا ، ودرنا حول هذا البناء ودخلنا إلى حيث نشاهد الشلالات ، يا للجلال والروعة والجمال ، ويا لقدرة خالق كل شيء ويا لعظمته وجلاله . وقفنا عند أول منظر لهذه الشلالات في غرفة فيها زجاج ملون نرى فيها انحدار المياه المندفع يحيل هذه المياه رذاذا ورشاشا وما يشبه البخار ، وترى هذا المنظر بألوان الزجاج الأحمر والأصفر والأخضر فيأخذك العجب . لكن هذا العجب لا يلبث أن يتلاشى . إن منظر الشلالات على طبيعتها ومن غير تلوين أعظم بهاء وروعة من كل تلوين تبدعه صناعة الانسان .

فقد أنشأت حكومة سويسرا ، أو بلدية شافوزن ، لا أدرى أيهما ، درجا ينخفض حتى يبلغ ما يزيد على مائتى درجة ، وأنشئت عند كل منظر جديد من مناظر الشلالات ساحات ضيقة يقف عليها الانسان ليمتع نظره بهذه المناظر البديعة المتعاقبة ، فليس انحدار الشلالات وحده هو الذى يأخذ بنظرك بل إنك لترى على ضفة النهر المقابلة الأشجار الخضراء

الكثيفة تكاد تكون غابة ، أو لعلها بالفعل غابة يستريح النظر إلى جمال خضرتها وإن فصلت بينه وبينها هذه الشلالات المنحدرة بمياهها المتدفقة ورشاشها ورذاذها الذى يصيبك منه بين الحين والحين نصيب لاتضيق به ، لأنك تشعر أنه أثر من هذا المنظر الذى فتنك بروعة عظمته وساحر جماله وبما يحدث عنه من كبرياء الطبيعة كبرياء يزيدنا حبا لها وتعلقا بها وإيمانا بمبدعها العظيم .

وقد رأيت فيما رأيت من مساقط المياه ومن الشلالات غير قليل . رأيت شلالات النيل فى أسوان وفى حلفا ، رأيت شلالات نياجارا بين الولايات المتحدة وكندا ، ورأيت من مساقط المياه فى فرنسا وفى سويسرا ما استرحت إليه وأعجبت به حين زرته ، ولكن شتان بين شلالات النيل ونياجارا وشلالات الراين عند شافوزن ، إن شلالات النيل كتماثيل قدماء المصريين ، روعتها فى ضخامتها وفى امتدادها وشلالات النياجارا رهيبة فى جلالها لأنها تنحدر من ارتفاع عظيم ، وأنت تزداد لها قدرا حين تشهد انحدارها وقد اخترقت إليه جوف الصخر الذى نقره المحيطون به فيزيدك المنظر مهابة وخوفا ، أما شلالات الراين عند شافوزن فلم تبلغ عظمة شلالات النيل ، ولم تبلغ رهبة شلالات نياجارا ، ولكنها جمعت من جمال الجلال وروعة السحر وأحاطت بها الخضرة الناضرة

التى تريح العين وتأخذ بالنظر ما لم يجتمع شىء من مثله لأى من المساقط أو الشلالات التى رأيت خلال عشرات السنين الماضية .

ولا أتحدث عن مساقط المياه المنحدرة فى أخاديد الصخر من أعالى الجبال فى سويسرا وفى فرنسا فهى لا تقاس جمالا ولا جلالا إلى شلالات الراين . على أننى إن نسيت فلن أنسى يوما كنا فيه بأنترلاكن وكنا نتخطى بين جبلين تندفع المياه بينهما بقوة عنيفة ، وكانت معنا سيدة مصرية رقيقة متحدثة يحلو لها حديثها ويحلو لك سماعها ، وقد تقدمتنا هذه السيدة بين الجبلين على جسر ضيق من الخشب يحجز بينه وبين الماء حاجز نحيف . وأعجبت السيدة أول ما دخلت بين الجبلين وتحدثت عن جمال المنظر ، لكنها لم تلبث بعد قليل أن استحال حديثها صمتا لا تقطعه كلمة ، واذا هى تهمهم بين شفاهها تقرأ الفاتحة أو اية الكرسى ، واذا المنظر يطول ثم يطول ، ويزداد رهبة وجلالا ، ثم اذا الرشاش يتساقط من فوقها منحدرا من الجبل فلا يحرك تساقطه السيدة لحديث أكثر من السؤال عما بقى من هذا المنظر البديع الرهيب . وبقينا كذلك نصف ساعة أو نحوها حتى خرجنا من الناحية المقابلة للناحية التى دخلنا منها ، عند ذلك تشهدت السيدة وكأنما ردت إلى الحياة من جديد ، أما أنا وصاحبى الذى كان معى فابتسمنا لخوفها وفزعها ، وإن مرت بنا لحظات أثناء هذا الطريق على

نهر الآر لم نكن فيها دون السيدة رهبة وإن لم نكن مثلها خوفا ولا فزعا .

هذا بعض قليل من كل كثير من روائع الطبيعة التى شهدت فى أسفارى ، أحييت زيارتى سويسرا ذكراها فى نفسى . ألست إذن على حق حين أذكر أن مشاهد الطبيعة ليست أقل إمتاعا للنفس من محادثة الرجال ، وان تقدمت بنا السن ، وإن استمتع نظرنا من هذه المشاهد بما لا حصر له . ولمشاهد الطبيعة فى كل بلد من بلاد الله روعة وجمال يتجليان لمن عرف أن يراها ويتحدث إليها ويسمع حديثها . فأما الذين لايرون ولايتحدثون ولايستمعون فأولئك حرمهم الله نعمة من أجل نعمه وأعظمها قدرا ، وحرمهم لذلك من المتاع بخير أنعم الحياة . ولقد طالما سمعت بعضهم فى مصر يتحدث عن الصحراء ويتساءل ما جمالها . ولو أنه قرأ ما كتبه المرحوم أحمد محمد حسنين فى مقدمة كتابه عن الصحراء لأدرك أن فيها أكثر من الروعة ومن الجمال . فيها سر عميق بعيد الغور تقف أمامه مسبحا مقدسا مدركا عظمة الخالق وضآلة الخلق . ولو أن هذا المنكر الكافر لجمال الصحراء اجتازها ساعات المغيب أو فى ضوء القمر لرأى فيها من آيات الجمال الرائع ما يدفع إلى نفسه الايمان بجلالها وجمالها . كذلك شأن الذين ينظرون إلى النهر الاله الذى عبده قدماء المصريين والذى قال هيرودوت إن

مصر هبة من هباته . فهذا النيل الجليل الجميل فى أوقات تحاريقه الجليل العظيم فى أوقات فيضانه مشهد خالد من مشاهد الطبيعة البارعة الدائمة التغير كلما تغيرت فصول السنة . والبحر بموجه المتلاطم ، والمزارع الخضراء الذاهبة إلى مدى النظر عند الأفق .. هذا كله جمال رائع يستمتع به من يعرفون كيف يستمتعون بمشاهد الطبيعة كما يستمتع بها الطير والحيوان فى صمت وإجلال .

تباركت يارب خالق كل شيء ، إن لنا معشر بنى الانسان مما خلقت لما يزيد الحياة بهجة ويزيدنا بها متاعا ، فلك الشكر والثناء على ما أنعمت وتفضلت ، بيدك الخير ، وأنت على كل شيء قدير ..

أول يوم فى باريس

فى الحياة مفاجآت لها أثرها فى حياة الإنسان ما عاش .

وكان ذلك شأن اللّيلة الأولى التى قضيتها بباريس يوم زرتها لأول مرة . كنت إذ ذاك شابا لم أتم الحادية والعشرين ، وكنت قد حصلت على إجازة الليسانس فى الحقوق من مصر ، وسافرت إلى باريس لكى أدرس لاجازة الدكتوراه . وكان معى فى الباخرة التى أقلتنا من الاسكندرية فى السابع من يوليو سنة ١٩٠٩ زميلان سافرا إلى فرنسا للغرض الذى سافرت له ، وكان معنا بعض رجال عرفوا أوروبا لأنهم سافروا إليها من قبل غير مرة .

وأرست بنا الباخرة فى مرسيليا صباح اليوم الثانى عشر من يوليو . وقضيت النهار فى المرفأ الفرنسى ، ثم أقلنا قطار المساء إلى باريس فبلغناها صبح ١٣ يوليو .

ونزلنا بباريس فندقا يجاور كنيسة المادلين لاعهد لأمثالى الطلبة بالنزول فيه . ولكنى نزلته مع أصحابى لأن عظيما من أصدقاء والدى كان يقيم به ، فآثر أصحابى النزول فيه ريثما نجد المسكن الذى يليق بطالب جاء يدرس .

وفى أثناء النهار زار بعض إخواننا المصريين الذين

يقيمون بباريس منذ سنين هذا العظيم الذى كنت أتمتع بعطفه ، فأوصاهم بأن يصطحبونا فى المساء لنرى باريس ليلة ١٤ يوليو .

وكانت هذه هى المفاجأة التى استمرت أربعا وعشرين ساعة .

كانت مصر إذ ذاك ترزح تحت نير الاحتلال البريطانى ، وكانت فيها بقايا متخلفة من آثار الحكم العثمانى ، وكانت المرأة المصرية محجبة لا اختلاط لها بالرجال وكان الجمود الفكرى من فضائل الشباب فى هذا الحين ، وكانت هذه الصورة للحياة المصرية لاتعجبنى يومئذ من الناحية النظرية ، فكنت أقاومها وما أزال طالبا بالحقوق ، ولكنها كانت صورة الحياة الواقعية التي عرفتها وألفتها ولم أعرف غيرها ولم آلفه .

فلما كان المساء من ذلك اليوم الأول الذى نزلت فيه باريس إذا بى تفاجئنى صورة للحياة تختلف عن هذه الصورة التى ألفتها ، بل تثور بها ، بل تلقى بها من النوافذ إلى الجحيم لتتبدى أمامى صورة أخرى تبهر عينى وتذرنى وكأننى انتقلت إلى عالم آخر .

خرجت فى المساء مع أصحابى الذين يقيمون بباريس أشهد عيد ١٤ يوليو ، وكان النهار قد أعدنا بعض الشىء لنتوقع جديدا نراه . فقد رأينا فى الصباح عند قوس النصر

بعض الفرق العائدة من الاستعراض الذى أقيم لمناسبة عيد الحرية . أعدنا منظر هذه الفرق بعض الشىء فقط ، لأننا لم نتعود فى مصر أن نسمع عن عيد الحرية ، ولانى لم أكن أتصور أن يكون استعراض الجيوش من مظاهر الحرية ، وإن أمكن أن يكون من مظاهر الاحتفال بالنصر . فلما خرجنا فى المساء كانت المفاجأة الكبرى . المفاجأة التى تركت فى حياتى أثرا لا أنساه ، والتى ثبتها بعد ذلك فى نفسى ماشهدته غداة ذلك المساء ، فى يوم ١٤ يوليو نفسه .

كانت باريس من ذلك الحين تسمى مدينة النور . لكنها لم تكن تعج بالأنوار عجيجها بها اليوم ، أما فى ذلك المساء وتلك الليلة مساء ١٣ ، ١٤ يوليو . فقد كانت أنوارها تصعد إلى السماء علي نحو بهر خيالى . زاده بهرا أن أهل باريس جميعا هرعوا إلى شوارعها يحتفلون بعيدهم ويشهدون هذه الأنوار الساطعة المنتشرة فى كل مكان . ويستمعون إلى ألحان الموسيقى التي تعزف فى كل مكان .

وسار أصحابنا وسرنا وراءهم نقصد ميدان الباستيل حيث يقوم تمثال الحرية سطعت عليه الأنوار من كل جانب وارتفعت منه مصعّدة إلى السماء . وحرصنا على أن نرى التمثال عن قرب . ولكن هيهات . إن الجموع الزاخرة المحيطة به تجعل من أعسر العسير عليك أن تتقدم إلى ناحيتة . وهذه الجموع

مختلطة من رجال ونساء ، من شبان وشيب وصبية ، وقد أخذت نشوة السرور بمجامع قلوبهم فهم يحيون بنظراتهم وبابتساماتهم هذا التمثال الذى يقوم حيث كان يقوم السجن الذى كبل فيه الاستبداد أجسام الأحرار وإن لم يستطع أن يكبل عقولهم وقلوبهم ، والذى حطمه الفرنسيون فى ثورتهم الكبرى وأخرجوا منه الاحرار ليستمتع الجميع بالاخاء والحرية والمساواة فيقول كلّ ما يشاء ، ويفعل ما يشاء ، ويستمتع بحريته كما يشاء ، على شريطة الا يعتدى على حرية غيره ، فيتمتع الجميع بأكبر نعمة عرفتها الإنسانية : نعمة الحرية .

وبقينا إلى ما بعد منتصف الليل نجوب أرجاء باريس فتفاجئنى حيثما ذهبت أنوار الحرية ومظاهرها . وعدت إلى الفندق أستعيد بالنوم راحتى . فلما أصبحت خرجت إلى الحى اللاتينى مع رفقتنا الذين يعرفون باريس .

ما هذا الذى أرى . إن الناس قد بلغ منهم الجذل مبلغا لو أن شيئا من مثله حدث فى مصر لنادى المنادون بالويل والثبور وعظائم الأمور . إنهم يرقصون فى كل مكان . ويغنون فى كل مكان ، ويقبل بعضهم بعضا فى كل مكان . وذلك لاريب هو احتفالهم بعيد الحرية . فإننى لم أشهد شيئا من مثله أمس فى باريس ، ولم أشهد شيئا من مثله أول من أمس فى مرسيليا . وليس طبيعيا أن يكون ذلك شأنهم فى حياتهم اليومية .

فحاجات الناس فى حياتهم اليومية تقتضيهم العمل . والعمل يمسكهم عن الاندفاع فى مثل هذه الغبطة الجارفة التى أراها أمام عينى اليوم .

لكن ما أراه اليوم لم يكن مما يدور بخاطرى أو يتصوره خيالى ، لقد شهدت جموع الناس الحاشدة فى مصر لمناسبات مختلفة كلها أو أكثرها متصل بالدين ، كحفلة الكسوة ، أو طلعة المحمل ، أو رؤية رمضان ، أو وفاء النيل ، لكنى لم أر مثل هذا الجذل الذى يتجاوز الحدود كلها مما رأيت فى باريس يوم ١٤ يوليو ، وما كان بالنسبة لى مفاجأة لم يسبق لى فى الحياة مفاجأة مثلها .

وأصبحنا يوم ١٥ يوليو فإذا باريس تعود إلى نشاطها وإلى وقارها ، وإذا أنوار العيد تنطفىء ليعود الناس لعملهم اليومى وكدحهم لحاجات الحياة .

تركت هذه المفاجأة أثرا فى نفسى لم تزده الأيام من بعد إلا قوة وتثبيتا . وكان أول أثرها أنى أيقنت أن أبناء فرنسا ما كانوا ليحتفلوا بعيد الحرية كل هذا الاحتفال لولا أنهم يشعرون بالفعل بقيمة هذه الحرية بعد أن كسبها لهم آباؤهم وقد بذلوا فى سبيلها أجسم التضحيات ، فعُذب منهم من عُذب ، وشُرد منهم من شرد وقتل منهم من قتل ، ولولا أنهم يمارسون هذه الحرية فى حياتهم بكل معانيها . ذلك ماتبينته وثبت فى نفسى

من بعد . ولعلهم كانوا أكثر ابتهاجا بحريتهم يومذاك منهم ومن غيرهم من الشعوب الحرة بحريتهم اليوم ، ولذلك كان احتفالهم أعظم روعة ، وكان مصدره القلب والشعور العميق .

فالحرية في ذلك العهد ، قبل الحرب العالمية الأولى ، لم تكن تعرف حدا ولاقيدا . كان المذهب الفردى الذى يقدس الحرية الانسانية هو السائد فى العالم كله ، وكانت وظيفة الحكومات حماية هذه الحرية الفردية قبل كل شىء . لم تكن فى ذلك العهد قيود تصدك عن شىء إلا أن تعتدى على حرية غيرك أو على ماله . أما اليوم وبعد الحربين العالميتين الأخيرتين فقد اختلف معنى الحرية فى النفوس حتى أصبح الذين كانوا يؤمنون بها على ما عرفها القرن التاسع عشر يشعرون بأن العالم ارتد إلى الوراء اجيالا .

ومهما يكن من شىء فقد تركت هذه المفاجأة الأولى التى واجهتنى بها باريس أول ما نزلتها أثرا فى نفسى لاتمحوه الأيام ، ولا يمكن أن يجنى عليه النسيان .

باريس أمس واليوم

أحق أنه لا جديد تحت الشمس كما يقولون ؟

وبعبارة أكثر بساطة . هل نحن نرى كل يوم ما نراه فى اليوم الذى سبقه ، وكل عام ما نراه فى العام الذى سبقه ، فنتوهم أن العالم هو اليوم كما كان منذ خلق . قد يكون ذلك صحيحا إذا وقفنا بذاكرتنا عند مظاهر الطبيعة واثارها . فالشمس والقمر وسائر الكواكب لم تتغير فى تصورنا عما كانت عليه منذ آلاف السنين . والبحار والجبال والانهار لم تتغير كذلك وما تنبت الأرض هذا العام هو ما أنبتته العام الماضى ، وهو ما ستنبته فى العام المقبل والأعوام التى تليه . لكنا قد رأينا فى حياتنا ، وفى هذا القرن العشرين ، أشياء لم يرها آباؤنا ، أو لم يرها أجدادنا ، كما أن ساكن المدينة يرى أشياء لايراها ساكن القرية ، ونحن إذا غبنا عن بلاد كنا نقيم بها ثم عدنا بعد سنين إليها رأينا فيها من الجديد مالا يراه المقيمون بها والذين لم يبرحوها يتوهمون أن مايرونه هو هو لايتغير ، ويقولون بذلك أن لا جديد تحت الشمس .

وقد غبت أنا عن باريس مرات وعدت إليها بعد ذلك مرات ، وكنت قد أقمت بها ثلاث سنوات بين سنة ١٩٠٩ وسنة ١٩١٢ ،

خلال إجازة قصيرة قضيتها خلال هذه السنوات الثلاث بمصر وقد رأيت تحت شمس باريس جديدا فى غير مرة من المرات التى عدت فيها إليها ، وإن بقيت باريس لم تتغير فى جوهرها وروحها بأكثر مما تغير العالم كله فى جوهره وروحه .

كانت باريس خلال السنوات الثلاث التى أقمتها بها صدر شبابى أكثر مرحا ، وكان مرحها إذ ذاك أكثر رزانة من مرحها في العهد الذى أعقب الحرب العالمية الأولى ، وأكثر وقارا من مرحها بعد الحرب العالمية الثانية ، وكانت باريس صدر شبابى أكثر حرية منها اليوم ، وإن بقيت مع ذلك مهد الحرية في العالم كله بأوسع صور الحرية وأكمل معانيها . وكانت باريس صدر شبابى أشد ميلا للفن الكلاسيكى فى المسرح والموسيقى والأدب ، وهى اليوم أشد ميلا للفن التقدمى فيها ، إن صح أن تسمى مظاهر «الاكزيستانسياليسم» (١) وما إليها فنا تقدميا . وكانت باريس صدر شبابى مصدر الاشعاع العلمى والروحى ومقصدا لكثيرين تحن نفوسهم وقلوبهم إلى نور هذا الاشعاع المجتمع فى السوربون وما حوله من معاهد باريس . واليوم تنازع باريس عواصم أخرى تريد أن تنزع منها تاج هذا الاشعاع فى الفن والعلم والأدب ، وباريس مع ذلك ماتزال محتفظة بتاجها غيورة عليه أشد الغيرة . هذه وأمثالها صور لما جد تحت شمس باريس ، ثم بقيت مدينة

---

(١) الوجودية

النور رغم ذلك كله مصدر النور تحسه القلوب والعقول والأرواح كما تشهده الأعين والحواس .

ولن أسأم تكرار ما حدثني به السناتور ألبن باركلي نائب رئيس الجمهورية الأمريكية في عهد الرئيس ترومان ، إذ قال لي يوما ونحن خارجان من اجتماع اللجنة التنفيذية للاتحاد البرلماني الدولي سنة ١٩٤٨ ، وكانت اللجنة تعقد اجتماعها في قصر مجلس الشيوخ الفرنسي القائم في حديقة اللوكسمبرج : قال سناتور باركلي . لقد زرت عواصم العالم كله تقريبا زرت عواصم أمريكا وأوروبا وزرت القاهرة وزرت الهند . وللكثير من هذه العواصم روعة تأخذ بالنفس . لكن عاصمة منها لا تأخذ بمجامع قلبي ما تأخذ باريس . أنا لا أعرف كلمة واحدة من اللغة الفرنسية ، ولا أعرف لغة غير الانجليزية ، وأنا مع ذلك أشعر وأنا هنا في باريس بأنعم الحياة أكثر مما أشعر بها في أي بلد آخر ، ولو سألتني لماذا ، لما استطعت أن أجيبك بأكثر من أنها باريس بفتنتها وبارع جمالها وظروفها وخفة روحها .

وأعترف بأنني أعتبر السنوات الثلاث التي أقمتها صدر شبابي بباريس أسعد أيام حياتي وأعمقها أثرا في تكوين نفسي وفي اتجاه ثقافتي ، وإنني لذلك أحب باريس أخلص الحب وأدين لها بولاء لاتجني عليه الأيام . قد أختلف رأيا مع الفرنسيين ، أو مع أهل باريس أنفسهم ، في أمر من الأمور ، وقد يبلغ هذا الخلاف من نفسي مبلغ الموجدة عليهم ، فإذا

عدت إلى باريس ، بل إذا ذكرت باريس أسفت أن يكون بينى وبين أهلها خلاف كما تأسف أنت إذا اختلفت مع أعز حبيب عليك ، وأحب صديق إليك .

وليست هذه العاطفة القائمة بنفسى نحو باريس من املاء النظرة الأولى ، وليست أثرا من هوى فى الشباب بقيت ذكراه عالقة بالقلب رغم تعاقب السنين . فقد نزلت باريس أول ما نزلتها قليل البضاعة من اللغة الفرنسية . وقد فكرت فى الأسابيع الأولى من نزولى بها أن أغادرها إلى لندن . وفى أثناء ذلك كنت جادا فى دراسة اللغة الفرنسية . وكان معلمنا يدرس إلينا الاثار الكلاسيكية وروائع الأدب الحديث . كان يقرأ معنا مسرحيات راسين وكورنى وموليير ، وكان ينصح إلينا أن نذهب لنرى هذه المسرحيات فى الكوميدى فرانسيز ، ضبطا لنطقنا ، ومتاعا بجمال التمثيل . فكان ذلك أول أثر عميق تركته باريس فى نفسى ، وإنى لأذكر إلى اليوم ، رغم انقضاء ما يقرب من نصف قرن ، كيف بلغ إعجابى بالممثلة البارعة مدام برتييه وهى تمثل دور اندروماك ما تجاوز كل حد للاعجاب . وما جعلنى أتردد لأراها ما استطعت إلى ذلك سبيلا . ثم جعلنى أرى المسرح الفرنسى بحق تاجا تفخر به باريس ، وتفخر به فرنسا ، ويثير فى نفس الأجنبى أعظم الاعجاب وأبلغه .

وكنت أخرج يوم الأحد من كل أسبوع أقضى النهار فى ضاحية من ضواحى باريس : فرساى ، أو فيونتينبلو ، أو سان كلو ، أو فنسين أو انجان ليه بان ، أو غيرها من هذه الضواحى الكثيرة الجميلة المحيطة بالعاصمة الفرنسية ، والتى تكتنفها الغابات ، أو البحيرات ، أو يجرى أمامها نهر السين وتجرى عليه زوارقه البخارية الظريفة . وفى هذه النزهات كنا نرى الفرنسيين الذين يخرجون إلى هذه الضواحى يمرحون ويعبثون ، ولا يأبون أن يشاركهم غيرهم مرحهم وعبثهم ، ومن حولهم ابداع هذه الطبيعة بغاباتها وبحيراتها وبنهرها الصغير بالقياس إلى نيلنا العظيم ، فترك ذلك كله فى نفسى أثرا أعمق الأثر .

وفى هذه الاثناء كنت قد بلغت من معرفة اللغة الفرنسية ما أتاح لى أن أقرأ روائع آدابها فتوفرت على ذلك جهدى ، وكنت أقضى فيه جانبا كبيرا من ليلى ومن نهارى ، فكنت أزداد بتوفرى ذاك إلماما باللغة ، وازداد به كذلك حبا لأصحابها ، حب تقدير وإعجاب ، وحب مودة وصداقة .

وآن لجامعة باريس أن تفتح أبوابها ، وللمعاهد المحيطة بها أن تبدأ محاضراتها ، فأقبلت أستمع إلى هذه المحاضرات فاذا بى أسمع جديدا لم أتعود فى مصر سماع مثله ، وإذا البحث الحر أساس هذه الدراسات العليا ، وإذا آفاق جديدة تنفتح أمامى وترينى من ألوان

الحياة جـديدا لم يكن لي به عهد من قبل .

وكذلك جعلت باريس تبعث إلى قلبى وعقلى من روحها ومن حياتها ومن مختلف صور الجمال الساحر فيها ما ثبت فى نفسى محبتها . وما زاد هذا الحب عمقا على الأيام . فلما غبت عنها بعد السنوات الثلاث التى أقمتها بها كنت دائم الحنين إليها ، لكن أحوال الحياة حالت بينى وبين العودة إليها، إذ نشبت الحرب العالمية الأولى بعد سنتين من مغادرتى إياها ، وحبست هذه الحرب المصريين داخل بلادهم إلى مايو سنة ١٩٢٠ . ثم إنى عدت إلى باريس فى سنة ١٩٢٦ وجعلت أتردد بعد ذلك عليها كل عام إلى سنة ١٩٣٠ . ومررت بها لماما فى سنة ١٩٣٧ ، ثم حجزتنى الحرب العالمية الثانية عن العودة إليها إلى سنة ١٩٤٦ . وكثر ترددى بعد ذلك عليها . وبعد كل غيبة عنها وعودة إليها كنت أرى فيها جديدا لا يمحو القديم ، بل يزيده روعة وبهاء ويزيدنى بمدينة النور تعلقا كتعلق الصديق الوفى بصديقه الوفى .

وكذلك كان شأنى مع باريس كشأنى فى كل مرة احببت فيها . ليست النظرة الأولى هى التى تسرحنى . وإنما يسرى الحب إلى قلبى شيئا فشيئا ، رويدا رويدا ، ثم يستقر فيه استقرار اخلاص ووفـاء لا يغـير منهما ما أعرف من هفوات من أحب ونزواتـه ، وكثيرا ماتزيدنى هذه النزوات له حبا ولصداقته وفاء .

باريس مدينة الكتب

فى باريس ظاهرة لم أر مثلها فى ما زرته من سائر العواصم . وهذه الظاهرة أكثر وضوحا فى الحى اللاتينى منها في سائر أحياء العاصمة الفرنسية . فالمكتبات فى شارع سان ميشيل وفى الشوارع المتفرعة منه لايكاد يحصيها العد . وقد ألف المترددون على هذه المكتبات أن يتصفحوا ماشاءوا من الكتب المعروضة فيها أثناء وقوفهم بها قبل أن يقتنوا شيئا منها ، وأذكر من هذه المكتبات بصفة خاصة مكتبة فلاماريون المحيطة بجانب كبير من الجدران الخارجية لمسرح الأوديون . فكثيرا ما كنت أتردد عليها فأجد عندها عددا غير قليل من الشباب يفتحون صفحات الكتب التى لم تفتح بعد ويقرأون فيها . ولعل بعضهم كان يقرأ الكتاب كله ثم لا يشتريه لضيق ذات يده .

وهناك غير هذه المكتبات مكتبات أخرى تبيع الكتب القديمة بأسعار زهيدة . وهذه المكتبات تتألف من صناديق مثبتة فوق الحاجز القائم فى الحى اللاتينى على ضفاف نهر السين وقراءة هذه الكتب القديمة أيسر بطبيعة الحال من قراءة الكتب

الجديدة . فأوراقها مفتوحة كلها ، ويستطيع من شاء أن يتصفح الكتاب كله أثناء وقوفه عند تلك الصناديق .

وأنت واجد ما تبتغيه من الكتب فى الحى اللاتينى لا محالة، أيا كان موضوع الكتاب الذى تبحث عنه .

وقد يسرت لى الاقامة بالحى اللاتينى بعد أيام من نزولى باريس أن أتردد على هذه المكتبات وأن أقف أمام واجهاتها ، وأن أقلب بعض صفحات الكتب المعروضة فيها . فلما بدأت قراءاتى فى الأدب الفرنسى بعد شهرين أو نحوهما من مقامى هناك كان التردد على هذه المكتبات بعض أسباب التسلية عندى . على أننى لم أكن أحتاج لتقليب الكتب حتى أختار ما أطمئن له . فقد كان من حظى أن كان الاستاذ الذى نتلقى عليه اللغة الفرنسية أديبا فكان يرشدنى إلى ما أقرأ فأشتريه . وبعد أشهر أقمت فى بنسيون فى بوليفار سان ميشيل نفسه لم يكن معى به غير صاحبة البنسيون وأستاذ فى ليسيه «لوى لجران» وشاب فرنسى يدرس لليسانس الحقوق ، وكان أستاذ الليسيه يرشدنى كذلك إلى خير الكتب فابتاعها ، وبعد قليل من بدء قراءتى لهذا الأدب الفرنسى الذى لم أكن أعرف منه إلا القليل المترجم يوم نزلت باريس . شعرت بنهمى لهذه القراءة يشتد وتزداد شدته حتى يبلغ منى أن أقضى فيه معظم ساعات الليل والنهار ، وأن أجد فيه متاعا وسعادة ولذة لاتعدلها سعادة ولذة ولايعدلها متاع .

وكان كتاب العصر المبرزون فى ذلك الحين هم أناتول فرانس ، وبيير لوتي ، وبول بورجيه ، وكان قد سبقهم ممن يضارعهم مكانة فلوبير وجي دى موباسان وبلزاك ، هذا إلى طائفة ضخمة من الكتاب والأدباء لا أقصد هنا حصرهم ، أما أدباء القرنين التاسع عشر والثامن عشر من أمثال فولتير وروسو وفكتور هوجو ولامارتين وموسيه ومعاصريهم فلم تكن أسماء أكثرهم غريبة عليّ . وقد اندفعت أقرأ وأقرأ ولا تزيدنى القراءة إلا ظمأ للنهل منها للاستزادة من روائعها ، حتى إذا فتحت الجامعة أبوابها وآن لى أن أعنى بالمحاضرات فيها لم تصرفنى هذه العناية عن متابعة قراءتى فى الأدب .

ولم تكن لذة القراءة هى وحدها دافعى إلى هذا الإدمان إياها ، بل كان ثمة دافع آخر . فأنت فى كل مجلس تجلس فيه ، وفى كل مسرح ترتاده ، وفى كل جماعة تلقاهم كنت تشعر بأنك غريب عن المجلس وعن الجماعة إذا لم تكن متتبعا الحركة الفكرية فى العاصمة وكان أهل المجلس ينظرون إليك عند ذلك وكأنما يعجبون لوجودك بينهم ، بل يعجبون لوجودك فى باريس .

على أنى شعرت بعد زمن أنه لم يبق لى عن إدمان القراءة غنى ، كما يشعر المحب بأنه لا غنى له عن صحبة من يحب . وقد راقنى يومئذ من الأدب الفرنسى عامة ، ومن الأدب

المعاصر خاصة صفتان أخذتا بمجامع نفسى وجعلتا هذا الأدب يملك كل حواسى . هاتان الصفتان هما الوضوح والعمق . فهو كالماء الصافى ، تنظر فيه فإذا هو مبسوط أمامك فسيح الأرجاء فى البحر الذى يحتويه . وهو مع ذلك عميق يذهب بك إلى أغوار الأشياء فى تصويره وفى تخيله وفى قصصه وفى حواره وفى كل ما يتناوله . صحيح أن أساليب الكتاب تختلف وضوحا وعمقا ، كما تختلف اتجاهاتهم فى فلسفة الحياة وفى تصوير أغراضها . لكن لكل واحد منهم فكرته التى لا تستبهم عليك ، ولو أدت بك هذه الفكرة إلى الحيرة وإلى اللاادرية .

يخيل إلىّ أن كثيرين من شبابنا الذين ذهبوا إلى باريس فى الفترة التى قضيتها أنا بها ، أو فيما حول تلك الفترة ، قد استهواهم الأدب الفرنسى . واستهواهم التفكير الفرنسى ما استهوانى ، وشغفوا به كما شغفت أنا به ، ويخيل إلىّ كذلك أن هذا كان شأن كثيرين من أبناء البلاد العربية الذين درسوا فى باريس فى ذلك الحين ، فقد لاحظت من بعد أن هؤلاء جميعا هم الذين تولوا توجيه الرأى الحر فى بلادهم ، فقامت الصحافة وقام التأليف وقامت أستاذية الجامعة وقام البناء الفكرى كله بمجهودهم وعلى أكتافهم ، وأثمر فى مصر وفى غير مصر من البلاد العربية ثمرته اليانعة الدانية القطوف .

ولست بحاجة أن أذكر أسماء هؤلاء والكثيرون من أبناء البلاد العربية يعرفونهم . لكن الشيء الذى طالما تساءلت عنه هو السبب فى استجابة الرأى المثقف فى هذه البلاد العربية للاتجاه الفرنسى فى التفكير والرأى ، أكثر من استجابته للاتجاه الجرمانى أو الانجلو سكسونى مثلا .

فقد درست ودرس الكثيرون من أمثالى اللغة الانجليزية وقرأنا الكثير من كتبها ووجدنا فيما قرأنا المتاع والفائدة . لكن الواحد منا كان إذا درس اللغة الفرنسية بعد ذلك ألفى نفسه أكثر إلفا لها ولآدابها ولصور التفكير فيها ، حتى يحسب الكثيرون أنه لا يعرف لغة أجنبية غيرها ، وقد ألف بعض إخواننا أن يذكروا أن مرجع ذلك إلى أن البلاد التى تشاطىء البحر الأبيض المتوسط يتشابه مزاجها وتتشابه طرق التفكير فيها بحكم الاقليم الذى تقيم فيه ، والبيئة الطبيعية التى تحيط بها . ولهذا الرأى لاريب قيمته . فللبيئة الطبيعية على التفكير الإنسانى الأثر الأول . وما يحيط بالطفل حين يولد يبقى أثره فى نفسه ما عاش . لكنى أعتقد أن ثمة اعتبارا آخر يتصل بهذا الاعتبار لا يصح إغفاله . وهو اعتبار تاريخى يرجع إلى أقدم الحقب . فقد نشأت الحضارة أول ما نشأت فى هذا الجانب الذى نعيش فيه من جوانب العالم حول البحر الأبيض المتوسط . كانت مصر وكانت اليونان وكانت روما ثم كانت

البلاد المسيحية والبلاد الإسلامية المقدسة مبعث هذه الحضارة فى قيامها وفى تطورها . وقد ورث أبناء هذه المنطقة تراث هذا التطور وامتلأت نفوسهم أكثر مما امتلأ غيرهم من الشعوب.

كذلك كان للفن الإيطالى من تصوير وموسيقى ، وللأدب الفرنسي شعرا ونثرا ، وللأديان التي نشأت فى مصر وفى فلسطين وفى بلاد العرب ، أعمق الأثر فى هذه النفوس ، وقد امتد هذا الأثر خلال الأجيال من الأجداد إلى الأبناء فعاون البيئة الطبيعية على تصوير المزاج الانسانى لهذه الشعوب ، فإذا هذا المزاج يتشابه فى نواحى التفكير والشعور والتصوير، وإذا آثار متشابهة تنطبع فيما تنتج هذه البلاد من علم وفن وأدب ، وإذا هى تعيش وكأن بينها من أواصر القربى مايزيدها فى بعض الأحيان ارتباطا ، وما يثير بعضها فى كثير من الأحيان ببعض .

وما أحسب هذه الوراثة يزول أثرها قبل أجيال وقرون ، فقد تأصلت فى هذه البلاد منذ ألوف السنين ، ولابد للاتجاه الإنسانى الجديد نحو حضارة عالمية من أن يستقر أجيالا كذلك ليكون له من الأثر ما يغلب به هذا التراث المجيد الطويل ، وقد أتمنى أن لا يكون ذلك ، وأن يسرع بنا التطور نحو الوحدة العالمية لنكون شعوبا متفاهمين متعاونين متشابهى الميول والمزاج ، لكنى أعتقد أن ذلك غير مستطاع لأن التطور

الإنساني لم يسر في عصر من العصور بمثل هذه السرعة ، ولهذا سيظل للأدب الفرنسي أثره في هذا الجانب من العالم لا ينازعه إلا الذين ورثوا ما ورث أمثالهم من ايطاليين أو يونان أو عرب أو مصريين ، وقد يكون هذا النزاع خيرا ، وقد ينتهي بغلبة الأدب الفرنسي غدا وقد لاينتهي إلى هذه النتيجة ، وسيظل للأدب الفرنسي على أية حال ما له اليوم من مكانة يغار أهله عليها ويبذلون الجهد للاحتفاظ بها .

فرنسا الجميلة وباريس تاجها

لما اختار أناتول فرانس أن يستريح من عناء الحياة بالعود إلى أحضان أمه الأرض قال أحد أصدقائنا: إن خسارة فرنسا بفقد كاتبها العظيم لا تعوض. فهؤلاء الذين يتفوقون فى علمهم أو فنهم بمراحل شاسعة على غيرهم يذرون الناس يتوهمون أن من بعدهم من أبناء فنهم فى الدرجة الثانية، والواقع أنهم إن كانوا فى الدرجة الثانية بالنسبة للنابغة العظيم فهم من الصف الأول فى الدرجة الأولى بالقياس إلى أرباب فنهم عامة. ولولا النابغة العظيم الذى خلفهم وراءه بمراحل لاعترف الكل بأنهم فى الدرجة الأولى وأنهم ممتازون فيها .

وهذه جناية النوابغ من الرجال. وهى كذلك جناية المدن البارعة الجمال على وطنها كله. فأنت حين تذكر فرنسا تبرز باريس أمام تصورك ولا تكاد تتصور من فرنسا غير باريس، وتكاد تحسب أن جمال فرنسا كله اختصت به باريس. والحق أن باريس هى الكوكب الدرى المتألق فى تاج فرنسا . لكن ذلك لايغض من جمال فرنسا كلها، ولا يغض من جمال بعض أرجائها جمالا ممتازا بروعة طبيعته أو ابداع فنه، أو جلال

تاريخه، وغاية الأمر أن الشمس تحجب القمر، وأن ملكة الجمال تحجب من دونها من ذوات الجمال البارع، وأن باريس تنسيك جمال فرنسا فتتخيل أن هذا الجمال تركز كله في عاصمتها البارعة الجمال .

وإني إن نسيت فلن انسى يوم نزولى فرنسا لأول مرة وسفرى من مارسيليا بقطار الليل إلى باريس. كان الظلام مخيما على كل ماحولنا، وكان القطار ينهب الأرض إلى غايته، ونحن نحاول النوم فلا نكاد نظفر منه بطائل. وهزتنى رجة القطار مرة من غفوتي خيل إلى أن ضوء النهار بدأ يتسرب من خلال النافذة التى تجاورني، فأزحت ستارها فصدق النهار الوليد ظني. لم تكن الشمس قد بزغت بعد، لكن إسفار الصبح أتاح لى أن أرى ماحجبه الليل. ماهذا. انه شيء لم آلف مثله في مصر. إن الأرض لترتفع من حولنا وتنخفض بما عليها من زرع لاأدرى ماهو، ويتابع ارتفاعها انخفاضها حتى تفنى دون الأفق. وهانحن نخترق نفقا يعلونا الجبل من فوقه فتعود الظلمة إلينا وكأنما غلب الليل النهار من جديد. ونتخطى النفق الى منظر يختلف جد الاختلاف عن المنظر الذى رأينا قبل النفق، فيزيدنى ذلك يقظة ويطرد عنى كل معني من معانى السأم والملال . وكذلك بقيت حتى بلغت باريس. فلما حدثت

بعض أصدقائي المصريين الذين سبقوني سنوات إلى فرنسا قال لي أحدهم: وماذا رأيت. إن الطريق من مرسيليا إلى باريس أقل طرق فرنسا جمالا. ولو أنك ذهبت إلى أواسط فرنسا، أو إلى شرقها أو إلى جنوبها، أو إلى الريفيرا، إذن لعبدت الجمال ولما كان ما تتحدث عنه الساعة غير وهم من جمال .

وصدق صاحبي. لقد ذهبت في أوائل الربيع من سنة ١٩١٠ الى الريفيرا مارا بأرل ونيم ومونبلييه وبشاطىء البحر الأبيض من مرسيليا إلى مونت كارلو. وفي هذه الرحلة القصيرة الطويلة كنت أنتقل من روعة الى روعة، ومن جمال إلى جمال. ولم يكن جمال الطبيعة وحده هو الذي يمسك بالنظر، بل كان جمال الفن في بعض متاحف المدن الصغيرة أشد لفتا للنظر وامساكا به. أذكر الآن ، وقد مضى على ذلك العهد خمس وأربعون سنة، يوما كنت فيه بمتحف في إحدى هذه المدن الصغير فاستوقفتني صورة عذراء أمامها مستتيب. ما أبدع صورة العذراء في طهرها وبراءة نظرتها، وما أروع هذا المستتيب الذي يستغفر لذنبه فيرى في براءة نظرة العذراء ما يدل على أنها لا تعرف له خطيئة. لقد بقيت أحدق بهذه الصورة ساعة أو أكثر من ساعة لا أدرى. بقيت أحدق بها حتى جاء حارس المتحف ينبهني إلى أن المتحف موشك أن

يقفل أبوابه، ويطلب إلى أن أغادره. لقد ارتسمت هذه الصورة البارعة في أعماق نفسي فلم أنسها قط ولن انساها .

وكما يحدثك الفن في المتاحف بجمال لا يقل روعة عما تحدثك به الطبيعة في ابداعها كذلك يحدثك التاريخ في أرل، وفي نيم، وفي غيرهما من المدن حديثا ممتعا قل نظيره في غير فرنسا. فلما ذهبت إلى الريفيرا الفرنسية حيث يلتقي البحر والجبل فتقوم على سفح الجبال البلاد المطلة على موج البحر، ومن بينها نيس، وكان، وموناكو، رأيت لونا جديدا من جمال الطبيعة يبهر اللب. فزرقة البحر الأبيض المتوسط بديعة حقاء وتعاريج شواطئه وقيام الجبال حول هذه التعاريج، والتقاء هواء البحر وهواء الجبل، كل ذلك يبعث الى صدرك وإلى حواسك وإلى شعورك انتعاشا يضاعف قيمة الحياة عندك، ويزيدك حبا لها ومتاعا بها .

وبعد عام من زيارتي هذه المناطق زرت وسط فرنسا فرأيت في قصور اللوار تاريخا، وفي خصب هذه المنطقة حديثا غير حديث الريفيرا، وغير تاريخ أرل ونيم، كما رأيت في رحلة أخرى منطقة كليرمنت فيران روايا. فأما الألب الفرنسية في منطقة السافوا العليا فيما حول أنسي فهي الشعر الناطق بأغاريد الطبيعة في أحلى ألحانها وأكثرها امتاعا للنظر والقلب والجوانح.

لن يستطيع حديث قصير كهذا الحديث أن يرسم صورة مهما تكن موجزة من جمال فرنسا. ولست أزعم من ذلك أنني زرت فرنسا كلها، أو أنني زرت معظمها، وغاية ما أقول إنني زرت الكثير من جوانبها الجميلة، وقرأت الكثير كذلك عن جوانبها الأخرى، وشعرت أن الطبيعة قد حبت هذه البلاد بل حابتها بما أسبغت عليها من جمال وبهاء، وأن الانسان عاون الطبيعة وهذبها فزاد هذا الجمال رقة وروعة، وحببه إلى نفوس الذين يزورونه جميعا .

مع هذا جنت باريس على هذا الجمال لأنها جمعت فى متاحفها أكثر مما جمعت متاحف فرنسا كلها، وجمعت فى ضواحيها وغابات هذه الضواحى بدعا من الطبيعة إن لم يغلب جمال السافوا أو الريفيرا فله مع ذلك طابعه الخاص به، وجعلت من نهرها تحفة فنية ليست لنهر غيره من أنهار فرنسا روعتها، لأن الفرنسيين وهبوها من محبتهم ومن جمالهم ومن رقتهم وظرفهم ماجعلها محببة الى كل قلب يحب الجمال، وإلى كل عقل يحب العلم والتفكير .

أنا أعلم أن بعضهم يتهمنى بالمبالغة فى محبة باريس. فإن يكن ذلك حقا فالذنب فيه ليس ذنبى، ولكنه ذنب باريس. أتراك

إذا أحببت قطعة بارعة من الموسيقى، أو مسرحية رائعة، أو قصة أدبية جميلة، أتكون ملوما فى حبك هذا . وباريس قد جمعت كل ما عرفه الإنسان من جمال ومن علم ومن فن، وجمعت من هذا الجمال أبدعه وأبهاه. فليعذرنى اللائمون وليلوموا باريس أو فليحبوها كما أحبها .

في باريس مع أولادى

أينا الملوم: أنا أم باريس أم أن لا لوم على أينا، وأن الظروف كانت أقوى منا كلينا وأن هذه الظروف جعلتنى أضيق ذرعا بباريس وإن سعدت بالأيام القليلة التى أقمتها بها لأنى كنت فى خير جماعة وأحبها إلى قلبى. مهما يكن من شىء فقد كدت أضيق ذرعا بباريس رغم حبى إياها لأنها حوت خير الذكريات من أيام شبابى، ولأنها كانت لى نعم العون فى محنة أصابنى القدر بها، ثم عوضنى الله عنها خير العوض .

كدت أضيق ذرعا بباريس لأنها لقيتنى حين نزلتها بجو مكفهر ومطر هتون، ولأنها أنذرتنى أول ليالى بها ببرد قارس يجب أن أحتاط له فى الليل وفى النهار. ثم لم تمض على ذلك ست وثلاثون ساعة حتى إذا الجو انقلب حارا شديد الحرارة، واستمر كذلك إلى أن غادرتها من تسعة أيام من مقامى بها. وكانت مشاهد باريس بالليل تعوض النازل بها عن قيظ نهاره إذا كان قائظا. لكنى نسيت حين نظمت رحلتى أن شهر أغسطس شهر ميت فى باريس. تقفل فيه معظم مسارحها ولا يبقى مفتوحا بها إلا المسارح الصغرى، ومسارح الرقص والغناء التى يهوى إليها السائحون الذين لا يعنون بالمسرح من

حيث هو المسرح، بل لقد كانت الأوبرا نفسها مقفلة، وكانت الكوميدى فرانسيز مقفلة، وكان مسرح الأوديون مقفلا، وكانت المسارح التى تمثل ما يصور المزاج الفرنسى والتفكير الفرنسى مقفلة كلها. فإذا أنا ضقت ذرعا بقيظ النهار، ولم أجد من مسارح باريس مايسليني عن هذا القيظ ساعات الليل فمن حقى أن ألوم باريس، وإن كان من حقها كذلك أن تلومنى لأننى أنا الذى اخترت أشد شهورها حرارة حتى يفر الفرنسيون منها إلى مصايفهم، وحتى ليقفل الكثير من مطاعمها كما يقفل الكثير من مسارحها أبوابه، وإن بقيت متاجرها جميعا مفتوحة للسائحين .

وزادنى غيظا من باريس أننى قررت أن أذهب آخر ليلة لى بها لأشهد مسرحية للكاتب الاسكندنافى الكبير (ابسن) فى مسرح من مسارح حى مونبارناس مقتنعا بأننى سأجد فى مشاهدتها من الغبطة ما يعوضنى عما فاتنى من مشاهدة المسارح الكبرى، فإبسن كاتب مبدع عميق التفكير حسن العرض إلى غير حد، فلما سألت فى ذلك اليوم أريد أن احجز الأماكن التى نذهب إليها قيل إن المسرح معطل لا يعمل يوم الأحد. واعتضت عن هذه المسرحية بمسرحية أخرى فاذا هى فى نظرى أدنى إلى التهريج، وإن صفق شهودها من

الفرنسيين تصفيقا حادا لمواضع كثيرة منها مما جعلنى أحزن لأننى لا أعرف العامية الفرنسية، ولو أننى عرفتها لطربت طرب القوم ولصفقت تصفيقهم .

ولقد شهدت خلال الأيام التسعة التى أقمتها بباريس أربع مسرحيات أعجبت بإحداها غاية الاعجاب، لم تكن المسرحية تصور فكرة، بل لعلها لم تكن مسرحية بالمعنى المفهوم فى المسارح ذات الصبغة الجدية، بل كانت عرضا فيه الموسيقى وفيه رقص وفيه غناء. لكنّ هذا العرض كان بارعا كل البراعة وكانت الملابس فيه متقنة رشيقة، وكانت الأصوات حلوة تلذ الأذن حقا. وقد تجلت أمامى روح باريس فى هذا العرض البارع: تجلى فيه الذوق الفنى كأحسن مايمكن أن يتجلى، هذا على أننى لست من هواة الاستعراض المسرحى. أما وقد أعجبتنى هذه المسرحية إلى هذا الحد فيخيل إلى أنها كانت من خير مايعرض فى باريس .

على أن مافاتنى من مشاهدة مسارح باريس قد وجدت عنه خير العوض بزيارة بعض ضواحيها القريبة وقد زرت فى خير رفقة ضاحية روبنسون. وكان أحد زملائنا فى هذه الرفقة ممن درسوا الفنون الجميلة بباريس بعد أن أتموا دراسة العمارة بمصر. وكان قد أقام فى روبنسون عدة أشهر أول مجيئة طالبا

إلى باريس. وكم سرنى حرصه على أن يجد البيت الذى كان يقيم به إذ ذاك، وكم ابتسمت حين رأيته يقف عند بيت يتردد أكان ذلك هو البيت الذى أقام به فى ذلك العهد، منذ أكثر من ثلاثين سنة، وعجبت كيف تهوى نفوسنا إلى منازل شبابنا وكيف نحرص الحين بعد الحين على أن نقف أمامه وأن نطيل النظر إليه. نحن لا نرضى أن نقيم اليوم فى هذه المنازل، ونراها غير كفيلة بطمأنينتنا وراحتنا. لكننا مع ذلك نشعر حين نقف أمامها بمعنى من معانى القدسية لعل مرجعه ما وصلنا إليه من خير أو شر .

ولم أحاول حين زرت «سان كلو» أن أبحث عن البنسيون الذى أقمت به فيها عدة أشهر من حياتى طالبا بباريس، هربا من ضجة باريس ومتاعبها، لكننى وقفت أمام البيت الذى كنت أقيم به فى الحى اللاتينى وأطلت النظر إليه وحييته اعترافا بما له على من فضل أبتسم كلما ذكرته مغتبطا به راضيا عنه .

فقد حببت إلى رفقتى فى هذا البيت دراسة اللغة الفرنسية لأن زملائى به لم يكونوا يزيدون على اثنين مع صاحبة البنسيون. أما أحدهما فكان أستاذا للأدب الفرنسى فى إحدى المدارس الثانوية وأما الآخر فكان شابا من أسرة فرنسية كريمة فى شمال فرنسا يدرس الحقوق بباريس. وكان أستاذ

الليسيه يختار لى الكتب التى أقرؤها فكان اختياره هذا خير عون لي على معرفة هذه اللغة ومعرفة آدابها إلى حد كبير ولى فى هذا البيت قصة طريفة. كنا فى الأيام الأخيرة من السنة الدراسية، وكان الامتحان شفويا. وكان الطالب يختار إحدى فترتين لامتحانه. وفاتنى أن أختار الفترة الثانية لأتم استذكار المواد التى سأمتحن فيها. واننى لمجد فى مذاكرتى إذ جاءنى إعلام من كلية الحقوق بتحديد يوم لامتحانى فى الفترة الأولى. هنالك أسقط فى يدى، فلو أننى تقدمت فى هذه الفترة الأولى لكان حظى من النجاح قليلا جدا، ماذا أصنع؟ ذهبت إلى الكلية وشكوت أمرى فقيل لي إن غاية مايستطيعون أن يؤجلوا امتحانى لنوفمبر. إذن تضيع على إجازة الصيف، وكنت معتزما أن أزور خلالها انجلترا وسويسرا. عند ذلك استشرت أستاذ الآداب الفرنسية فقال لى إن طبيبهم يستطيع أن يمنحني شهادة بأننى كنت مريضا فلم أتمكن من الاستذكار، وأن تأجيل امتحانى إلى ما بعد الصيف يضيع علي فترة الراحة التى تكفل شفائي وأشار على بأن أرفق هذه الشهادة بخطاب لوكيل المعارف ألتمس فيه أن تقدم الكلية امتحانى للفترة الثانية، أى فى شهر يوليو إلى منتصف يوليو، وفعلت، أعطانى الطبيب الشهادة التي طلبتها وأرفقتها بطلب للوزير،

ثم لم تمض على ذلك ثمانية أيام حتى إذا كلية الحقوق تبعث إلىّ بأن امتحانى تحدد موعده فى الأيام الأخيرة من شهر يونيو، واغتبطت لذلك أشد الاغتباط وأديت الامتحان في موعده وأبرقت لوالدى بنجاحى.

ألا تستحق هذه الأمور وأمثالها أن يقف الإنسان أمام هذه المنازل يحييها، بل ألا تستحق أن يعود الإنسان فى كهولته للمقام بها ذكرا لأيام الشباب. أقول هذا فأذكر فندقا أمام السوربون أقمت به شهورا أيام الدراسة، فلما عدت بعد ذلك بعشرين سنة أو نحوها إلى باريس وكان المرحوم شوقى بك أمير الشعراء فيها أردت زيارته فعلمت أنه ينزل بهذا الفندق الذى كنت أنزل فيه أيام مجاورتى السوربون طالبا. قلت يومئذ فيما بينى وبين نفسى: هذه روح الشاعر. إنه يريد أن ينزل حى الشباب، فى فندق الشباب، ليوحى إليه هذا الشباب معانى لاتوحيها أحياء السائحين الذين يلتمسون الراحة والنعمة، والتى لا يعرفها الشباب ولا تعرف هى الشباب.

والحق أننا نحن المخطئون وأن شوقى قد كان على حق إذ ينزل الحى اللاتينى على الشاطىء الأيسر لنهر السين، وحين ينزل على مقربة من السوربون ومن كليات جامعة باريس ومن الكوليج دى فرانس، فهذا الشاطىء الأيسر يحتوى تاريخ

باريس من أقدم عهودها، فيحتوى إلى جانب ذلك حياة العقل والقلب والروح فى باريس قديما وحديثا. فعلى مقربة من هذا الفندق الذى كان ينزل به أمير الشعراء بل إلى جواره تترامى صفوف من المكتبات تجد فيها كل ماتطمع أن تقف عليه من فن وعلم وأدب. وهناك تقع حديقة اللوكسمبورج الجميلة بنظامها وحسن تنسيقها، الجميلة أكثر من ذلك بزوارها من الشباب ومن الأطفال ومن الأمهات الحادبات على فلذات أكبادهن. وأنت لا تجد في هذا الحى من المتاجر ماتجده على شاطىء السين الأيمن، بل تجد به المدارس والمعاهدت والكليات يجاور بعضها بعضا وتتحدث كلها عن الثقافة الفرنسية، وعن التفكير الفرنسي، وعن الفن الفرنسى، وعن كل ماجعل لفرنسا فى أعز أيامها مكانتها وسلطانها. وأنت ترى به من المتاحف أكثر مما ترى على الشاطىء الأيمن، وإن كانت متاحفه ضيقة بالقياس الى متاحف ذلك الجانب. وأنت ترى فى شبابه فورة الروح والفكر تطلعا الى مستقبل أحسن وإلى عالم أفضل، إنه الرأس المفكر من فرنسا كلها، قد يكون رأسا منكوش الشعر كرأس (أينشتاين)، ولكنه يحتوى ذكاء كذكاء هذا العالم، وفنا كخير ماأنتج أرباب الفن، وحياة عقلية متوثبة يبدو على وجوه أصحابها الألم لأنهم يريدون أن يحققوا أمالا كبارا، وقد

تستعصى عليهم هذه الآمال الكبار.

وأشهد لقد استمتعت بهذا الجانب الأيسر من باريس فى الأيام القليلة التى قضيتها بها، وإن لم يمنعنى هذا المتاع من أن أستمتع كذلك بأجمل مافى الجانب الأيمن. وأجمله عندى هذا الطريق الرائع الممتد من اللوفر عبر التويلرى إلى ميدان الكونكورد وإلى قوس النصر، فقد عاهدت نفسي أن أقطع هذا الطريق سعيا على القدم كلما زرت باريس. وكم سعدت يوم بررت بهذا العهد قبيل مغادرتى باريس لأننى كنت أقطعه فى خير صحبة وأحبها إلى نفسى صحبة أبنائي الأعزة البررة .

مع ذلك ضقت ذرعا بباريس وبقيظها، وزادنى غيظا منها أن كانت الأخبار ترد إلى من مصر بأن الصيف بها لطيف بأبنائها. فهل ترى يتغير جو العالم الطبيعي كما يتغير جوه السياسى فيصبح وطننا العزيز مصيفا ظريفا كما أنه مشتى بديع ؟

وغادرت باريس وأنا أشد ماأكون تعلقا لإطالة مقامي بها. لكني كنت أشد تعلقا لشهود المؤتمر البرلمانى بهلسنكى. ولذلك طرت إليها فى الثانى والعشرين من أغسطس إذ ودعنى أبنائى وودعتهم بمحطة الانفاليد .

ما رأى علماء اللغات

وصلت هلسنكي منتصف الليل بين يومي ٢٢ ، ٢٣ أغسطس الماضي [١] وفهمت أن جو المؤتمر البرلماني الدولي الذي سينعقد بهذه المدينة تشوبه سحب لا تتفق مع ما يعلقه العالم على اجتماع رؤساء الدول الأربع - أمريكا وانجلترا وروسيا وفرنسا - من آمال كبار في السلام، و ذهبت إلى فندق (فاكونا) أستريح فيه بقية الليل. فلما أصبحت جعلت أفكر فيما عساى أصنع. أنا لا أعرف لغة البلاد ولا أعرف المدينة التي نزلتها ولم أر منها شيئا في ضوء الليل حين انتقلت من الطائرة إلى الفندق، أتراني أستعين برجال الفندق ليدلوني، أبت ذلك كبريائي فخرجت أدور حول الفندق لعلي أهتدي إلى بناء البرلمان، أو الى البنك الذي حول بنك مصر إليه نقودي، لكنني سرعان مارأيتني ضللت طريقي ولم أعرف كيف أعود الى الفندق أستعين برجاله .

ورأيت قبالتي بناء فخما خلته البرلمان فاتجهت نحوه ودخلت بابا كبيرا من أبوابه، لكنني سرعان ماأدركت أنه لا يشبه أيا من البرلمانات التي رأيت في حياتي - وماأكثر مارأيت

---

(١) ١٩٥٥ .

منها – وأنه لا يمكن أن يكون متحفا ولا كلية للحقوق أو لغير الحقوق. وسألت غير واحد ممن صادفتهم عن البرلمان فإذا كلمة البرلمان لا تعنى عندهم شيئا وإذا هم لايفهموننى ولا أفهمهم، فأنا أخاطبهم بالفرنسية تارة وبالانكليزية أخرى، وهم لايعرفون الفرنسية ولا الانجليزية، ولعلهم لا يعرفون غير الفنلندية وهى لغة لاتشبه واحدة من اللغات التى تنسب أصولها إلى اللاتينية .

وعدت إلى ناحية الفندق وأنا ألعن الجهل. جهلى أنا، وجهل أهل البلاد، وألفيت تحت الفندق كله – وهو كبير جدا – مشيرا كتب عليه اسم (سوكدس) فأخذت أدخل أحد أبوابه لأخرج من باب آخر ثم لاأجد أحدا يفهمنى على الإطلاق والباعة فيه– وكلهم بنات أو سيدات – لايعرفون من الإنجليزية إلا ألفاظا محدودة تعاونهم فى تجارتهم. وأنا لا أريد أن أشترى شيئا ولاأزيد على أن ابتسم حين أرى إحدى البائعات تشير بأصابعها علامة المائتين أو الخمسمائة تساعد بهذه الإشارة على فهم عبارتها صعبة الفهم – فلما يئست من أن أجد من يعيننى على ماأبتغى خرجت إلى الطريق مرة أخرى، ولم تمض دقائق حتى إذا السماء تظلم، وإذا المطر يهتن مدرارا، فأسرع أريد أن أجد باب الفندق أحتمى به فلا أعثر عليه .

وأسأل المارة قائلا (فاكونا) فلا يزيد السائر أو السائرة على أن يهز كتفه أو تهز كتفها للدلالة على أنها لا تفهم رطانتى وأخيرا فهمني أحدهم ودلنى على باب الفندق فدلفت إليه، وصعدت توا إلى طابقه الأعلى حيث يوجد المطعم فتناولت غذائى وأنا من هذا الفشل الذريع الذى صادفنى فى حيرة وضيق .

وذكرت ماحفظنا صغارا من أن كل لسان إنسان، وأن كل لغة شعب وأمة، وتأسفت على أننى لا أعرف إلى جانب العربية غير الانجليزية والفرنسية، ثم حمدت الله على أننى أعرف هاتين اللغتين وإن لم تسعفانى فى هذا اليوم الأول من أيامى بهلسنكى بأى طائل .

بـــرج بـــابـــل

أدى بى جهلى اللغة الفنلندية إلى أن حبست نفسى فى غرفتي بقية يوم الثلاثاء أقرأ تقرير السكرتير العام للاتحاد البرلماني الدولي، فلما أصبحت يوم الأربعاء لم يكن لى بد من الاستعانة برجال الفندق ليدلوني على البرلمان حيث ينعقد المؤتمر، وعلى البنك الذى حولت إليه نقوى، فالجنيهات الانجليزية القليلة التى معى قد تكفينى ثلاثة أيام أو أربعة، وبخاصة لأننى لا أدفع أجر الفندق إلاّ عند سفرى من هلسنكي، ودلنى أحد رجال الفندق مشكورا على بناء البرلمان،

وسألته عن البناء الضخم الآخر الذى دخلته أمس فاذا هو محطة سكة الحديد.

والبرلمان قريب من الفندق، لذلك اتجهت نحوه وسرعان ما تيقنته إذ رأيت أعلام الدول المشتركة فى المؤتمر ترفرف أمامه. ودخلت وسألت عما عندهم باسمى فأعطونى حافظة بها أوراق المؤتمر ، وخطابا مرسلاً إلى من مصر .

ولم ألبث وأنا أدور فى هذا البهو الفسيح أن التقيت بأشخاص أعرفهم وأن تقدم إلىّ أشخاص حيونى بالعربية أما الأولون فهم من وفود أوروبية مختلفة. وأما الآخرون فهم من أبناء الدول العربية، وبينهم أبناء السودان الذى اشترك بستة من أعضاء برلمانه فى هذا المؤتمر. عند ذلك شعرت بأن نطاق العزلة الذى كان مضروبا حولى أمس تحطم، وبأننى أستطيع، وأنا المصرى الوحيد فى هذه المدينة، أن أعتمد على صداقات آنس اليها واطمئن إلى قدرتها على معاونتى فيما أريد أن ألتمس عندها المعاونة فيه لكنى ألفيت هذا البهو وكأنه برج بابل، فأنت تسمع فيه لغات عن يمينك ويسارك ومن أمامك ومن خلفك لا اتصال بينها على الاطلاق: مخارج ألفاظها مختلفة، ونغماتها مختلفة، وطرق التعبير بها مختلفة، وكل شىء فيها مختلف أشد الاختلاف، أنت تسمع الروسية. والألمانية،

والأنجليزية والأمريكية، والايطالية، وماشئت من لغات قد تجيدها وقد لا تجيدها. لكن هؤلاء جميعا برلمانيون وأكثرهم يعرف الانجليزية أو الفرنسية، وإن بقى معظمهم لا يتحدث إلا لغة بلاده .

جمعتنى المصادفة ببعض إخوان من بلادنا العربية يتحدثون إلى نائب روسى لا يعرف غير الروسية، وتترجم بينهم وبينه سيدة روسية تعرف الانجليزية بمقدار. وشاركت معهم فى الحديث وجعلت السيدة تترجم ما أقول. ولم يكن هذا النائب الروسى، يقول شيئا ذا بال، ولم يكن أينا يتحدث فى السياسة العالمية، بل كنا نتحدث عن فنلندا وظرف أهلها لولا جهلهم كل اللغات الأجنبية إلا الأقلية منهم وكل الذى عنى به اخواننا أن يسألوا النائب الروسى متى يفتح الستار الحديدى أبوابه للأجانب كى يزوروا روسيا، وكان جوابه أن روسيا تفكر الآن تفكيرا جديا فى أن تكون بلادا سياحية وأنها تتصل بالعواصم الكبرى لهذا الغرض، لأنها تريد أن تتصل بالعالم وأن يتصل بها العالم ليكون هذا الاتصال وسيلة للتعايش السلمى بين الشعوب .

وبعد أن انصرف هذا النائب الروسى قال أحد اخواننا العرب فى ابتسامة: أفلح إن صدق .

فى البلطيق حول هلسنكى

فى العالم عجائب يقال إنها سبع، وفى مقدمتها الأهرام وأبو الهول. وهذه من صنع الإنسان، وفى العالم كذلك عجائب من خلق الله جلّ شأنه. وهى لا تعد ولاتحصى، ومن هذه العجائب ظهور الشمس فى منتصف الليل. والبلاد الشمالية هى التى تبدو فيها هذه الظاهرة العجيبة. كما تبدو كذلك فى البلاد الجنوبية وفى شمال فنلندا بلاد ترى الشمس فى منتصف الليل أول أيام الصيف، وأحسبها لا ترى الشمس أبدا أول أيام الشتاء .

وليست هذه هى العجيبة الوحيدة فى فنلندا، فهى بلاد صغيرة لا يبلغ سكانها أربعة ملايين، ومع ذلك تذكر الإعلانات السياحية التى تنشرها أن بها ستين ألف بحيرة. ولم يسعدنى الحظ بأن أتجول فى داخل البلاد لأرى هذه الألوف المؤلفة من البحيرات، ولأرى الغابات الكثيفة التى تكتنفها. ففنلندا بلاد الغابات، ولذا تصنع من أخشابها الورق وتصدره إلى أنحاء العالم. لكن الحظ أسعدنى فشهدت منظراً آخر عجبا. فكما أن بفنلندا ستين ألف بحيرة، ففيها كذلك، فيما يقول أهلها، ستون ألف جزيرة منتشرة على شواطئها. وقد نظمت الشعبة

البرلمانية الفنلندية فيما نظمت سياحة بحرية على ظهر باخرة تكبر بواخرنا النيلية الكبيرة ليرى أعضاء المؤتمر البرلمانى ومرافقوهم ما ينتشر فى البلطيق حول هلسنكى من الجزر التى يتعذر عدها لكثرتها .

وليست هذه الرحلة البحرية أبدع ما نظمت الشعبة البرلمانية الفنلندية لمسرة أعضاء المؤتمر بل نظمت مشاهد غيرها سأتكلم عن بعضها من بعد، لم يمنعها من ذلك ماذكره لورد ستانسجيت فى حفلة الافتتاح من أن المؤتمر البرلمانى ليس منظمة سياحية لمسرة الأعضاء، والشعبة الفنلندية فيما صنعت من ذلك قد سارت على غرار الشعب البرلمانية الأخرى فى البلاد المختلفة. فليس طبيعيا أن يعمل البرلمانيون نهارهم ثم لا يجدون آخر النهار أو أثناء الليل تسلية تسرى عنهم مشقة العمل، وتتيح للذين لا يعملون منهم فرصة تشغلهم فلا يضيقون بالفراغ الذى يحيط بهم .

وكانت الرحلة البحرية لمشاهدة الجزر المحيطة بفنلندا ممتعة حقا، استمرت من الساعة الثانية بعد الظهر إلى ما بعد الساعة السادسة. وقد شاهدنا فيها من الجزر ماتعذر احصاؤه كما سبق القول . وسألت بعض الفنلنديين أمسكونة هذه الجزر ؟ .. فقالوا: إن بعضها القريب من هلسنكى به مصايف لذوى اليسار، وإن البعض الآخر به منازل أو أكواخ

إن شئت للصيادين الذين يلتمسون رزقهم فيما يستكن فى جوف البحر من الأسماك المختلفة .

وكانت بعض الأحاديث التى دارت أثناء هذه الرحلة البحرية ظريفة ممتعة. جمعتنى مائدة الغداء بالباخرة بأحد أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكى وكانت معه زوجته، وبوزير الدفاع فى وزارة العمال البريطانية، وقد تحدثنا فى شئون مختلفة منها أن البرلمانى البريطانى ذكر للشيخ الأمريكى أن الذين يحضرون المؤتمرات البرلمانية من الأمريكان أسعد حظا ممن يحضرونها من البريطانيين، لأن البرلمان الأمريكى يدفع نفقات الزوجة التى تسافر مع زوجها، وأجابه الشيخ الأمريكى، كلا ياسيدى، صحيح أننا نحضر على طائرة أمريكية ولا ندفع أجرا عن سفرنا عليها، وأن زوجاتنا لا يدفعن أجرا إذا حضرن معنا لأن الطائرة تتناول أجرها من خزانة الدولة إن لم تكن مملوكة لها، لكننا ندفع نفقات الفندق لهن كما ندفعها لأنفسنا، وهن يعاونّ أزواجهن على الأقل فى غسل الملابس، والتفت إلى زوجته فابتسمت وقالت: هذا إن لم يحضر الزوج ولم تحضر الزوجة ملابس تكفى الرحلة كلها من غير حاجة إلى غسلها .

ولما تتابعت ساعات الرحلة وزادت على الثلاث صعدت إلى صالون الباخرة فألفيت اخواننا البرلمانيين العرب والسودانيين

مجتمعين به وقد بدأوا يضيقون ذرعا بتشابه مايرون من ماء وسماء وجزر، فلما أرست الباخرة من جديد بهلسنكي أسرع أعضاء المؤتمر إلى البرلمان يتمون أعمال اليوم، لكن هواء البحر مال بالكثيرين منهم إلى الدعة بل إلى النوم ولذلك لم يتموا في هذا المساء شيئا يذكر .

المسلمون فى فنلندا

ومن عجائب مافي فنلندا أن بها عددا من المسلمين قيل لى إنهم يبلغون التسعمائة، يقيم ثلاثمائة منهم بهلسنكي ويتفرق الباقون في بلاد أخرى. وإنما زال عجبى حين ذكرت أن في روسيا وهى تجاور فنلندا، عددا من المسلمين غير قليل، وأننى زرت في بلاد المجر من نحو عشرين سنة زاوية يقيم بها مسلمو المجر صلواتهم رغم تواضعها وضيقها .

والتقيت ببعض هؤلاء المسلمين الفنلنديين فى حفلة أقامها الوفد العراقى بالمؤتمر، وذكر لى بعض اخواننا العرب أنهم زاروا المكان الذي يقيم فيه هؤلاء المسلمون من أهل هلسنكى صلواتهم فألفوه مكانا متواضعا غاية التواضع. وتحدثنا في ذلك إلى زعيم هؤلاء المسلمين من أهل هلسنكي وسألناه ما لهم لا يقيمون مسجدا تؤدى فيه الشعائر فقال إنهم فكروا في ذلك تفكيرا جديا، وأنهم عرضوا أمره على الحكومة الفنلندية، وذكروا أنهم على استعداد لهدم المكان المتواضع الحالى وإقامة

مسجد محترم مكانه، وأباحت لهم الحكومة الفنلندية أن يفعلوا وذكرت أنها مستعدة لمعاونتهم بمبلغ خمسة آلاف من الجنيهات الاسترلينية. وأضاف السيد طاهر أنهم عرضوا الأمر على المهندسين فتبينوا أن إقامة المسجد تتكلف مائة ألف جنيه، وأن المسلمين المقيمين بهلسنكي، بل المسلمين المقيمين بفنلندا كلها، وعددهم لا يبلغ الألف، يضيقون بالاكتتاب فى هذا المبلغ كله، خصوصا أن كثيرين منهم ليسوا من ذوى اليسار، وإن كان بعضهم من التجار الموسرين، والسيد طاهر نفسه من كبار تجار الفراء بهلسنكي .

وكان السيد عبد الله بك اليافى، رئيس وزراء لبنان السابق، حاضرا هذا الحديث فلما سمعه قال بالعربية لاخواننا الملتفين حولنا من أبناء العراق وسوريا والبلاد العربية المختلفة: ولم لا يتعاون المسلمون فى بقاع الأرض على إقامة هذا المسجد وأيدت أقواله هذه وأيدها سائر الحاضرين واتفقنا على أن أشترك أنا مع السيد اليافى فى دعوة العالم الإسلامى للاشتراك بمبلغ خمسين ألف جنيه يفتح لها حساب خاص ببنك مصر لاقامة هذا المسجد بفنلندا، على أن يقوم المسلمون الفنلنديون بالاكتتاب بباقي المبلغ. وعرضنا هذه الفكرة على السيد طاهر فاغتبط بها أشد الاغتباط وقال إنكم إذا اكتتبتم من العالم الإسلامى بمبلغ خمسين ألفا ودفعت حكومة فنلندا

خمسة آلاف سهل علينا أن نجمع من المسلمين الفنلنديين ما يكمل المائة ألف المطلوبة لاقامة المسجد وأقمناه على نحو يسركم إذا جئتم إلينا هنا مرة أخرى .

وفى يقينى أن جمع مبلغ خمسين ألف جنيه ترصد فى حساب خاص ببنك مصر لهذا الغرض، والاشراف على اقامة المسجد من أيسر الأمور. وانى لأرجو متى عدت إلى مصر أن أتفاهم مع دولة عبدالله بك اليافى على الطريقة التى ندعو بها العالم الإسلامى للاشتراك فى هذا الاكتتاب وللاشراف على إقامة المسجد .

وقد أدى بنا هذا الحديث إلى أن سألنا السيد طاهر وبعض اخوانه المسلمين الفنلنديين عن أصلهم وكيف جاءوا إلى هذه البلاد. وكان جوابهم أنهم من أصل تركي، وأن أكثرهم يتكلم التركية إلى الآن وإن انقطعت كل صلة بينهم وبين تركيا، وأنهم متمسكون كل التمسك بشعائر دينهم، وأن أحدا من رجال الحكم لا يعترضهم فى القيام بهذه الشعائر، لأن فنلندا بلد حر، حرية العقيدة وحرية الرأى وكل صور الحرية مكفولة فيها لأبنائها جميعا على اختلاف مذاهبهم أو الجنس الذى انحدروا منه، وأنهم لذلك سعداء كل السعادة بحياتهم فى هذه البلاد القاصية، لأن الحرية التى يتمتعون بها فيها تكفل لهم

كل رعاية وكل مايطمع الإنسان فيه من سعادة .

صور فنلندية

ذكرت أن الشعبة البرلمانية الفنلندية نظمت مشاهد عدة للترويح عن أعضاء المؤتمر. ولم تغرنى الدعوات للطعام والشراب يشترك فيها الأعضاء وزوجاتهم ويشترك فيها عدد كبير من رجال البرلمان الفنلندى وزوجاتهم كذلك، فمثل هذه الحفلات فى فنلندا وفى غير فنلندا تكون أشبه شىء ببرج بابل، تتعدد فيها اللغات واللهجات، وأنا بعد المصرى الوحيد فى هذا المجتمع، فليس يسيرا أن أقدم نفسى للناس. لكننى كنت حريصا على أن أشهد الحفلات التى تصور جانبا من حياة الشعب الفنلندى، أو تصور حياته المعنوية فى الفن. والحفلات التى دعى إليها أعضاء المؤتمر من هذا القبيل هى حفلات الموسيقى والغناء والرقص (الباليه) .

وقد شهدت ثلاثا من هذا الحفلات كانت أولاها لموسيقى فنلندى، وكانت الثانية مقطوعات موسيقية تصاحب الغناء. وكانت الثالثة باليه على أنغام الموسيقى.

أما الحفلة الأولى، حفلة الموسيقى الصرف، فقد عبرت عن الروح الفنلندى تعبيرا قويا غاية القوة. ففنلندا بلاد بحيرات وغابات. وهى تقع فى الشمال الأوروبى حيث تكتسى الأرض

طول الشتاء بالثلوج، فتكتسى الحياة معها بألوان من الرهبة إن لم يواجهها الإنسان ببأسه وقوته تغلبت عليه وقهرته، لذلك كانت هذه الموسيقى وفيها من العنف مايصور معانى المقاومة لشدة الطبيعة ولقسوة سلطانها قلما تعبر أنغامها عن هذه النغمة الهادئة المطمئنة للحياة مما تعبر عنه الموسيقى التركية والموسيقى الشرقية بوجه عام، وقلما تعبر كذلك عن المعانى (الرومانتيكية) التى تصور الغزل الرقيق والحب المستسلم، بل أنت تراها وهى فى روعة تناسقها أحيانا وقد انقلبت دفعة واحدة الى العنف وكأنما هى النذير بأن خطبا يلم أو خطرا يقترب. كان ذلك شأن المقطوعات الثلاث التى سمعنا فى مدرج غير فسيح من مدرجات جامعة هلسنكى. وقد سألت بعض الفنلنديين إن كانت موسيقاهم كلها من هذا الطراز فابتسم وقال: بل إننا نحب (الرومانتيكية) ونحب سماع الموسيقيين الأوروبيين الذين يعبرون عن معانى الحياة ونعيمها أعمق الحب.

أما الحفلة التى صحبت الموسيقى فيها الغناء فأحيتها ممثلة كانت فى الأوبرا ثم تركت عملها لأنها تجاوزت الخمسين وأثرت وأصبحت فى غنى عن العمل فرأت أن تترك المجال لمن هم فى حاجة الى المجد فيه، ولم تكن هذه الحفلة بطبيعة الحال

من طراز الحفلة الموسيقية. فليس طبيعيا أن تكون السيدة عنيفة ولا قاسية إلاّ إذا أكرهتها الظروف على العنف اكراها وقسرتها عليه قسرا. لذلك كان فيما سمعنا من الأغانى ما يشجي وما يطرب، ومايهز القلب هزاً رفيقا لا عنف فيه. وذلك دليل على أن الطبائع الإنسانية تتشابه وإن اختلفت البيئات الجغرافية، وأن صلة المرأة والرجل فى شئون العاطفة وما تدعو إليه من مودة وتجاذب هى فى أقصى الشمال مثلها عند خط الاستواء، وفيما بين الشمال وخط الاستواء .

أما حفلة الباليه ، وكانت خاتمة الحفلات، فقد أثارت حماسة شاهديها، رجالا ونساء، فصفقوا للراقصات اعجابا تصفيقا كان يستمر أحيانا دقائق متوالية .

لم يكفنى أن أشهد هذه الحفلات (الرسمية) التى نظمتها الشعبة البرلمانية الفنلندية، بل ذهبت مع اخوان من السوريين ومع الشباب الفنلندى الذى يجيد الفرنسية إلى منزل أسرة فنلندية ربها مدرس وله ستة أبناء، ثلاثة أولاد وثلاث بنات، وكلهم يتعلمون ، بلغ بعضهم الجامعة، ومازال بعضهم فى التعليم الابتدائى. ومنزل هذا الأسرة متواضع. لكن أهلها كانوا اللطف والرقة فى استقبالنا، وكان أحدهم يعرف الفرنسية وآخر يعرف الانجليزية. فكانا يجيبانا إلى ما نسألهم عنه.

وفى منزل هذه الأسرة شهدنا ظاهرة يقولون إنها فنلندية بحتة. تلك مايسمونه (السونا). وهى مكان مقفل من كل نواحيه يدفأ تدفئة شديدة يصهر (الطوب الأحمر) داخله . فإذا دخله أحدهم تصبب العرق منه، وهو لايستحم بعد ذلك كالشأن فى الحمام التركى، بل يدلك نفسه بنوع من العشب، ثم يخرج مطمئنا بأن جسمه قد برأ من الرطوبة التى يدفعها إليه برد الشتاء.

وفى فنلندا غير ذلك من المشاهد الشىء الكثير. ولعلى أكتب عما تركته هذه البلاد فى نفسى من أثر ومارتسم لها فى ذهنى من صورة، إذا أنا قدرت أننى أستطيع أن أنقل هذه الصورة وهذا الأثر إلى نفس القراء .

صاحب سنوحا المصرى

افتتح المؤتمر البرلمانى أعماله صباح اليوم ودعا رئيس الشعبة البرلمانية الفنلندية إلى حفلة استقبال بعد الظهر. وذهبتُ إلى هذه الحفلة فلقينى رجل فى مثل سنى وسألنى إن كنت إيطاليا . قلت- بل أنا مصرى. وتحدثنا بالفرنسية. وعرفت منه أنه فنلندى وأنه استاذ الدراسات اللاتينية بجامعة هلسنكى. قلت : ألا تستطيع ياسيدى أن تدلنى على طريقة ألتقى بها مع كاتبكم الكبير (ميكا فالترى) مؤلف (سنوحا

المصرى)، فقد قرأت قصته هذه فى ترجمتها الانجليزية وذلك قبل أن تترجم الى العربية، وأعجبت بها غاية الاعجاب، وتمنيت لو أعرف كاتبها، فأنا كاتب كذلك. قال الرجل: لقد كان (فالترى) تلميذى، وهو الآن فى نحو الخمسين من العمر. وسأجتهد فى أن أصل بينك وبينه إذا كان قد جاء من مصيفه الى هلسنكي. عند ذلك أعطيته بطاقتى وذكرت له أننى أنزل فندق (فاكونا) .

ومضت الجمعة ومضى السبت والأحد ولم يصلنى خبر من الرجل ولا من مؤلف (سنوحا المصرى). والتقيت فى بناء البرلمان مصادفة بالشاب الذى استقبلنى بالمطار، والذى يعرف الفرنسية، وذكرت له قصة استاذ الدراسات اللاتينية هذا وأننى أريد مقابلة (فالترى) قال الشاب : سأبذل جهدى إذا كان قد عاد من مصيفه. على أن له غير قصة سنوحا قصة أخرى عنوانها (الملاك الأسود) The black Angel جديرة بأن تقرأها قلت: فابتع لى ترجمتها الانجليزية أكن شاكرا. وجاء الشاب الغداة يخبرنى أنه حاول أن يتصل تليفونيا بمنزل (فالترى) فلم يجد أحدا مما يدل على أنه لايزال فى مصيفه.

وفى صبح الثلاثاء نزلت من الفندق أريد البرلمان. وسألت فى الفندق عما إذا كانت لى رسائل عندهم فأعطونى الرسائل

وأعطونى كتابا نظرت فى عنوانه فإذا هو الترجمة الانجليزية لكتاب (فالترى) (الملاك الأسود). وقدرت أن الشاب ابتاعه لى وتركه فى الفندق. فلما بلغت البرلمان وقابلت الشاب شكرته على عنايته بشراء الكتاب فقال إنه لم يشتره، وأخذ النسخة من يدى وفتحها فإذا عليها إهداء باسمي من (فالترى) نفسه. عند ذلك أيقنت أنه فى هلسنكى، وأن أستاذ الدراسات اللاتينية أبلغه طلبى مقابلته ، وأنه تفضل مشكورا بهذا الاهداء الرقيق، وأن الواجب يقتضى أن أقابله لأشكره على رقته وعلى ظرفه.

وطلبت إلى الشاب الفنلندى أن يتصل به ويخبره أننى مسافر الغداة من هلسنكى وأننى أريد مقابلته فى اليوم نفسه. ورويت هذه القصة الى صحفية فنلندية تتقن الانجليزية، وكانت تجالسنى فى مطعم البرلمان. وقامت الصحفية لفورها فاتصلت بمنزل الكاتب الكبير ثم عادت تقول إنها اتصلت بزوجته فأخبرتها أن (ميكا) لايسعفه وقته بمقابلتى اليوم لأعمال تشغله، وأنه يستطيع أن يقابلنى بعد غد. فلما أخبرتها أننى مسافر الغداة قالت لها إنها تأسف لذلك وأن زوجها كان يود أن يرى هذا المصرى الحريص على مقابلته .

ورأيت واجبا أن أكتب لـ (ميكا فالترى) أشكره على أهدائه كتابه (الملاك الأسود) اياى، فكتبت له شاكرا ظرفه ورقته. ولم

يسعفني الوقت بعد لأقرأ هذا الكتاب الذى يتحدث عن فتح الاتراك القسطنطينية فى سنة ١٤٥٣ وعن دخول الإسلام أوروبا .

الملاك الأسود

قصة الكاتب الفنلندى مايكا فالترى

منذ سنتين أو نحوهما تحدثت عن قصة «سنوحا المصرى» للكاتب الفنلندى الكبير «مايكا فالترى». وقد نقلت هذه القصة الى العربية وكانت موضع التقدير لدقتها التاريخية فى كثير من الأمور، فهى تروى حديث العقائد السائدة فى مصر وفى الشرق الأوسط منذ ثلاثة آلاف سنة أو تزيد، وهى تتحدث عن عبادة آمون وآتون فى مصر وتقص ماأصاب الملك اخناتون وماكان بينه وبين كهنة آمون من نزاع انتهى بموته وبانتصار كهنة آمون. هذا القصص مستمد من التاريخ، مبسط لقرائه تبسيطا يجعل هذا الموضوع فى متناول القراء من مختلف الأوساط .

وأتحدث اليوم عن قصة أخرى لمايكا فالترى، تلك «قصة الملاك الأسود». وهى تتفق مع قصة سنوحا فى أن موضوعها تاريخى، وأنه يتحدث عن الشرق، وتختلف عنها فى طريقة التصوير وفى السياق. فهذه القصة الثانية تتحدث عن فتح

القسطنطينية، لكنها لا تتعدى القسطنطينية فى أكثر من حديثها عن الخلافات المذهبية بين أهلها وأهل روما وما كان لهذه الخلافات من أثر فى الدفاع عن العاصمة البيزنطية .

وتختلف هذه القصة كذلك عن سنوحا فى سياقها، فهى مصورة فى صورة يوميات يكتبها بطلها «حنا الملاك» عن حصار الأتراك المسلمين هذه العاصمة ودفاع أهلها ودفاع المسيحية عنها. وفى هذه اليوميات يتحدث البطل كذلك عن قصة حبه، ولكنه يتحدث عنها حديثا متقطعا يجعلها من عنايته فى المحل الثانى، بينما المحل الأول هو لهذا التاريخ الذى عنى به المؤلف عناية خاصة وابرزه ابرازا قويا .

وقصة سنوحا، وهذه القصة الثانية، تشهدان بأن «مايكا فالترى» يعتمد فى هذه المؤلفات على مكتبته ويوجه كل عنايته إلى الأسانيد والوثائق المختلفة التى تتحدث عن الموضوع الذى يؤرخ له . فاما القصة، ، فاما حديث الحب أو الزواج وما يجعله القصاصون أساس قصصهم عن عواطف الرجال والنساء فذلك مايعيره الكاتب الفنلندى عناية طارئة، وإن اسبغ عليه مع ذلك من فنه قوة تدعو القارىء لالتماس حديثه فى تضاعيف القصة التى يقرأ وتمتعه بها خير متاع .

وقصة الملاك الأسود عجيبة فيما يتصل بعلاقة «حنا الملاك»

بمحبوبته انا نوتاراس. فهذان رجل وامرأة لايعرف أيهما صاحبه ، ثم يلتقيان مصادفة فى كنيسة، فإذا كل منهما يقع من قلب الآخر ويمس شغافه، وإذا «حنا الملاك» يفكر فى هذه التى رأى، والتى لايعرف، تفكيرا يدعوه الى التماس الوسيلة للقائها من جديد. ولا شبهة فى أن فتنة جمالها كانت قوية الأثر فى هذه العاطفة التى ملكت قلب ذلك الرجل رغم أنه تخطى حدود الشباب. لكن الفتاة تشعر هى الأخرى بدافع قوى يحركها الى السعى اليه، وإن لم تكن تعرف من هو، ولم تكن قد رأته إلا تلك المرة الواحدة فى ظلال بيت الله .

وأنت تتبين بعد أن تتوغل فى قراءة القصة أن هذه الفتاة الفائزة أنا نوتاراس ليست من بنات الشعب ولا من طبقاته الوسطى، وأنها بنت قائد اسطول القسطنطينية، وأنها كانت عروسا للامبراطور ثم تزوج غيرها. كما تتبين بعد أن تزداد ايغالا فى القراءة أن حنا الملاك ليس شخصا عاديا وأنه من اسرة مالكة، وأنه ولد فى فرنسا ثم خاض الحروب فى بلاد مختلفة، وانضم الى الاتراك أثناء حروبهم فى المجر ثم جاء الى القسطنطينية ونذر حياته للدفاع عنها ضد الاتراك، فلم ينجه هذا النذر من أن تحوم الشبهات حوله، وأن يظن كثيرون أنه جاسوس للسلطان، أو أنه يستطيع على الأقل أن يكون كذلك.

أليس عجبا أن تشب عاطفة حب عارم بين فتاة تلك مكانتها، ورجل تخطى الشباب لاتعرفه ولايعرفها. ويزيد الأمر عجبا أن «حنا الملاك» كان متزوجا امرأة انقطع عنها، وأن الطلاق لم يكن معروفا فى المسيحية، فلم يكن التفكير فى ارتباط أنا نوتاراس بحنا الملاك يتعدى هذه العاطفة.

ومع ذلك ظلت أنا تتردد عليه حتى عرف أبوها أمرها: فأمرها أن تهجر القسطنطينية. اتراها أذعنت لامره.. لقد تظاهرت بالاذعان، ولكنها لم تنفذ الأمر، بل لجأت الى دير ترهبنت فيه. ولم تمنعها رهبنتها حين لج بها الشوق الى محبوبها من أن تذهب اليه فى لباس رهبانيتها وتكرر زيارتها له.

وزاد الشوق بها لجاجا فألقت لباس الرهبانية واسلمت محبوبها قلبها وجسمها وعفتها، فلما افاق حنا من غشيته رأى أنه اتى معها امرا نكرا فلجأ الى قسيس من أهل القسطنطينية وقص عليه الأمر، فرأى، القسيس أن المذهب الكاثوليكى الذى عقد من خلاله زواجه الأول مذهب باطل، وأن الزواج فى ظلاله زواج باطل، ولذلك عقد زواج حنا الملاك وأنا نوتاراس فى ظلال العقيدة اليونانية، واصبحا بحكم المذهب زوجين أمام الله .

وبعد زمن عرف قائد الاسطول فرار ابنته ورهبانيتها وزواجها من حنا الملاك. ماذا تراه يفعل. أيدس عليهما من يقتلهما أو يقتل احدهما. لعله فكر فى هذا. لكن احداث الحصار والحرب وموقفه منها لم يدفعه الى تنفيذ تفكيره. فقد كان مؤمنا ايمان الكثيرين من أهل العاصمة بأنها ستفتح ابوابها وتسلم مقاليدها للاتراك لا محالة. وكان يرى كما يرى الكثيرون غيره من اليونانيين انه إذا حدثت المعجزة وانصرف الاتراك عن الحصار تكون الكلمة النافذة فى المدينة العاصمة للايطاليين وأبناء روما. أى للكاثوليكية، بحجة ماعقده الامبراطور مع البابا من اتفاق على توحيد المذهب ، وذلك شر عنده من حكم الاتراك. أو لايستطيع قائد الاسطول أن يستعين بحنا الملاك ليكون رسوله الى السلطان، فإذا دخل الاتراك القسطنطينية كان لهذا القائد نوتاراس مايطمع فيه من مكانة وسلطان. لهذا دس احد ابنائه فجاء باخته «أنا» إلى بيت أبيها، ثم بعث بهذا الابن فدعا اليه حنا الملاك فسمح له أن يقابل «أنا» فى بيته وقالت له «أنا» إنها زوجته وانها مستعدة للذهاب معه الى بيته كما كانا بشرط واحد ذلك أن يكون سفير ابيها الى السلطان فاذا سلمت المدينة كان ابوها وكان زوجها حكام المدينة، وكانت لهم بذلك حياة النعمة والنعيم .

ولكن حنا الملاك رفض ماعرضته عليه زوجته رفضا باتا وقال انه جاء هذه المرة إلى القسطنطينية وقد نذر أن يدافع عنها الى آخر نقطة من دمه، وانه لن يخون نذره ارضاء لابيها، ولا ارضاء لحبها وإن بقى حبها فى قلبه الضياء الفرد الذى يبعث الى حياته دفئا ونورا .

وايقنت الزوج أن لا فائدة من استدراجه، فهو على عزمه لا يحيد عنه. وغلبها حبها على طاعة ابيها فعادت الى بيت زوجها تقاسمه الحياة فى هذه الأيام المضطربة القاسية .

وانهم لكذلك إذ فتح الاتراك المدينة واقتحموها. اقتحموها حين كان حنا الملاك يدافع عنها، وحين كانت زوجه فى بيته ليس معها فيه إلا خادمه العجوز. أما الخادم ففر هاربا يلتمس النجاة من الموت حين ايقن أن الغزاة اقتحموا المدينة وفتحوها، وأما أنا نوتاراس فلبست دروعها واقامت بالمنزل حتى مر بها جنود الاتراك فقتلوها وانهوا بذلك حياتها وحبها.

ودخل محمد الفاتح عاصمة بيزنطة منتصرا تلمع الغبطة فى عينيه ثم يزداد غبطة حين يرى جنوده تضرب سيوفهم يمنة ويسرة فتهوى رؤوس أهل المدينة عن أجيادهم وتجرى طرق المدينة انهارا من الدماء. واستسلم له حنا الملاك كما استسلم له نوتاراس قائد الاسطول وولداه. ولم يلبث، بعد حوار قصير

مع قائد الاسطول أن أمر بقتله وقتل ولديه والتمس منه نوتاراس أن يقتل الولدين قبله مخافة أن يدفعهما الخوف حين يرياه قتيلا فيدينا بدين محمد الفاتح ويكفرا بالمسيحية لينجوا من الموت. وقدم الولدان الى النطع واحدا بعد الآخر، فلما قتلا تقدم ابوهما اليه مطمئنا أنه أرضى المسيح وأنه يرضى نفسه.

فأما حنا الملاك فوقف ينازع السلطان الفاتح ويزعم انه صاحب القسطنطينية، وبرم السلطان بمحاورته فأمر بقتله لأنه لم يرد أن يعيش بعد أن ماتت أنا نوتاراس .

هذه قصة حنا الملاك وحبه. وهى تستغرق من مؤلف «ميكا فالترى» ستين صفحة أو نحوها، من مجموع صفحات الكتاب وعدت بثلاثمائة وعشرين، وهى مشتتة فى يوميات حنا الملاك، فانت تقع عليها كلما أوغلت فى قراءة القصة. أما بقية اليوميات فهى عن حصار عاصمة بيزنطة ودفاعها عن نفسها ودفاع المسيحية عنها، والنزاع بين المذاهب الدينية فيها ...

ومن العسير تلخيص ماصورته هذه اليوميات من أعمال الدفاع وتحصيناته، ومن تجهز الاتراك بعد تضييقهم الحصار على العاصمة. فهذا كله مفصل تفصيلا يكاد يكون فنيا فيما يزيد على مائتين وخمسين صفحة .

لكنما يقف النظر من أسباب ضعف الدفاع هذا الاختلاف

الذى كان قائما بين المذاهب المسيحية فى بيزنطة وفى روما، وما اضطر الامبراطور اليه من الموافقة على توحيد هذه المذاهب رغم مابينها من تباين فى الأسس، وما أدى ذلك اليه من برم أهل القسطنطينية بالامبراطور وضعفه، وبهذا الاتحاد فى المذاهب اتحادا لم تستطع نفوسهم أن تسيغه، وما نشأ عن ذلك من تقاعس الكثيرين عن القيام بواجبهم فى الدفاع ايثارا لحكم الاتراك على تحكم روما وما كان الايطاليون الذين جاءوا ليدافعوا عن عاصمة الامبراطورية الشرقية يريدونه لانفسهم من مغانم، وعزيمة الاتراك بقيادة سلطانهم محمد الفاتح على فتح المدينة عزما لا يتطرق اليه الوهن. هذا كله تصفه اليوميات وصفا دقيقا يحييه أمامك ويبعثه من مرقده فى القرن الخامس عشر ويجعلك تشعر وكأنه وقع بالأمس القريب .

وهذا ماتميزت به هذه القصة من قصص مايكا فالترى. فالقصص التاريخية كثيرة فى آداب الأمم كلها. وبعضها بالغ من الروعة أعظم مبلغ. لكن القليل منه يبعث الحياة الى الماضى بقدر ماتبعثه «الملاك الأسود» ولعلى لا أبالغ إذا قلت إنها من هذه الناحية أقوى من قصة «سنوحا المصرى» لمايكا فالترى نفسه .

و «الملاك الاسود» تثير أمام الذهن مسألة يحار أمامها.

فقد اشترك بطلها حنا الملاك في أكثر من حرب، وقد واجه الموت غير مرة، ولكنه استطاع في كل مرة أن يفر من ملاك الموت وأن يفر من مواجهة نفسه. أما حين حصار عاصمة الامبراطورية الشرقية فقد اتيحت له فرصة الفرار من الموت، بل اتيحت له فرصة الحياة الناعمة، ودعاه السلطان العثماني فاتح القسطنطينية أن يعيش عزيزا مكرما فأبى إلا أن يموت، فلماذا؟ أفكان حبه أنا نوتاراس وميتتها ميتة الابطال هما اللذان صغرا قدر الحياة فى نفسه وجعلاه يؤثر الموت عليه. أم ان مسيحيته هى التى أبت عليه أن يذعن مخافة أن يؤدى به الاذعان ليكون مسلما. أم أن دوافع أخرى أقوى من فطرة الاحتفاظ بالحياة هى التى جعلته يختار هذا الطريق، ويقول حنا الملاك في آخر القصة لمحمد الفاتح انه سيعود فيبعث فيرجع الى القسطنطينية على حين يموت هذا الفاتح ثم لا يرى القسطنطينية من بعد ابدا. فماذا يقصد البطل بهذا. وماذا يقصد المؤلف به.

على أية حال فقصة «الملاك الأسود» جديرة بأن تقرأ، جديرة بأن تنقل الى العربية كما نقلت قصة «سنوحا المصرى» وأن تكون موضع دراسة وتأمل.

قصتان من الدانمرك

شهدت المؤتمر البرلمانى الذى انعقد هذا العام بهلسنكى فأقنعنى ما سمعته فيه بأن العالم لا تزال بينه وبين السلام مراحل عدة . وكنت قد اعتزمت حين قررت شهوده أن أعود من فنلندا إلى انجلترا أقضى بها أياما مع ولدى الذى يدرس هناك ، ثم أذهب منها إلى مدريد لزيارة ابنتى التى تدرس فى جامعتها .

ورأيت أن أقطع الطريق بين هلسنكى ولندن فى كوبنهاجن عاصمة الدانمركى . فأنا لم أرها من قبل قط ، وقد سمعت عن جمالها ورقة أهلها الشىء الكثير . هذا إلى أننى زرت استوكهولم عاصمة السويد سنة ١٩٤٩ واشتركت فى المؤتمر البرلمانى الذى عقد بها ، فلم تكن لى فى هذا العام حاجة بالوقوف عندها وبخاصة لأن توزيع الاجازة التى قررتها لنفسى لم يكن يتسع لزيارتها .

وأقلتنى طائرة فنلندية من هلسنكى إلى كوبنهاجن ، فقضيت بها ثلاثة أيام ، زرت خلالها أهم ما يزار فى هذه

العاصمة الجميلة ، وتنقلت أثناءهـا خلال الدانمركى مما يحيط بالعاصمة، فلم يكن يشغلنى بها مؤتمر برلمانى ولا مؤتمر غير برلماني ، ولم يكن مقصدي من زيارتها إلا الوقوف على ما بها ، والاتصال في حدود هذه الاقامة القصيرة بحياتها .

ولم يكن لى بد من أن أجد دليلا يرشدنى إلى ما يجمل بى أن أقف عليه . وخصص هذا الدليل اليوم الأول للعاصمة ، وخصص اليوم التالى لما حولها ، لأن حولها قصورا تاريخية تستحق الزيارة ، ومن أهمها القصر الذى يقال : إن مكانه ألهم شيكسبير قصة (هملت) الخالدة .

ولست أريد أن أقص في هذا المقال مشاهداتى سائحا فى هذه البقعة من أرض الشمال الأوروبى . وانما أريد أن أقف عند قصتين طريفتين تشهدان بما يترك الأدب ويترك الفن في حياة الشعوب من أثر .

وأولى القصتين قصة (عروس البحر) . ولعلى أستطيع أن أقدم لها بأن أذكر القراء بفيلم سينمائى شهده أكثرهم فى القاهرة وفى غيرها من مدن مصر . ذلك فيلم (هانس كريستيان أندرسن) الكاتب الدانمركى الكبير . وقد صور هذا الفيلم ذلك الكاتب بأن كان بدء حياته حذّاء يصلح الأحذية

أو يصنعها ثم أصبح مدرس أطفال ثم صار كاتبا . والفيلم معروض عرضا رائعا حتى لقد حضره بعضهم خمس مرات ، وحضرته أنا مرتين مع أننى قلما أحضر أفلام السينما . والدانمركيون يضيقون بهذا الفيلم ويذكرون أن وقائعه غير صحيحة . فلم يكن أندرسن حذاء ، لكنه كان شابا فقيرا نشأ فى قرية نائية عن العاصمة ، فلما بلغ الخامسة عشرة أولع غراما بالقراءة . واقتصد بعض المال وذهب إلى كوبنهاجن وعرض بعض ما كتبه على رجالها فأعجبوا بمقدرته وأدخلوه المدارس العليا فأصبح من بعد ذلك (هـ . ك . اندرسن) أحد كبار الكتاب العالميين فى قصص الصبيان .

ولأندرسن مجموعة بل مجاميع من القصص الخرافية البارعة التى ترجمت إلى جميع اللغات ، والتى خلدت اسمه بين الكتاب العالميين . وقصة (عروس البحر) تذكر أن ملك البحر كان له قصر تحت الماء وأنه كانت له بنات خمس ، وكان لا يؤذن لاحداهن أن تطفو على سطح الماء قبل أن تبلغ الخامسة عشرة من سنها . وكانت صغراهن بارعة الجمال . فلما بلغت هذه السن وطفت على سطح الماء رأت سفينة بها من الموسيقى وألوان المرح ما أطربها . ثم أن عاصفة عبثت بهذه السفينة

فحطمتها ومات أكثر من فيها ورأت (عروس البحر) أميراً بارع الجمال قد أعيته السباحة متعلقا بخشبة من حطام سفينة حتى بلغ من الاعياء أن فقد صوابه وأصبح موشكا أن يموت غرقا . وحدقت به (عروس البحر) فلم يهن عليها أن تدعه يموت ، بل حملته بين ذراعيها وسبحت به إلى الشاطىء وأقامت إلى جواره حتى بدأ يفيق من إغماءته ثم عادت إلى قصر أبيها تحت الماء وقد شغفها هذا الأمير حبا وودت أن تكون حياتها معه .

لكنها لا تستطيع . فهى على مشابهتها عرائس الآدميين فى وجهها وصدرها وذراعيها ليس لها ساقان تسير بهما ، بل نصفها الأسفل سمكى تسبح به فى الماء . وسألت أمها عما بينهم وبين الآدميين من فرق فأخبرتها أن الآدميين يعيشون أطول عمرهم مائة عام وأهل البحر يعيشون ثلاثمائة عام وأن للآدميين روحا باقية إلى الأبد وأن أهل البحر ليس لهم هذه الروح . فذهبت (عروس البحر) إلى ساحرة وطلبت إليها أن تحيل ذنَبها قدمين وأن تجعل منها آدمية ، فرضيت الساحرة على أن تأخذ لسان العروس . ومع أن صوت عروس البحر كان ساحرا فى عذوبته فقد رضيت هذه التضحية لتكون إلى جانب

حبيبها الآدمى . وذهبت إليه على قدميها فلما رآها هام بها حبا . لكن صمتها حال بينه وبين التزوج منها . فتزوج من ابنة ملك يجاور ملكه مملكة أبيه . وأشفقت بنات الهواء على عروس البحر فاتخذتها واحدة منهن ، ولهن على بنات البحر من الفضل أن أعمال الخير تجعل لهن خلال ثلاثمائة السنين التى يعشنها روحا خالدة ، وبذلك تستطيع العروس أن ترى الأمير فى العالم الآخر .

هذه القصة التى كتبها هـ . ك . أندرسن للأطفال الصبيان بديعة فى أسلوبها وفي تصويرها ، وتستغرق نحو العشرين من الصفحات . وقد اعجب بها كارلسبرج اعجابه بكل ما كتبه أندرسن . وكارلسبرج صاحب مصانع كبرى للبيرة فى كوبنهاجن . مع ذلك كان من أشد الناس حبا للفنون الجميلة واعجابا بها وتضحية بالمال فى سبيلها ، حتى لقد أوصى قبل موته بأن يخصص مبلغ طائل من أرباح مصانع البيرة التي يملكها لما تحتاج إليه الفنون الجميلة والقصور التى تحتوى آثارها من نفقة واصلاح . وإلى اليوم لا تزال هذه الوصية نافذة ، ولا يزال أرباب الفن يحظون بالايراد الذى خصصته .

أعجب كارلسبرج إذن بقصة عروس البحر وأراد أن

يخلدها ، ففكر في الأمر تفكيرا جديا ، ثم دعا إليه مثالا ناشئا تبدو عليه ملامح النبوغ واتفق معه على صنع تمثال لعروس البحر فوق صخرة على شاطىء كوبنهاجن . واختار المثال الناشىء أجمل ممثلة في كوبنهاجن واتخذ منها (موديلا) لتمثاله . فلما أتم صنعه أقيم فوق صخرة على شاطىء كوبنهاجن فأصبح محط أنظار كل السائحين الذين يذهبون إلى العاصمة الدانمركية ، ومحط أنظار من يمرون في السفن من هناك ، وموضع التقدير من الجميع .

والحق أن التمثال جميل دقيق الصنع . جلست فيه (عروس البحر) جلسة من يقرأ التحيات في صلاته وقد بدا على وجهها الأمل والألم ممتزجين ، وبدت ملامحها مع ذلك جميلة بارعة الجمال . لا عجب وذلك شأنها أن تكون معشوقة السائحين وركاب البحر . وما أكثر من يركبون البحر من كوبنهاجن وإليها . فبينها وبين شاطىء النرويج مضيق تتخطاه الباخرة في أقل من نصف ساعة . ويمكنك أن تعبر هذا البوغاز وأنت بالقطار الذي يتخطاه على ظهر الباخرة .



هذه قصة عروس البحر . أما القصة الدانمركية الثانية

فقصة «هملت» وهى تتصل بقصر خارج كوبنهاجن والرواة يذهبون فى قصة هملت إلى أن شكسبير جاء مع فرقته التمثيلية من انجلترا إلى المكان الذى يقوم هذا القصر عليه لتمثيل بعض مسرحياته فى المدينة التى كانت زاهرة إذ ذاك . أو لعله جاء سائحا منفردا ، فليس بين انجلترا والدانمرك ما يقتضيك أكثر من عبور البحر . أيا كان الأمر فقد عرف شيكسبير أن قصة هملت ومغامرته في سبيل الملك وقتله دنكان حدثت فى هذا المكان فأعجبه ما سمع وكتب قصته الخالدة عن هملت .

لا يحسب القارئ أن ذلك ما أريد أن أحدثه به عن هملت وقصته . ولو أنه كان كذلك لما اقتضانى الأمر أن أذكره . لكن الدليل الذى كان يرشدنى فى تجوالى بالدانمرك روى لى فى هذا الموضوع رواية طريفة هى التى أريد أن أقص حديثها . ذلك أن أمريكيا جاء إلى الدانمرك وصحبه هذا الدليل كما صحبنى . فلما بلغ هذا القصر وذكر له الدليل ما يروى عن شيكسبير وكيف كتب هملت سأل الأمريكى : وفى أى غرفة من غرف القصر تبدى طيف هملت . فالقراء يذكرون أن شيكسبير جعل لهذا الطيف من مسرحيته مكانا خاصا وحديثا

مستفيضا . قال الدليل للأمريكي : لست أستطيع أن أجيب عن سؤالك . فهذا القصر القائم الآن إنما بنى بعد خمسمائة سنة من وفاة هملت ، ويتعذر لذلك أن يعرف الإنسان أين بدا الطيف ، وأية غرفة من غرف هذا القصر كانت مكان ظهوره . قال الأمريكي بغضب : لكنى تركت أمريكا وأعمالى وأموالى فيها وجئت إلى الدانمرك وتكلفت فى سبيل ذلك ما تكلفت من نفقة لغير شيء إلا أن أرى المكان الذى تبدى فيه طيف هملت ، فإذا لم يكن الأدلاء فى هذه البلاد يعرفون أين ظهر هذا الطيف ، ولم يكن العلماء قد حددوا مكانه ، فخير لهم أن يذيعوا ذلك على الناس حتى لا يكلف رجل مثلى نفسه مشقة السفر ونفقته ليقال له : إن المكان الذى بدا فيه هذا الطيف غير معروف . عند ذلك قال الدليل أعتقد يا سيدى أن الطيف بدا فى هذه الغرفة ، بل أستطيع أن أوكد ذلك . وسمع الأمريكى هذا الكلام فاغتبط واطمأن واعتقد أن ما بذله من مشقة ونفقة لم يذهب سدى ، لأنه عرف المكان الذى ظهر فيه طيف هملت ، حتى لو أن هذا الطيف كان مما ابتدعه خيال شيكسبير .



هاتان قصتان من الدانمرك أرويهما لأن أولاهما أثارت دهشتي ، ولأن الثانية أثارت ابتسامتي . أما دهشتي للقصة الأولى ، قصة عروس البحر ، فلأن (كارلسبرج) صاحب مصانع البيرة هو الذى أقام هذا التمثال وأنفق في اقامته ما أنفق وليس مما يعهده الناس أن يغرم صانع البيرة بالفن الجميل هذا الغرام فيجعل حظا موفورا من ماله وقفا عليه . وأما ابتسامتي للثانية فلأنها تشهد بسذاجة الأمريكيين على ما عرف من مقدرتهم وحبهم العمل ، كما تشهد بأن الأوروبيين لا يزالون ينظرون إلى هؤلاء الأمريكيين على أنهم أطفال كبار وإن بلغوا من الثروة والعلم أعظم مبلغ .

على أن هاتين القصتين لم تثيرا من تفكيرى فيما شهدته بالدانمرك ما أثارته مشاهد أخرى أحدث القراء بشيء منها في مقال آخر .

الديمقراطية فى الدانمرك

للديمقراطية تعريف أساسه أن الناس يولدون ويعيشون أحراراً متساوين فى الحقوق والواجبات ولا أريد مناقشة هذا التعريف هنا . وانى أذكر أنني شعرت بأن هذا التعريف أكثر ما يصدق بحذافيره في بلاد أوروبا الشمالية ، وبخاصة في بلاد الدانمرك . فلا تفاوت هناك بين الناس بسبب ثروتهم أو مراكزهم الاجتماعية . وكل عمل هناك شريف مادام القانون يبيحه .

ولا يستثنى أحد من هذه القواعد . ولا يستثنى ملك الدانمرك نفسه منها . فهذا رجل كغيره من رجال الدانمرك له احترامه وله مكانته ، ولكنه لا يزيد في حقوقه ولا تزيد واجباته على غيره من الناس إلا بقدر ما يشعر هو أن مركزه يقتضيه أن يزيد فى هذه الواجبات . لما احتل الألمان الدانمرك بموافقة أولى الأمر فيها منذ سنة ١٩٤٠ إلى آخر الحرب كان الدانمركيون يتوقعون أن عدم معارضتهم الاحتلال الألمانى تعفيهم من النتائج التى تترتب على الاحتلال بالقوة ، وتدعهم

وشئونهم . لكن الألمان رأوا أن لا مفر لهم من الاحتياط لموقفهم الحربى فكانوا يعاملون أهل الدانمرك بالشدة التى يعاملون بها غيرهم من الدول التى احتلوها عنوة منتصرين عليها . وترتب على ذلك أن قامت فى البلاد حركة امتعاض تلتها حركة مقاومة لهذا الاحتلال . وشعر ملك الدانمرك يومئذ بان عليه لوطنه واجبا . فإذا لم يكن مما يباح له أن ينضم لحركة المقاومة لأنه الملك ، فلأنه الملك يجب أن يقوم بعمل يشهد بعدم رضاه عن أعمال الاحتلال . لهذا كان يمتطى جواده كل يوم ويخرج به ويطوف أنحاء كوبنهاجن منفردا لا يحرسه أحد ، لا يسير أمامه ولا من خلفه حاجب راجل أو فارس دلالة على أن شعبه وحده يحميه ، وأنه فى أمن بهذا الشعب من أن يحتاج إلى أية حراسة . وضاق الألمان ذرعا بهذا المنظر الذى يتكرر كل يوم فيثير أهل كوبنهاجن بهم ، لكنهم لم يكونوا يستطيعون أن يقولوا شيئا . أما الشعب الدانمركى فادرك أن الملك يريد بهذه الجولات أن يشعر الشعب أنه يحس بإحساسه، ويضيق مثله بالاحتلال الألمانى وأفاعيله .

وتوفى الملك وخلفه ولده الملك الحالى على العرش . وولده موسيقى بارع يتقن إدارة الجوقات الموسيقية . وهو لا يرى

باسا بين الحين والحين ، وهو الملك وصاحب العرش ، أن يذهب إلى حفلة من الحفلات الكبرى وأن يخلع سترته وأن يدير الفرقة بعصاة كما يفعل مديرو الفرق الموسيقية البارمون وقد ازداد الشعب تعلقا بالملك لما يفعل من ذلك لانه راى فيه مثلا من أمثلة الديمقراطية العليا . فهو ملك يتولى مهام الملك لكن ذلك لا يرفعه عن مقام الإنسان ولا يجعل له حقا مقدسا من عند الله . وإدارة فرقة موسيقية عمل شريف فلا باس بأن يتولاه الملك بنفسه ارضاء لمزاجه ، لا منافسة للذين يكسبون عيشهم من هذا العمل .

والدانمركيون يتحدثون عن أنباء ملوكهم بمحبة وإعجاب وليس ذلك شأنهم اليوم وكفى ، بل هو شأنهم من زمن بعيد ، فهم يسمون ملكهم الذي كان على العرش في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن العشرين (حمو أوروبا) ويكادون يفاخرون بهذا اللقب . ذلك أنه كانت لملكهم هذا ثلاث بنات بارعات الجمال خطبن ثلاثتهن إلى ملوك أوروبا وأصبحن ملكات لثلاث دول فيها ، وكانت احداهن الملكة الكسندرا ملكة انجلترا وقرينة الملك ادوارد السابع وإحدى البارعات الجمال في أوروبا كلها . ولم يقتصر أمر هذا الملك على أن يصدق عليه أن (حمو أوروبا) ، بل اختير ولده كذلك ملكا لليونان .

ألا يدل ذلك على أن هذا الشعب الصغير ، شعب الدانمرك ، شعب سعيد بملوكه وبحسن ادراكه لمعانى المساواة فى الحقوق والواجبات .

والديمقراطية التى تقوم على أساس من أن الناس يولدون ويعيشون أحرارا متساوين ، وأن العمل الشريف مقدس مادام القانون يبيحه ، مظاهر شتى متأصلة فى نفس الشعب تكاد تراها فى كل حركة من حركاته وفى كل صورة من صور نشاطه . وهذا النشاط جم يزيد على ما يراه الإنسان فى غير كوبنهاجن من عواصم أوروبا ، وفيه ما يدل بوضوح على أن كل إنسان يحترم العمل الذى يزاوله أشد الاحترام . كم من مرة كنت أدخل مطعما من المطاعم فأبتسم حين أرى رئيس الخدم فيه مرتديا لباسه الرسمى يدور هنا وهناك وعليه من سيما الوجاهة ما قل أن تلمح مثله على رئيس وزارة فى أوروبا أو غير أوروبا . وكم من مرة كنت أدخل فيها المتاجر فأرى البائعين والبائعات رغم ابتساماتهم ورقتهم وظرفهم يشعرون بأنهم يؤدون عملا لا يقل مكانة عن عمل الوزير أو المحامى أو الطبيب أو الموظف الكبير . وأدلاء المتاحف الذين يرشدونك فى لطف إلى تاريخ كل قطعة تحت اشرافهم بالمتحف ليسوا أقل

اكبارا لعملهم واحتراما إياه من غيرهم . وتستطيع أن تقول ذلك بالنسبة لسائق التاكسي ولغيره من العمال فى البنوك وفى الأماكن العامة ممن يقتضيك الأمر أن تتصل بهم . وليس هذا الاحترام للعمل نوعا من الكبرياء يريد الشخص أن يستتر به ضعف نفسه ، بل الكل يحترم عمل الكل ويتبادلون فيما بينهم هذا التقدير لمعنى الجهد الإنسانى أيا كان العمل الذى يبذل هذا الجهد فيه . فالعمل لذاته لا يعاب ، وإنما يعاب التراخى فيه أو عدم اتقانه .

ونشاط أهل الدانمرك عجيب . كنت أقيم فى كوبنهاجن بفندق انجلترا . والفندق يقع على ميدان فسيح ، وتحته قهوة ومطعم متصلان به . وقد جلست ساعتين فى هذه القهوة قبيل سفرى من عاصمة الدانمرك إلى لندن فأدهشنى ما أرى . مئات السيارات وألوفها ، ومئات الموتوسيكلات وألوفها بأشكالها المختلفة ، ومئات الدراجات وألوفها تمر كلها من أمامك فى سرعة مدهشة . هذا عدا السائرين على أقدامهم ممن يخطون أمامك مسرعين بنشاط يدهشك ، وعلى ثغورهم رغم ذلك ابتسامة تشهد برضاهم عن الحياة . وهؤلاء وأولئك جميعاً ، رجالا ونساء ، يسرعون إلى عملهم الذى يحبونه

ويحترمونه ويجنون منه رزقهم ورزق من يعولون وكأنهم ذاهبون إلى نزهة محببة يخشون أن تفوتهم .

وكما يسارع أبناء الدانمرك إلى عملهم في احترام واعزاز فهم حريصون كذلك على أن يعوضوا أنفسهم عن مشقة العمل بألوان من التسلية والمرح يسارعون إليها في نشاط كنشاطهم في اقبالهم على العمل . وفي كوبنهاجن مسارح شتى للتمثيل وللموسيقى وللرقص . وفيها أثناء الصيف مكان فسيح يسمونه (التيفولى) تشبها بتيفولى روما . أنا لم أر هذا المكان في روما رغم أنني زرتها مرات عدة . وقد يكون ذلك لأن بروما من المشاهد ما ينسيك التيفولى . أما تيفولى كوبنهاجن فلا يمكن لزائرها في الصيف أن يتجاهله وأنت إذا قصدت إليه ليلا بهرتك أضواؤه . فلا أحسبنى أبالغ إذا قلت : إن بها ملايين من ثريات الكهرباء وبها عدد كبير من المطاعم تزيد على سبعة أو ثمانية ، وبها من ألوان الملاهى مالا يقع تحت حصر . بها المسارح وملاعب الموسيقى وباليه الرقص ، كل ذلك منثور في فسحتها المترامية الأطراف الرقيقة الهواء بما تبعثه بحيراتها الصغيرة القائمة هنا وهناك من أرجائها المختلفة ، والتى تقوم على جوانبها أشجار نثرت بين أغصانها أضواء خافتة تسمح

للشباب بأن يجدوا في حماها مرتعا لهواهم ومسرحا لتبادل أسرارهم . وقد قيل لي إن هذا المكان يقصد إليه كل ليلة نحو سبعين ألفا من المتنزهين . ولست أشك في أنهم يجدون فيه متعة خير متعة تعوضهم عن عمل نهارهم . فمطاعمه تتفاوت لتتفق مع تفاوت القدرة على النفقة بعضها من الطبقة الممتازة والبعض أقل كلفة . ومسارح التيفولي في الهواء الطلق يرى الناس فيها ألوانا من التمثيل والموسيقى والرقص من غير أن يدفعوا أي رسم . وقد حاولت أن أتفرج على الباليه فتعذر ذلك عليّ لكثرة الجالسين والواقفين يشهدونه . ولولا أنني التمست فجوة أنظر من خلالها لما استطعت أن أرى شيئا . وكذلك تقضي هذه الألوف المؤلفة التي تجهد نفسها طول النهار في العمل والدأب فيه سويعات من الليل تروح عن نفسها في أماكن اللهو من مشاهد كوبنهاجن الرقيقة الظريفة .

ولا تمنع الديمقراطية الشعب الدانمركي من أن يعتز بتاريخه وأن يسكبه في نفوس أبنائه منذ نعومة أظفاره . وهم يعتمدون في هذا الشأن على متاحفهم . ففي هذه المتاحف صور للأسرة المالكة في مختلف العصور وأخرى لمشاهد تاريخهم المختلفة ، كما أن بها من آثار الفن والفكر ما يأخذ

بالنظر وما يهوى إليه الفؤاد . وأنت كثيرا ما ترى فى هذه المتاحف طائفة من الصبية والأطفال أولادا وبنات ومعهم معلمهم أو معلمتهم يفسر لهم مدلول كل صورة وكل أثر ويشرح لهم ذلك شرحا وافيا يقفون منه على تاريخ بلادهم مرتسما أمامهم فى صور جميلة وآثار للفن بارعة فلا ينسونه من بعد ذلك أبدا .

وقد أثارت مبالغة بعضهم فى الحديث عن تاريخ الدانمرك ابتسامتى . كان دليلى يشرح بعض الآثار التى وقفنا أمامها فذكر لى أن عهدها يرجع إلى ستة آلاف سنة . عند ذلك نظرت إليه فى دهشة وقلت له . الذى أعرفه أن الدانمرك وبلاد أوروبا كلها كانت من ستة آلاف سنة ، بل من ألف سنة فقط غارقة فى بحار من الجهل والهمجية . ثم أضفت . ولا تنس أنك تحدث رجلا من مصر لبلاده تاريخ يرجع بالفعل إلى ستة آلاف سنة وأن مصر كانت إذ ذاك مصدر حضارة العالم .

لا أدرى لماذا تركت الدانمرك فى نفسى أثرا عميقا ، رغم أنها بلد لا يزيد سكانه على أربعة ملايين وكم أود لو استطعت أن أزورها مرة أخرى عما قريب . فريفها بديع ومظاهر حياتها جميلة فى مجموعها وأهلها كلهم رقة وظرف .

ترى أيتاح ذلك لى ؟!

فى لندن ... وفى بلاد الغال (ويلز)

كان برنامج رحلتي ، حين أزمعت شهود المؤتمر البرلماني الدولي بهلسنكى عاصمة فنلندا صيف هذا العام ، أن أذهب بعد هلسنكى إلى لندن ، وأن أقطع الطريق بينهما فى كوبنهاجن عاصمة الدانمرك لمدة ثلاثة أيام . وبعد هذه الأيام الثلاثة أقلتنى الطائرة من كوبنهاجن إلى لندن ، فلما بلغتها ألفيت ولدى يستقبلنى بمطارها الفسيح الجديد . وقد كنت أتوقع أن يسألنى رجال الجمرك بها عما معى من جنيهات استرلينية ، فلا يجوز أن يدخل أحد انجلترا ومعه أكثر من عشرة جنيهات انجليزية ، وإن جاز أن يحمل ما شاء من العملات الأجنبية ، ومن الشيكات على البنوك الانجليزية . وقد كان رجال الجمرك هناك يتشددون فى السؤال عما يحمله المسافر من الجنيهات الانجليزية إلى سنتين مضتا . أما هذه المرة فلم يسألنى أحد منهم عن ذلك ، ولم يسأل غيرى من المسافرين ، كما أنهم كانوا اللطف كل اللطف فى استقبالنا جميعا ، وفى التأشير على متاعنا من غير أن يطالبونا بفتح

شىء منه . هذا مع العلم باننى كنت أحمل جواز سفر عاديا ، وكنت فيما مضى أحمل جوازا دبلوماسيا أو جوازا خاصا .

وقد أدهشنى هذا التبدل فى معاملة الانجليز للمسافرين ، ثم قيل لى إن ما يدخل انجلترا من أموال السائحين يقدر بالملايين ، وانهم لذلك يحرصون على تشجيع السياحة ، فلا يضعون العراقيل فى سبيلها ، ولا يضايقون المسافرين إلا أن تقوم لديهم الشبهة القوية التى تحملهم على مضايقة مسافر بذاته . وكذلك انطلقت بمتاعى مع ولدى إلى فندق دورشستر حيث حجزت لى الغرفة التى أنزل بها .

وكان مراسل جريدة الأخبار ، الأستاذ زغلول السيد ، هو الذى حجز لى هذه الغرفة . لذلك حرصت أول ما وصلت على أن أتصل به . لكن محاولاتى ذهبت عبثا . فلما سألت عنه السفارة المصرية قيل لى إنه قام بالاجازة من أول سبتمبر ، وكنت أنا قد وصلت إلى لندن فى الثالث من سبتمبر ، فأسفت لاننى لم أتمكن من شكره والتحدث إليه .

وسافر ولدى مساء الغد من وصولى إلى جنوب بلاد الغال إذ كان يقيم فى ذلك الوقت بكارديف . أما أنا فبقيت بلندن أربعة أيام ذهبت بعدها إلى كارديف . وفى هذه الأيام الأربعة

بست خلال لندن مع ابن عم لى يعرف المدينة الكبيرة تمام المعرفة . وذات مساء شهدنا بها مسرحية مضحكة أثارت عجبى ، فهى نقد لاذع للأمريكيين على الرغم من أن للولايات المتحدة بلندن مقرا للقيادة العامة للقوات الامريكية المرابطة فى انجلترا . وتدور هذه المسرحية حول جزيرة كانت اليابان تحتلها ، ثم احتلتها الولايات المتحدة ، وأرادت أن تقنع أهلها بأنها إنما احتلتهم لخيرهم وكفالة حريتهم ، فإذا التعاليم التى يحاول رجالها أن يلقنوهم بها هى بعينها التعاليم التى كان اليابانيون يلقونها عليهم ، وبعبارة أخرى إن الاستعمار هو الاستعمار يابانيا كان أو أمريكيا وأن ذرائعه هى هى بعينها لا تتغير .

وقد قيل لى إن كثيرين من الامريكيين يحضرون هذه المسرحية ، وأنهم يضحكون ملء أشداقهم لكل ما يقال أو يجرى فيها .

وفى السابع من سبتمبر انتقلت بالقطار من لندن إلى كارديف . وهو قطار سريع يقطع الطريق فى ثلاث ساعات لا يقف أثناءها إلا مرة واحدة فى نيوبورت . وكان معى بديوان سكة الحديد رجل اتصل بينه وبينى حديث متقطع عرفت من

خلاله أنه من أهل كارديف ، وأنه شديد الاعجاب بها وبنظامها في شوارعها وحوانيتها وعربات الأتوبيس فيها . أليست هى عاصمة بلاد الغال . فسألته عن عدد سكانها فقال إنه ربع مليون أو حول ربع المليون . فلما سألته فى أى حى من أحيائها يقيم قال إنه يقيم خارجها فى المرتفعات حيث مناجم الفحم . وأردت أن أعرف منه ما صورة الحياة فى مناجم الفحم فأنكر علىّ سؤالى وقال إنه لا صلة له بالفحم واستخراجه ، بل هو معلم فى المعاش يحب كارديف لأنها المدينة التى ولد فيها وقضى حياته بها .

وبلغت كارديف ساعة المغيب ونزلت فندق الملاك ، وكان أول ما فاجأنى بها وأثار دهشتى أنى وجدت فى غرفة الحمام الملحقة بغرفتى ورقة صغيرة كتب عليها أنه لعدم نزول المطر خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة فعلى النازلين بالفندق ألا يستحموا توفيرا للمياه . وانما أدهشنى ذلك لأنى أعلم أن الانجليز من أحرص أهل الأرض على الاستحمام ، وأنهم لا ينهون عنه على نحو ما ورد فى هذه الورقة إلا لقحط فى المياه شديد . وقد تناول هذا النهى جميع الفنادق وأبلغ أمره إلى الناس فى منازلهم مما دل على أن الماء غير متوافر بالفعل .

مع ذلك لاحظ بعض الأسبانيين حين زرت مدريد بعد سفرى من انجلترا أن مثل هذا الأمر لو حدث فى أسبانيا لنددت بها صحافة العالم واتهمتها بالقذارة ، ولم تلتمس لها من العذر ما تلتمسه لانجلترا ، لغير شيء إلا أنها انجلترا ، وإن لم يكن الأسبان أقل حرصا على النظافة من الانجليز .

وأصبحت أدور فى أرجاء كارديف . هى بلد صغير ولكنه ظريف حقا . صدق زميلى فى القطار من لندن إلى هنا . إن شوارعها لفسيحة ، وان متاجرها لظريفة ، وان بها لمرات تجارية حوت من ألوان البضائع كل ما تشاء . وعربات الأتوبيس فيها لا تقل حسنا عن عربات لندن . وان بها لقلعة قديمة فسيحة الأرجاء يحدث ما فيها عن جوانب من تاريخ انجلترا ومن تاريخ بلاد الغال حديثا تسمعه من دليلها الشيخ فيروقك ويجعلك أكثر إعجابا بما ترى من فاخر الأثاث ومن بديع الثريات ومن بارع الصور التى تحدث عن وقائع حربية أو تحكى صورة ملك قديم . وقد كانت تلك القلعة ملكا لأسرة من أشراف انجلترا فأهدوها إلى مدينة كارديف منذ عهد غير بعيد. وإن بالمبنى غير القلعة لمبانى فخمة غاية الفخامة ، وفى مقدمتها دار البلدية حيث ترى من التماثيل والتحف ما يلفت

النظر بدقة صنعه وحسن حديثه عن التاريخ الذى يرمز له .
وبدار البلدية هذه بهو فسيح للحفلات العامة التي تعزف فيها الموسيقى ويرقص فيها الراقصون وميادين كارديف ومتنزهاتها تنفس عن المدينة وعن أهلها ، وعن الأطفال المحتاجين أكثر من غيرهم للهواء الطلق وللتنفس ملء صدورهم .

وتضاهي دار البلدية في فخامتها دار القضاء ودار الجامعة ، وبعض المباني العامة بالمدينة مما تقتضيه حياتها كالمستشفيات وما إليها .

ورأى ولدي أن نقضي عطلة آخر الاسبوع نجوب أرجاء بلاد الغال من جنوبها عند كارديف إلى شمالها على مقربة من ليفربول ، ثم ننحدر من الشمال إلى كارديف من طريق آخر بعد أن نكون قد قضينا الليل في مصيف غاب عن بالي الآن اسمه ، لأن اسمه معقد بلغة أهل البلاد . فلغة بلاد الغال تختلف كل الاختلاف عن الانجليزية . وأهل هذه البلاد يتشبثون بلغتهم هذه ويعيبون على أهل كارديف أنهم قلما يعرفونها ، ولا يتكلمون لذلك إلا الانجليزية .

وأقررت رأى ولدى وجبنا بلاد الغال من أقصاها إلى أقصاها . يا للجمال والروعة والجلال ! . ان بها مناطق تكاد

تنافس سويسرا الجبلية في جمال منظرها وارتفاع جبالها ، وكثافة غاباتها ورقة هوائها وعذوبة نسيمها . وان بها مناطق أخرى ينفسح بها السهل إلى مدى النظر وتستمتع فيها العين بمنظر الأفق وبمغيب الشمس على حافته . والمناطق الجبلية هى التى تشاطىء البحر الممتد من سواحل الغال مختلطا بالمحيط الأطلنطى إلى أمريكا ، وإلى هذه المناطق يقصد من يريدون الاصطياف والمتاع بهواء البحر وهواء الجبل مجتمعين .

وأنت لا ترى هذا الجمال البديع البارع لأول ما تخرج من كارديف . فالمنطقة المحيطة بها والتى يسميها أهل كارديف الوديان منطقة قليلة الارتفاع ، تحيط بها هضاب تتوسطها . في الوديان مصانع عدة لشركات الطيران ولغير شركات الطيران وبها كذلك مناجم الفحم .

فإذا انطلقت السيارة بك بعد ذلك متياسرة إلى ناحية البحر البعيد عنك ما يزال بدأت تتسنم المرتفعات شيئا فشيئاً حتى تعلو شواهق الجبال ، وحتى تراك أحاطت بك الغابات الكثيفة ، وأنت مع ذلك تعلو وتهبط طرقا عبدت خير تعبيد ، حتى لا تكاد تسمع لعجل سيارتك أى صوت .

بعد خمس ساعات أو نحوها من مسيرتنا دلتنا خريطة

الطريق على أننا أصبحنا على مقربة من البحر فلما بلغناه ألفيناه متلاطم الأمواج ، لا نكاد نطيق هواءه لشدة برده وعاصف اندفاعه . وعدنا إلى سيارتنا فأقلتنا إلى حيث نزلنا نقضى الليل فى تلك القرية التى لا أذكر اسمها . وكم أدهشنا إذ قصدنا إلى كورنيشها الذى يحاذى البحر أن وجدنا جميع المبانى المطلة عليه فنادق ، وأن وجدناها جميعا ملأى بقصادها آخر الأسبوع حتى لقد صعب علينا أن نجد غرفة توافق اختيارنا ، فاضطررنا لقبول الغرفة التى قيل لنا إنها الوحيدة الخالية فى أكبر فندق هناك .

واستأنفنا السير فى الصباح إلى الشمال ، فمررنا بقرى عدة كما مررنا بقرى عدة فى اليوم الذى سبقه وأنت تجد فى كل قرية من هذه القرى ما تحتاج إليه . تجد المأوى الذى تلجأ إليه إذا هبط الليل وأنت فى الطريق ، وتجد المطعم الذى تتناول فيه غداءك وعشاءك كما تشتهى . وتجد المقهى الذى تجلس فيه تتناول فنجانا من القهوة أو الشاى . وتجد على العموم كل ما يرضى حاجاتك أيا كانت .

وحين بلغنا غايتنا شمالا انحدرنا متيامنين نلتمس طريقا آخر يؤدى بنا إلى كارديف ونحن منها على ما يزيد على

ثلاثمائة كيلو متر . ولم يكن هذا الطريق وعرا كطريق مجيئنا ، بل كنا نهبط فيه على طرق جميلة فسيحة ، وكنا نرمى ببصرنا عن يميننا وعن يسـارنا إلى الأفق من حـولنا ، وكنا نرى الشمس لا تحجبها قمة من القمم . وبلغنا كارديف بعد ساعة من مغيب الشمس .

أيهما أروع بهاء : الجبال والغابات أم السهل المنبسط . أما أنا ، فأحب الجبال إذا كانت خضراء السفوح بالأشجار الباسقة ، وكانت الغابات تقوم على حافتى الطريق الذى يسير الإنسان فيه . ذكرت ذلك إلى جماعة كانوا مثلى ينتظرون الطائرة المسافرة إلى مصر فقالت سيدة : فسحة الصحراء يتنفس فيها الإنسان ملء رئتيه . أيستطيع القراء أن يذكروا رأيهم فى ذلك الأمر . ولهم منى جزيل الشكر ؟!

تعال معي إلى مدريد

زرت مدريد وأسبانيا لأول مرة في حياتي صيف هذا العام. هذا مع أنني زرت باريس وفرنسا أكثر من عشرين مرة، وفرنسا تجاور أسبانيا ، أليس هذا عجيبا ؟

الحق أنه لا عجب فيه ، فأنا لا أعرف اللغة الأسبانية ، ولم يكن لي في أسبانيا من الأصدقاء من أستطيع الاعتماد على صحبتهم لأقف على ما فيها إذا زرتها ، أما هذا العام فابنتي في أسبانيا وهي تتقن اللغة الأسبانية ولي بمدريد أصدقاء فإذا زرتها لم أكن غريبا عنها كما كان ذلك شأني من قبل ، وفي أسبانيا بلاد الأندلس حيث تقوم آثار إسلامية تهوى إليها نفوسنا وتدفعنا لمشاهدتها ، فإذا يسرت لنا الأحوال هذه الزيارة وكنا قادرين عليها فالعجب ألا ننتهز فرصتها ، ولذلك انتهزت هذه الفرصة .

والعاصمة في كل أمة هي عنوان هذه الأمة . فطبيعي أن تكون مدريد عنوان أسبانيا ، وطبيعي ان انزلها لأول ما أذهب إلى أسبانيا ألتمس الوقوف فيها على لون من الحضارة ومن الحياة لم أقف عليه من قبل .

وهبطت بنا الطائرة فى مطار مدريد فالفيت ابنتى مع جماعة من اخواننا المصريين فى انتظارى وشكرتهم ، واجتزنا الجمرك واصطحبنى مدير المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد فى سيارته إلى فندق (بالاس) ، واجتازت بنا السيارة طرقا جميلة يبدو على بعضها القريب من المطار أنه حديث التخطيط والرصف لأن الأشجار المغروسة على جانبيه لا تزال فى بدء حياتها ، فلما تخطينا هذه الطرق الخارجية إلى المدينة بدت مبانيها أشبه بما ترى فى كل عاصمة أوروبية ، وأشبه بمبانى القاهرة واستأذنتنى ابنتى لتذهب إلى بيت الطالبات الذى تقيم به لتتناول غداءها ، وكنا اذ ذاك قرابة الساعة الثانية بعد الظهر ، وكنت قد تناولت غذائى بالطائرة ، فسألتها عن موعد الغداء عندهم فأجابتنى بأن الأسبان لا يتناولون طعام الغداء إلا بعد الساعة الثانية ، ولا يتناولون طعام العشاء قبل الساعة العاشرة ، وعجبت اذ كنت قادما من انجلترا حيث يتناول الناس غداءهم ظهرا ، وعشاءهم فى الساعة السابعة أو السابعة والنصف .

وأويت إلى غرفتى أستريح من مشقة السفر ، فلما كان المساء رأيت فى الميدان الذى أطل عليه فسقية بها نافورة حولها زرع ويقوم فيها تمثال لإله من آلهة الاغريق الأقدمين ،

ورأيت أنوارا فى الفسقية تزيدها جمالا ، قالت ابنتى : خير أن تنزل لترى طريق (البرادو) فهو على خطوات من هنا وبه فسقية منظر التماثيل والماء فيها أروع مما تتصور ، ولعلك حين ترى هذا الطريق تذكر (الشانزليزيه) طريق باريس الفخم .

ونزلنا إلى طريق (البرادو) . إنه ليس شارعا تجرى فيه السيارات ، بل هو طريق فسيح بين شارعين ، وهو مرتفع عنهما ولا تمر به سيارة ولا عربة ، وهو مضاء إضاءة جميلة ، والناس يسيرون فيه ذهابا وجيئة يتنزهون تحت أشجاره ويستمتعون بمناظره ويجلسون على المقاهى الكثيرة الموجودة فيه ، وبه فسقية قامت فيها التماثيل وجرى فيها الماء تتلألأ تحته أنوار تزيد المنظر بهاء وروعة . وأكثر المتنزهين فى طريق البرادو من الصبية بنين وبنات ممن تتروح أعمارهم بين السابعة والحادية عشرة ، هم هناك يمرحون ويلعبون ما شاءت لهم سنهم التى تدفعهم لهذا المرح وهذا اللعب ، وعجبت ما بال هؤلاء الأطفال لا يأوون إلى منازلهم. وقد تخطت الساعة التاسعة ، قالت ابنتى إنهم يذهبون إلى منازلهم فى الساعة العاشرة ليتناولو طعامهم ثم يعودوا إلى هنا ، ولا بأس بأن يبقوا بعد ذلك فى طريق (البرادو) أو فى غيره من طرق مدريد إلى منتصف الليل ، وإلى ما بعد منتصف الليل .

هذا منظر لا أذكر أنني رأيت مثله في مدينة من المدن ، فالصبية والأطفال يأوون عادة إلى منازلهم وإلى فراشهم قبل التاسعة ، أما الأسبان فيذرون أطفالهم في الأماكن الآمنة إلى ساعة متأخرة من الليل ، أفيكون هذا لأن جو الصيف عندهم شديد الحرارة . لكني قيل لي : إن ذلك شأنهم حتى في مدن الشمال حيث لا يرهق الصيف أحدا ، ولا ترتفع درجة الحرارة إلى أكثر من مثلها في باريس أو في لندن .

ومن طريق (البرادو) ذهبنا إلى سراى البريد الفخمة وألقينا بصندوقها خطابات كتبناها ثم ملنا إلى مقهى نستريح به ، فالمقاهي في مدريد كثيرة مقصودة ، ولعلها أكثر عددا من مقاهي باريس وأكثر قصادا منها .

واستهواني ما رأيت في هذه السويعات من الليل فخرجت الغداة أجوس خلال المدينة راجلا ، وقد زادني ما شهدت حبا لها . فهي من خفة الروح بما لا يجده الإنسان في كثير من العواصم . وفيها إلى ذلك من مظاهر الفن الجميل ومن إكبار أهلها هذه المظاهر ما يشهد للأسبان بذوقهم الجمال وتقديرهم له، ذهبت إلى ميدان أسبانيا وأجلت النظر فيه وفيما غرس به من الأشجار وفي المقاهي القائمة على حوافه فأعجبني ، لكن الإعجاب بلغ من نفسي حين وقفت أمام التمثال الذي أقيم (لسرفانتس) مؤلف قصة (دونكيشوت) – أو (دونكيخوتي) كما

ينطقها الأسبان ، فلم يكن هذا التمثال قائما وحده ، بل أقيم أمامه تمثال آخر (لدونكيشوت) على جواده وفي يده سيفه يلوح به فى الهواء ، وإلى جانبه (سانشو) على حماره . فكانت إقامة هذا التمثال تخليدا لأدب (سرفانتس) كما كان تمثال (سرفانتس) نفسه تخليدا لاسمه . وأنها لعمرى لفكرة موفقة أن يخلد اسم الكاتب العظيم ، وأن يخلد فى نفس المكان أدبه فى تمثالين أو تماثيل تتحدث عن هذا وذاك .

والتماثيل فى مدريد كثيرة يعيد بعضها إلى ذهنك ما رأيت من مثله فى عواصم أخرى . ففى مدريد حديقة كبيرة جدا هى (الريتيرو) ، وهى الرئة التى تتنفس منها المدينة العاصمة ، والأسبان يقولون إنها تفضل غابة بولونيا لأنها تقع فى وسط مدريد بينما يقع غاب بولونيا خارج باريس ، وقد صنعت مجموعة من التماثيل لملوك أسبانيا لتوضع على أبراج القصر الملكى ، ثم تبين أن سقفه لا يحتملها ، فوضعت فى طريق (البرادو) الرئيسى وأصبحت أشبه بتماثيل أباطرة ألمانيا الموضوعة فى حديقة (التيرجارتن) ببرلين ، وصارت بذلك زينة لحدائق الريتيرو فوق زينتها بأشجارها الباسقة وبحيراتها الصغيرة وبالتماثيل والمبانى الأخرى القائمة فيها .

ولم يدهشنى أن تقوم هذه التماثيل بمدريد بعد أن زرت متاحفها ، وبعد أن رأيت فيها من آثار الفن فى التصوير

والنحت ما يضارع خير ما رأيت بأكبر العواصم الأوروبية فمتحف (البرادو) الفسيح المترامي الأطراف لا يتوارى عن أن يقارن باللوفر في باريس أو بالمتحف البريطاني في لندن ، بل إن الأسبان يقولون إنه يفوق اللوفر فيما يعرض من الصور ، وإن فاته اللوفر في التماثيل ، وهم يدللون على قولهم هذا بأن متحف (البرادو) أدق في عرض اللوحات نظاما وأنه إلى ذلك يعرض آثار المصورين الأسبان أمثال جويا وفلاسيكيز ومن إليهما عرضا دقيقا يبين تطور فكرة المصور في الفن والأحوال النفسية المختلفة التي مر المصور بها في حياته ، وذلك أمر لا يعنى به اللوفر في باريس ، ولا أريد أن أنضم إلى الأسبان في هذه المفاضلة ولا أريد أن أخالفهم فيها . ولكني أقرر أن متحف البرادو من أبدع المتاحف التي رأيت في حياتي ، وأن الأسبان لا يبالغون حين يعتبرونه مجدا من أمجاد عاصمتهم يستطيعون أن يفاخروا به الأمم في مضمار الفن الجميل .

وليس البرادو هو المتحف الوحيد الذي يستوقف النظر في العاصمة الأسبانية ، وإن كان أعظم متاحفها وأبدعها . فقد زرت في مدريد القصر الملكي وزرت متحف (ساروليا) ، وساروليا مصور أسباني بارع يختلف اتجاهه عن اتجاه أكثر الفنانين ، فالموضوعات التي يعالجها الفنانون في إيطاليا وفي أسبانيا وفي أكثر البلاد المسيحية تستمد قوتها من الدين

أو من التاريخ ، فالمئات منها تصور العذراء والسيد المسيح فى كل يوم وفى كل ساعة من ساعات حياتهما وحياة الحواريين حولهما ، والمئات منها تصور وقائع التاريخ فى عصوره المختلفة وما جرى فى الوقائع الحربية خاصة وما جرى فى بلاط الملوك هذا فضلا عن صور الملوك أنفسهم ، أما ساروليا فيستمد وحيه من أسرته فأكثر صوره ترسم زوجته أو ابنته أو ابنه أو الأسرة كلها مجتمعة ، وهو ينقش هذه الصور فى أوضاع بارعة تدل على عمق حبه وإعجابه بهذه الأسرة التى عاش بها ولها ، والتى وهبها كل قلبه وكل فنه ، وإلى جانب هذه الصور يرى الإنسان فى متحف ساروليا مجموعات من الأوانى ومن العاج المنقوش كان المصور الماهر يحبها غاية الحب ويعنى بجمعها وينفق فى سبيل ذلك الأموال الطائلة .

فأما القصر الملكى الذى لم يصبح قصرا ملكيا وإن احتفظ بهذا الاسم فيفوق قصورا كثيرة فى البلاد الأوروبية ، ويمتاز على ما أصبح تاريخيا منها بأنه رغم أنه أصبح تاريخيا كذلك لا يزال السفراء يستقبلون فيه ليقدموا أوراق اعتمادهم ، وهو إلى ذلك متحف بديع بما حوى من الصور والتماثيل والنجف والأثاث النادر . وبه الى جانب هذا كله مكتبة حوت ، فيما ذكر لنا دليلها ، سبعا وعشرين ألف مجلد وعددا غير قليل من المخطوطات صفت كلها فى رفوفها فى نظام بديع ، وقد

استوقفتنى هذه المكتبة كما استوقفنى القصر ، أو أكثر مما استوقفنى القصر ، بما فيها من الكتب القديمة المعروضة عرضا رائعا ، أو المجلدة تجليدا فاخرا ومن هذه الكتب نسخة من القرآن الكريم .

أفيجمل بى أن أفيض أكثر مما سبق فى الحديث عن مدريد ، لو أننى فعلت لوجد قلمى مادة غزيرة تعاوننى على وصف ما شهدت خلال الأسبوعين اللذين أقمتهما بهذه المدينة الخفيفة الروح ، لكنى أجتزئ بما سبق الآن ولعل الأقدار تتيح لى أن أعود لأستمتع مرة أخرى بمباهج مدريد أضعاف ما استمتعت المرة الأولى .

على أننى لا أستطيع مع ذلك أن لا أذكر ما لقيت من ظرف لأسبان الذين عرفت بمدريد ، والذين أبدوا لى من حسن اللقيا ما لن أنساه ، لقد استمتعت بصحبة المستشرق الكبير الأستاذ جارسيا جومز ودارت بينى وبينه أحاديث كان لها عمق الأثر فى نفسى ، وقد زرت المثال الكبير الأستاذ كوماندادور ثم صحبنى غداة زيارته إلى متحف أكاديمية لفنون الجميلة بمدريد وشرح لى الكثير من صوره ، ووقف معى طويلاً أمام صورة (جويا) وقد رسمها الفنان العظيم نفسه كذلك رأيت آخرين لا أنساهم وأود لو استطعت أن راهم هنا بالقاهرة أو هناك بمدريد .

الأسبان ومصارعة الثيران

للاسبان مظاهر قومية فى حياتهم تختلف عن مثلها عند غيرهم ، وغناؤهم ليس كغناء الأوربيين ورقصهم ليس كرقصهم ، وألعابهم الرياضية المفضلة خاصة بهم ، لا يعرفها إلا أبناء جنسهم فى أمريكا الجنوبية ، وفى المكسيك .

ومصارعة الثيران رياضة أسبانية لا يألفها غير الأسبان وهم يهيمون بها أكثر من هيام الانجليز بكرة القدم ، وأكثر من هيام الامريكان (بالبيسبول) ، ومصارعة الثيران منتشرة فى كل المدن الاسبانية طيلة فصل الصيف ، وأهل المدن يهرعون لمشاهدتها ألوفا ، ولا يتخلفون عنها ، ولا يسأمون مشاهدتها ، فاذا رأوها أخذت منهم الحماسة كل مأخذ ، فانستهم فى كثير من الأحيان أنفسهم ، ودفعتهم إلى صيحات الإعجاب أو صفير الإنكار فى عنف لا يندفعون إليه فى غير هذا الموقف .

والناس فى غير أسبانيا يتحدثون عن مصارعة الثيران ، لكن الاقلية منهم شهدوا بالفعل هذه المصارعة وعرفوا تفاصيلها. لذلك لا يكاد سائح ينزل أسبانيا حتى يسأل عن ميادين الثيران ومواعيد مصارعتها ، ليشهدها ولتتكون عنده فكرة دقيقة عنها .

وكان ذلك شأنى ، لم أكن اتصور من مصارعة الثيران إلا ما سمعته فى قصة كارمن الغنائية حين تمثل على المسرح ، وكنت اظن أن هذا الذى يسمونه (التوريادور) فى قصة كارمن يتصدى للثور بقماشة حمراء يهيج الثور منظرها ثم يظل يداور الثور والثور يداوره حتى يتغلب احدهما على الاخر ويصرعه .

فلما ذهبت إلى مدريد هفت نفسى إلى مشاهدة هذا الصراع ، رغم ما قيل لى من أنه وحشى ، وأن كثيرين ممن يشهدونه لا يستريحون له ، على أنى لم تتح لى الفرصة التى اردتها وأنا فى مدريد . فلما كنت بقرطبة من بلاد الاندلس دعانا بعض أهل المدينة لتناول طعام الغداء فى حفل يرأسه عمدة المدينة ، وبعد الطعام دعانا العمدة لنشهد حفلة مصارعة الثيران التى تبدأ فى الساعة الخامسة بعد الظهر ، وقال لنا : إنه سيمر قبل الحفلة على الفندق الذى نقيم به ، وذكر لنا أن الحفلة تبدأ الساعة الخامسة تماما ، وأن الاسبان لا يهتمون بالدقة فى مواعيدهم إلا فى حفلات مصارعة الثيران ، فهى تبدأ فى الدقيقة المحددة لها ، ولا يجوز التأخر عنها أبدا .

وجاء العمدة لموعده وشاهدنا الحفلة من بدئها إلى منتهاها . ولا أريد أن أذكر الآن ما تركته فى نفسى من أثر ، بل أصفها وصفا موضوعيا خاليا من التعليق لأجعل للقراء تقدير أثرها

فى نفوسهم ، وكان أول ما وقع عليه نظرى حين دخلت الى مكان المصارعة هذه الألوف المؤلفة من المتفرجين جلسوا فى مقاعد متدرجة بعضها فوق بعض حول حلقة مستديرة تعيد الى الذهن صورة ملاعب الرومان القديمة التى يسمونها (الأرينا) ، ويزيد قطرها على مائتى متر أو نحو ذلك ، وكانت الحلقة ساعة دخلناها خالية ليس بها ثور ولا مصارع ، ثم إن ستة من الشباب - أو من الرجال يلبسون البياض الملتصق على اجسامهم الى ما فوق ركبهم ، دخلوا هذه الحلقة المستديرة يتقدمهم فرسان على خيول ثلاثة ، فصفق لهم الناس طويلا حتى انصرفوا ، ثم اتجهت أنظار الجميع إلى باب هو الذى يخرج منه الثور الذى يصارع أولئك الأبطال ويصارعونه.

ولقد قيل لى: إن الثيران التى تعد لهذه المصارعة تحبس فى مكان مظلم أربعاً وعشرين ساعة قبل بدء الحفلة ، فإذا خرجت الى هذه الحلقة التى تعج بالنور وبالناس اذهلها النور واذهلها منظر الناس ، وبخاصة لأنها اقرب لأن تكون ثيرانا برية ترعى الكلأ على سفوح الجبال فى رعاية راع قل أن ترى من الناس غيره ، فاذا دخل الثور الحلقة تولاه نوع من الذهول فدار ببصره يمنة ويسرة لا يدرى ما الذى جاء به إلى هذا المكان .

وسألت أين (التوريادور) ، بين هؤلاء المصارعين الستة

الذين دخلوا الحلقة بعد أن دخلها الثور ، قيل لى إنهم هؤلاء الستة جميعا وإن الأسبان يسمونه (التوريرو) ، ويمسك كل فى يده قماشة أدنى فى لونها إلى الوردى منها إلى الأحمر القانى والستة موكلون بمعابثة الثور فى أول أدوار المصارعة .

وخرج من الباب الذى اتجهت إليه الانظار ثور يبدو عليه أنه لايزال فى فتوة شبابه ، وان لم يبلغ عنفوانه . خرج من هذا الباب فاذهله النور واذهله منظر المتفرجين وكانوا يبلغون يومئذ بين الثمانية آلاف والتسعة آلاف ، فتقدم فى الحلقة حيران مضطربا ، ووقف برهة فتقدم منه أحد هؤلاء (التوريرو) وأخذ يلوح له بقماشة مقتربا منه حتى يكاد يصفعه بالقماشة .

هنالك خرج الثور من حيرته ومن جموده واندفع نحو هذا الذي يعابثه فاذا هو يفر أمامه ويدور حوله ثم يلوح له من جديد بقماشة ، ولا يكاد الثور يستدير ليندفع نحوه حتى إذا (توريرو) آخر يلوح للثور بقماشته فيحار الثور الى أية ناحية يندفع ، وتبلغ الجرأة وتبلغ المهارة وخفة الحركة عند هؤلاء الذين يصارعون الثور مبلغا يثير الدهشة والإعجاب ، ويستدعى من الحضور التصفيق الطويل فى حماسة ليس بعدها حماسة . ويزيد التصفيق الصادر من هذه الألوف اندفاع الثور ومداورات ملاعبيه الستة الذين يحيرونه فهو يدور

حول نفسه أحيانا وهو يندفع نحو أحدهم يريد أن يصرعه بقرنيه الحادتين فاذا هذا الذى اندفع نحوه قد توارى واذا بلاعب آخر ظهر أمام الثور فزاد اندفاعه حيرة واضطرابا .

على أن حركات الملاعبين ترمى إلى غرض بعينه ، فهم يريدون أن يجروا الثور الى ناحية من الحلقة ليصطدم بلاعب أقوى . فلو أنهم اقاموا يلاعبونه لأجهدهم ساعات ثم لتغلب عليهم آخر الأمر .

والغرض الذى يريدونه اذ يجرون الثور اليهم هو استدراجه الي مكان معين من حلقة المصارعة ، فاذا اقترب من هذا المكان دقت الموسيقى فخرج من باب جانبى غير الباب الذى خرج منه الثور فارس مدجج بيديه أكثر من خنجر ، وهذا الفارس - يسمونه (البيكادور) يمتطي جوادا معصوب العينين عليه درع يحميه من كل جانب قد يهاجمه الثور منه وفارسه تحميه كذلك دروعه ، وهذا الفارس لا يجوز له أن يتخطى فى حلقة المصارعة خطا معينا مرسوما على الأرض ، فإذا استدرج الملاعبون الثور فأصبح قريبا من الفرس ورأى الجواد وفارسه اندفع نحوهما فى بطء وحيرة ولا يدرى كيف ولا لماذا جاء عند ذلك يقترب منه (البيكادور) ويغرس خنجراً أو خنجرين فى كتفه فيسيل منه الدم غزيرا ، ويشعر الثور بهذه الضربات فيندفع كأنما يريد أن يدافع عن نفسه ويضرب

الجواد وفارسه بقرنيه فلا يؤثر فى دروعهما ، ولكنه فى بعض الأحيان يلقى الفارس أرضا ، أو يلقى الفارس وجواده أرضا ، عند ذلك يسرع الملاعبون بقماشاتهم يلوحون بها إلى الثور أو يضعونها بينه وبين (البيكادور) ليدعوا لهذا الأخير فرصة للنهوض من سقطته ، ويغرس البيكادور خنجره مرة أخرى فى كتف الثور ليسيل دمه فيضعف ، وينصرف البيكادور وجواده من الباب الذى دخل منه وتدق الموسيقى إيذانا بأنه قد أتم مهمته .

ويرتد الثور مثخنا بالجراح إلى وسط الحلقة ، وتبلغ منه الجراح احيانا فينفرج حلقه عن صيحات تعبر عن ألمه ، وفى هذه اللحظة يذهب إليه (البندريلا) فيغرس فى جراحه ستة حربات تزيد دمه سيلانا ، وتبلغ هذه الحربات التي يتحملها الثور وهو فى شبه دوار مبلغا يحول بينه وبين الدفاع عن نفسه.

فاذا بلغ الثور أن اضعفته الجراح تقدم إلى النظارة (المتادور) يلوح بقبعته ثم يلقيها إليهم شارة أنه سيقتل الثور ويقدم لهم هذه الضحية . على أن الثور لا يلبث بعد قليل أن يسترد نشاطه وكأنه يشعر بأن أمامه معركة حاسمة لابد له كى يخوضها من أن يستجمع كل قوته .

والواقع أنه فى هذه المرحلة الأخيرة من الصراع يصبح ضاريا ، ولابد (للمتادور) من أن يكون بارعا فى مداورة الثور ليزيده ضعفا ، وليتمكن آخر الأمر من أن يغرس الخنجر الذى يمسكه بيده فى مقتل الثور من رقبته ، وهذه المداورة تطول أحيانا حتى يضج المتفرجون ويطلبون الى (المتادور) أن يجهز على الحيوان المسكين . وكثيرا ما يهاجم الثور فى هذه الأثناء مصارعه وقد يصيبه ، بل رأيت فى هذه (الكوريدا) التى شهدتها بقرطبة هجوم الثور على البيتادور وإصابته إياه بقرنه فى فخذه وإلقائه إياه ارضا . وفى مثل هذه الحال يتماوت حتى لا يكر عليه الثور فيقتله ، ويهرع الملاعبون الآخرون لشغل الثور بقماشاتهم الحمراء ، وقد كبر على (المتادور) القرطبى الذى ضربه الثور فى فخذه ألا يقتل هذا الغريم الخطر فقام يمرح ثم انقض على الثور بخنجره فى حركة اليائس وضربه فى مقتله وهوى الثور إلى الأرض . عند ذلك انطلقت الأكف بالتصفيق والحناجر بالهتاف إعجابا بهذا البطل الذى أبى أن يترك الميدان قبل أن يتم ما تعهد للمتفرجين بإتمامه رغم إصابته .

فلما أيقن أنه أجهز على الثور خر إلى الأرض صريعا وكأنما أغمى عليه ، فقد تقدم زملاؤه وحملوه فى رفق ودخلوا به من الباب الذى دخل منه البيكادور بجواده ، ولعل طبيبا كان هناك ليواجه مثل هذه الحوادث .

ضج الحضور إعجابا بهذا البطل وقرر المحكمون أنه جدير بمرتبة الشرف ، وأوسمة الشرف فى مصارعة الثيران تتفاوت، فأدناها أن تعطى أذن الثور لمن قتله فيعلقها فى بيته ، وارفعها أن يعطى ذنب هذا الثور ليعلقه البطل فى بيته ، وقد تقرر أن يعطى البطل الذى قتل الثور رغم اصابته مرتبة الشرف العليا فيمنح ذنب الثور ، لكنه لم يتمكن من الحضور لتسلم هذا الوشاح بسبب إصابته فحضر والده وناب عنه ، وأكبر رجائى أن لا تكون إصابة هذا البطل خطيرة أو قاتلة .

ومصارعة الثور من بدئها الى منتهاها تستغرق ما بين ثلث الساعة ونصف الساعة . وحفلة المصارعة تستغرق نحو الساعتين ، ويقتل فيها ستة ثيران على النحو الذى قدمته يتولى قتل اثنين منها (متادور مشهود له بالبراعة) .

هذه حفلة مصارعة الثيران أرجو أن أكون قد صورتها على نحو يصفها أمام القارىء وصفا دقيقا ولا أريد أن اذكر الأثر الذى تركته فى نفسى وإن كان بعض من غير الأسبان الذين شهدوا الحفلة قد قرروا ألا يشهدوا حفلة أخرى . أما الأسبان فيهرعون إلى هذه الحفلات التى تروقهم وتدل عندهم على البراعة والشجاعة .

حسبى اليوم هذا الوصف من غير تعليق ، ولكل قارىء أن يعلق عليه بما شاء .

قصران ، وحدائق ، ومكتبة

إذا زرت باريس فقد زرت فرنسا . وإذا زرت لندن فقد زرت انجلترا ، فأما إن زرت مدريد فالأمر مختلف . وسبب ذلك أن تاريخ فرنسا مرتبط بتاريخ باريس ، وأن تاريخ انجلترا مرتبط بتاريخ لندن أما مدريد فلا يرتبط تاريخها بتاريخ أسبانيا ، وهناك مدن أسبانية غير مدريد كان لها فى بعض الحقب أثر فى حياة الأسبان لم يكن لمدريد ، بل إن من هذه المدن ما كان عاصمة فى عهد من العهود وما احتفظ لذلك بمكانة خاصة تجعل العناية به لا تقل عن العناية بمدريد .

من هذه البلاد (توليدو) أو طليطلة كما كان العرب يسمونها أيام حكمهم أسبانيا ، كذلك مدن الأندلس ، ولن يتسع مقال للحديث عن هذه المدن كلها ، ولم يتسع بى المقام فى أسبانيا لأزورها جميعا ، لكن تستطيع أن تقول : إن كل واحدة أو كل مجموعة منها تحتل مكانا من تاريخ أسبانيا القريب أو البعيد ، وأن هذا التاريخ ترك أثره فى مدينة بذاتها ثم حرصت الحكومات الأسبانية المتعاقبة على أن تحتفظ لهذه المدينة بطابعها الخاص لتجعل منها مدينة سياحية أو مدينة تاريخية أن شئت .

وقد حكم الفرنسيون أسبانيا وترك بعض ملوكهم فيها آثارا لا تزال باقية إلى اليوم ، من ذلك أن فيليب الثانى خلف من آثاره بلدة (لاجرانخا) ، وهذه البلدة لا تزال اليوم عنوانا للعهد الذى أقيمت فيه وأقول البلدة لأنها ليست مدينة بل ليست قرية ، إنما هى قصر وحدائق وحراس للقصر والحدائق . أما فيما وراء ذلك فلا شئ فيها ، حتى لقد أردنا بعد زيارتها أن نتناول طعام الغداء فقيل لنا : إنها ليس بها مطعم وأننا يجب أن نذهب إلى بلد قريب منها اسمه (سيجوبيا) بينه وبينها أحد عشر كيلو مترا ، وأشير علينا أن نتناول غداءنا فى سيجوبيا بمطعم اسمه (بيت كانديدو) .

على أن ما رأينا فى (لاجرانخا) يستوقف النظر بالفعل وحسبك لتقدر ذلك أن تعلم أن الملك فيليب الثانى لم تعجبه مدريد ، ولم تعجبه مدينة أسبانية أخرى يشيد بها قصره لأنه رأى أن ينشئ فى أسبانيا ما يشبه (فرساى) من ضواحى باريس ، ويشبه فرساى بحدائقها وتماثيلها ومباهجها الجارية، فاختار لاجرانخا وأيقن أنه وفق فى الاختيار ، وأن حدائقه ستكون أبهى من حدائق فرساى لأن طبيعة الأرض فى لاجرانخا ليست مستوية سهلة ، بل فيها ارتفاع وانخفاض يجعل منظرها أكثر اجتذابا للعين ويجعل التماثيل فيها أكثر

استهواء للنظر ، ولم يخطىء تقديره ، فقد درنا فى جوانب هذه الحدائق البديعة التى تعنى بها الحكومة الأسبانية إلى اليوم فكنا نقف بعد كل بضع عشرات من الخطى وقد فتحنا أفواهنا وعيوننا إعجابا وإكبارا وخالط الإعجاب والإكبار دهشة حين علمنا أن الحكومة الأسبانية لا تزال إلى اليوم تقيم بعض الأعياد فى هذه الحدائق ، وعند ذلك تجرى المياه فى جوانبها جميعا بما يعيد إلى الذهن صورة من مياه فرساى وألوانها البديعة تحت أضواء الكهرباء .

أما القصر فلا شئ فيه يستوقف النظر ، ذلك لأنه احترق فى بعض العهود ولم تعن حكومة بترميمه ، وإن جاءت بعض الحكومات إليه بمجموعة بارعة من سجاد (الجوبلان) نقشت فيها أبدع المناظر وأروع الصور وسترت بها جدرانه .

ليس فى لاجرانخا سوى القصر والحديقة وحراسهما . لذلك ذهبنا بعد أن درنا فى أنحائهما إلى سيجوبيا نتناول غداءنا فى بيت كانديدو . والطريق بين البلدتين فسيح جميل ، ومطعم كانديدو يقع على أول ميدان تقف فيه السيارة حين دخولها إلى سيجوبيا ، وهذا الميدان تاريخى يقوم به من آثار الرومان ممر رفيع للمياه يعلو أربعين مترا أو تزيد ، ويشهد بأن الرومان عمروا فى أسبانيا كما عمروا فى بلاد امبراطوريتهم كلها ، أما بيت كانديدو فكان طعامه شهيا حقا ،

جديرا بأن يسجل على أنه من الأماكن ذات التاريخ في سيجوبيا .

لم تكن سيجوبيا مقصدنا ساعة غادرنا مدريد في الصباح إلى لاجرانخا ، لكنى أشهد لقد سررت بها غاية السرور ، وسررت بآثار فيها قيل : إن بعضها يتردد بين فاتحين عدة ، منهم العرب المسلمون .

والأثر الذى رأيناه في سيجوبيا أقرب لأن يكون حصنا منه لأن يكون قصرا ، ولعل بناءه يرجع إلى عهد الرومان وإن كان قد استعمل بعد ذلك في مناسبات عدة لغزاة مختلفين ، على أن بلادا أخرى ليست بعيدة عن مدريد بعد لاجرانخا أو بعد سيجوبيا بها قصور ملكية تحيط بها آثار خلدت اسم هذه البلاد ، من ذلك قصر (الاسكوريال) .

واسم (الاسكوريال) ليس غريبا على الأذن العربية ، وليس غريبا بخاصة على أذن عشاق الكتب والمكاتب ، ففي الاسكوريال إلى جانب القصر والمعمد المتصل به مكتبة عظيمة ذات صيت عالمى ذائع ، يزيده ذيوعا أن بها ألفى مخطوط عربى محتفظ بها على خير نحو .

وقد زرت القصر والمكتبة ولم يتسع الوقت لزيارة المعبد ، والقصر على كثرة غرفه وأبهائه بسيط غاية البساطة ، لأن

الملك الذى شاده وأقام به كان ملكا شديد التدين ، شديد الزهد فى الدنيا وزخرفها ، يرى فى ألوان المتاع بها انحرافا عن طريق الدين القيم .

فأما المكتبة فبديعة حقا بها قاعة فسيحة يزورها الجمهور جميلة كل الجمال ، صورت على سقفها وعلى جدرانها لوحات بارعة تصور ما يهدى إليه العلم مما قدم الإنسانية فى طريق الحضارة ، وعرضت فى دواليبها مجلدات ضخمة تستلفت النظر طويلا .

لكن هذا البهو المفتوح للجمهور لا يصور مكتبة الاسكوريال إلا كما يصور المدخل الجميل قصرا من القصور الكبرى ، أما خزائن الكتب فتقع فى الطابق الأسفل وينحدر الإنسان إليها عشرات بعد عشرات من درج لا يكاد ينتهى ، وقد تكرم مدير المكتبة فأذن لنا فى زيارتها والإطلاع على بعض مخطوطاتها العربية فتمنيت إذ رأيتها لو أنها جميعا نقلت ونشرت على الناس ودرس الاخصائيون ما فيها وأذاعوا منها ما ينفع أبناء هذا العصر ليكون لأهل البلاد العربية عبرة تنبههم لما قام به أسلافهم من أعمال جليلة تسجل لأصحابها أعظم المجد .

بل لقد بقيت أصعد بنظرى إلى أعلى هذه الصالات الرفيعة التى تشتمل تلك الكتب العربية وغير العربية تعد بعشرات

الألوف ثم أخفضه حين يجئ حارس المكتبة بكتاب قديم قيم لأطلع عليه ولو لم أعرف لغته ، ثم يسرح بى الخيال مثل مسرحه كلما وقفت فى مكتبة كبرى فتصورت مؤلفى هذه الألوف من الكتب وكأنما اجتمعوا فى هذا المكان الذى يحتوى ما ألفوا ، على اختلاف الأجيال التى عاشوا فيها ، وكأنما ينظر بعضهم إلى بعض نظرة مودة تدل على أنهم شركاء فى تراث الإنسانية العقلى ، وأن اختلاف الأجيال التى عاشوا فيها ، واختلاف البلاد التى قضوا حياتهم بها ، لا يجنى على هذه الشركة بل يزيدها قوة وتماسكا ، لأنها شركة بالعقل والروح فى هداية بنى الإنسان طريق الحق والخير والجمال ، هذا الطريق الذى سعت ولا تزال الإنسانية تسعى إلى بلوغ غايته ولا تدرى إن كان قد قدر لها أن تبلغ هذه الغاية .

كنت أزمع أن أتحدث فى هذا المقال عن طليطلة وإن لم يكن بها قصر ملكى ولم تكن بها مكتبة عامة ، لكنى أوثر أن أرجئ الحديث عنها الآن لأن ما بها يستحق مقالات وحده ، ولعلى أستطيع من بعد أن أحدث شيئا من الصلة بينها وبين بلاد الأندلس على بعد الشقة بين الموقعين ، على أن لها إلى ذلك طابعا خاصا ليس لأى من البلاد التي تحدثت عنها فى هذا المقال ، فليعذرنى القارىء وإلى المقال المقبل .

آثارنا الباقية فى الأندلس

فكرت منذ نزلت مدريد فى زيارة الأندلس ، وطبيعى أن يدور هذا التفكير بخاطر كل مسلم تطأ قدماه أرض أسبانيا ، فالمدن التى يسميها الأسبان اليوم سيفيليا وكوردوفا وجرانادا هى اشبيلية وقرطبة وغرناطة ، الحواضر الإسلامية التى ازدهرت حين حكم العرب بلاد الأسبان وكانت درة فى تاج الحضارة لذلك العهد ، ولا تزال فى هذه المدن إلى اليوم اثار إسلامية تشهد بماضيها المجيد كمسجد قرطبة الجامع ، وقصر اشبيلية ، وقصر الحمراء ذو الشهرة العالمية بغرناطة .

طبيعى إذن أن أفكر فى زيارة الأندلس لأول ما نزلت مدريد . ولكن متى ازورها ، وكيف ازورها ، من الذى يرشدنى إلى أسرار هذه الآثار من غير حاجة إلى دليل من الكتب يقرأ الإنسان فيه ما شاء ويقف منه على دقائق المظاهر البادية لهذه الآثار ، ثم تفوته مع ذلك اسرار كثيرة يعرفها أولو العلم ، ثم بين مدريد وكل واحدة من هذه المدن خمسمائة كيلو متر أو تزيد ، فالقطار يقطع الطريق إلى ايها فى يوم كامل ، أو فى ليلة كاملة ، كنت اتحدث فى هذه المصاعب بحضرة المستشرق الكبير الاستاذ جارسيا جومز فقال : إن بين مدريد واشبيلية

وبين مدريد وغرناطة خط طيران يقطع المسافة في ساعة ونصف ساعة ، وتستطيع أن تنظم الرحلة مع مكتب من مكاتب السياحة الكثيرة فى مدريد فإذا نظمتها مع ابنتك اعطيتكما خطابات للقائمين على هذه الآثار والعالمين بدقائقها فسهل ذلك زيارتكم إليها ، وشكرت الرجل وطلبت إلى ابنتى أن تزور مكاتب السياحة وأن تدبر لنا أمر الرحلة .

وبعد أن تم هذا التدبير وجاءت الخطابات التى كتبها المستشرق الكبير حسبت أن الأمر أصبح يسيرا . فسنقطع أطول الطرق بالطيارة مبتدئين باشبيلية ، وسننتقل منها بالقطار إلى قرطبة ثم نستقل الاوتوكار من قرطبة إلى غرناطة. وقطعت الطيارة ما بين مدريد واشبيلية فى ساعة ونصف ساعة ، لكن ظنى لم يصدق فيما قطعناه بعد ذلك بالقطار وبالاوتوكار ، فلم اتنفس الصعداء إلا حين بلغنا غرناطة وايقنت أنى سأستقل الطائرة منها عائدا إلى مدريد .

وعربات الدرجة الأولى بالسكة الحديد الأسبانية ليس بها دواوين منفصلة ، وليس بها ماء للشرب ولا محل للغسيل ، وعربة الأوتوكار التى قطعت الطريق بين قرطبة وغرناطة قديمة متعبة يخشاها الإنسان فى اماكن كثيرة من الطريق الذى يتسلق الجبال وينحدر ويدعك ويدك على قلبك فى اماكن كثيرة

منه حيث تشعر كأنك موشك أن تهوى مع الركب جميعا إلى قاع الوادى السحيق عن يمينك وعن يسارك .

مع ذلك فهذا الطريق الجبلى بديع بالغ الجمال يختلط اثناءه شعورك بالاعجاب مع شعورك بالخوف والحذر ، ويتغلب الإعجاب فى كثير من اجزائه فتنسى العربة التى تركبها وتنسى ضجتها واضطرابها وتحدق عن يمينك أو عن يسارك مأخوذا بهذا الجمال الفاتن للسفوح الخضراء كستها أشجار الزيتون وانتشرت عليها القرى الصغيرة ، فإذا طال بك الاعجاب لم يسعك إلا أن تحدق بالسماء وأن تشكر البارىء جل وعلا إذ أنعم عليك وعلى اخوانك بنى الإنسان بما ترون .

اقلتنا الطائرة إلى اشبيلية فى يسر وراحة ، ومن مطار أشبيلية ذهبنا إلى الفندق وكانت الساعة الثانية ظهرا ، فنلنا طعامنا ثم نلنا حظا من الراحة وسألنا عن مدير قصر اشبيلية فقيل : إنه ليس بمكتبه وطلب إلينا أن ندع خطاب الأستاذ جارسيا جومز إليه حتى يبعث فى طلبه عند ذلك قالت ابنتى ، فنلذهب إلى الكاتدرائية فقد رأيتها الصيف قبل الماضى وعرفت ما فيها حين رحلتنا إلى أسبانيا مع مدرسة الألسن ، وأنا واثقة من أنك ستعجب بها كل الاعجاب .

وخرجنا نريد الكاتدرائية ، ولم يكن الطريق إليها هو الذى يعتبر كورنيشا لنهر الوادى الكبير ، بل كان هذا الطريق يمر بميدان غير بعيد عن فندقنا تكاد الكاتدرائية تتصل به ، ورأيت بعد الميدان بناء ضخما جعلنا نسير حذاءه ولا يكاد ينتهى ، قلت لابنتى ، فأين الكاتدرائية ؟ .. قالت ، هذه هى مشيرة إلى البناء الضخم ، وبعد لأى بلغنا آخر الجدار القريب من الميدان ثم استدرنا إلى جدار عرضى واستدرنا كرة أخرى إلى الجدار الذى سرنا طويلا حذاءه ، وبصرت فى نهاية هذا الجدار ببرج ضخم رفيع قالت ابنتى انه «الخيرالدا» ، وانه البقية الوحيدة من البناء الإسلامي الذى كان يقوم فى هذا المكان ثم هدمه المسيحيون بعد خروج المسلمين من أسبانيا ، ويروى أن هذه الخيرالدا كانت مئذنة لمسجد قامت الكاتدرائية مكانه ثم بنى المسيحيون فوق المئذنة قبة لنواقيس الكنيسة ، وقد ادهشنى ما سمعت من ذلك ، فأنا لم اعرف مئذنة مستقلة عن المسجد الذى تعلوه ، ولم أعرف مئذنة بهذه الضخامة التى تعيد الخيرالدا بها إلى الذاكرة صورة الابراج القائمة فى البندقية على مقربة من كنيسة القديس مرقص ، ومهما يكن من شئ فهذه الخيرالدا تشهد ضخامتها ويشهد جمالها بارتقاء الشعب الذى شادها فى فن المعمار .

وتياسرنا بعد أن توقفنا طويلا أمام هذه المئذنة التى صارت برجا للنواقيس ودخلنا الكاتدرائية ، فبابها يجاور الخيرالدا ولم نخط فيها إلا قليلا حتى امتلأت نفوسنا رهبة واكبارا فالبصر لا يحيط بالكاتدرائية من أولها إلى آخرها لفسحة رقعتها وللظلمة التى تملأ جوها وتغمر كل ما فيها ومن فيها ، فإذا أنت تيامنت أو تياسرت إلى جوانبها الفيت فى كل منها صفا من المحاريب الكبيرة أو المعابد إن شئت ليتسع كل واحد منها لعشرات من المؤمنين الذين يقصدون إلى العبادة فيها ، وفى كل واحد من هذه المحاريب قطع فنية بارعة تمثل الحياة الدينية ، فيها لوحات وتماثيل وايقونات وصلبان محلاة بانفس الجواهر وفى بعض هذه المحاريب ملابس كبار القساوسة المطرزة باسلاك الذهب والمزركشة بأنفس الجواهر .

وغادرنا الكاتدرائية إلى كورنيش نهر الوادى الكبير وملنا إلى مقهى هناك قضينا به زمنا ثم عدنا إلى فندقنا حيث آوينا إلى الصباح .

وفى الصباح علمنا أن مدير قصر اشبيلية ينتظرنا لنزور القصر معا استجابة لكتاب الأستاذ جارسيا جومز ، فلما كنا عنده مر معنا فى جوانب القصر المختلفة وفى ابهائه وافنيته العديدة ، وبينما نحن فى أحد الابهاء اشار إلى طابق يعلو الطابق الأول وقال : إنه من بناء المسيحيين بعد جلاء المسلمين

عن الأندلس ، وذكر اسم الملك المسيحى الذى بناه ثم قال : إن المباني التى تركها المسلمون كلها قد بنى المسيحيون فوقها أو اضافوا إليها فلم يبق أثر منها خالصا كما بناه المسلمون وإن امكن بيان الأثر الإسلامى وما أضيف إليه أو عليه .

ومن أروع ما يأخذ بالنظر فى هذا القصر وفى محيطاته الحدائق المتصلة به ، وأنت تشرف على هذه الحدائق من ممر طويل متصل بالطابق الأعلى يزيد طوله على مائة متر ، وفى هذه الحدائق بطبيعة الحال اشجار غرست بعد العهد الإسلامى بزمن طويل ، ولست أظن أن فيها ما يرجع إلى العهد الإسلامى ، لكن عناية إدارة القصر بتعهدها ورعايتها وصيانة الجواسق المنتشرة فى ارجائها تجعلها ناضرة ابدا وتجعله متاعا للناظرين .

ومن بعد الظهر ركبنا عربة دارت بنا فى انحاء المدينة ثم تخطت بنا إلى الجانب الآخر من الوادى الكبير حيث رأينا من مظاهر الحياة الأسبانية ما رأينا ، ثم إننا عدنا بالعربة إلى الكورنيش الذى أدى بنا إلى غابة بديعة فيها تماثيل كان سائق العربة يذكر لنا ما تدل عليه كما مررنا بمبان قال لنا : إنها مبانى المعرض الذى اقيم باشبيلية منذ سنين ، وبعض هذه المبانى متقن غاية الاتقان ، وبعضها جميل يقف الناظر إليه طويلا .

وفى البكرة من صبيح الغد أقلنا القطار من اشبيلية إلى قرطبة - إلى هذه المدينة التى كانت يوما ما حاضرة زاهرة تنشر العلم والحضارة فى ربوع العالم ، والتى تجاهد لتحافظ على هذا المجد ما استطاعت بعد أن جثت عليه السنون ، وذهبنا بعد أن ازلنا عنا غبار السفر إلى المسجد الجامع بقرطبة لأننا علمنا أن المسئول عن آثار المدينة يصاحب الدكتور ناجى الأصيلى العراقى إلى هذه الآثار ، ولأن برنامجنا لزيارة الأندلس كان يخصص لقرطبة يوما واحدا ، واقتحمنا طرقا ضيقة إلى المسجد أو «المسكيتا» كما يقول الأسبان ، حتى إذا دخلناه الفيتنى فى حيرة أدير بصرى يمنة ويسرة فإذا أنا فى غابة من عمد ما اشبهها بعمد مساجدنا بالقاهرة ، وبعمد الجامع الأزهر بنوع خاص ، ولكنها غابة يتوه فيها البصر فلا يعرف أين أولها ولا أين منتهاها ، وأخذنا ندور بالمسجد ثم ندور لنرى بعض جوانبه وقد احالها الأسبان كنائس تقام فيها صلواتهم المسيحية وعلقوا على جدرانها الصور واقاموا التماثيل والمذابح والصلبان .. فلما درنا فى ارجاء المسجد وما فيه من كنائس عدنا إلى الفندق فإذا مدير الاثار يقبل علينا يدعونا لتناول الغداء ، وإذا هذا الغداء فى برج على شاطىء يرأسهم الوادى الكبير مع صحبة من

الاسبان العمدة ، يذكر لنا آنه يريد آن يقيم بالمدينة بعد سنوات معرضا يدعو إليه البلاد العربية والإسلامية ، قلت فى نفسى ، هذا مجهود صالح للمحافظة على مجد قرطبة بعد أن جنت عليه السنون .

ولم نزر مدينة الزهراء القريبة من قرطبة وقد قيل لنا : إنها اطلال يعمل المنقبون على الكشف عما تكنه من اثار اسلامية وان التنقيب لا يزال فى مراحله الأولى ، وقد آثرنا أن نشهد مصارعة الثيران التى اقيمت بعد ظهر اليوم نفسه بقرطبة .

وفى البكرة من صبح الغد اقلنا الاوتوكار من قرطبة إلى غرناطة . فلا أقف الآن هنا لأن غرناطة لا تكفيها بقية مقال وقد لا يكفيها مقال كامل .

غرناطة وقصر الحمراء

واشنطن ارفنج من أكبر كتاب الولايات المتحدة ، عاش بين سنة ١٧٨٣ لسنة ١٨٥٩ وخلف وراءه ثروة أدبية رائعة طائلة، وقد عمل صدر شبابه فى السلك السياسى لبلاده، وكانت أسبانيا بين البلاد التى قضى فيها سنوات من عمره. وفى هذه الفترة أقام زمنا بالمدينة البديعة البارعة غرناطة، أو جرانادا كما يسميها الأسبان، وأقام معظم أيامه هناك بقصر الحمراء ثم ألف عنه كتابا جعل عنوانه «أقاصيص قصر الحمراء» لايزال مقروءا إلى اليوم.

وهذا الكتاب يقع فى ثلاثمائة صفحة أو تزيد. ولست أريد أن أكتب مثل هذا القدر عن قصر الحمراء أو عن غرناطة كلها ، فمقامى بها لم يتجاوز ثلاثة أيام، ولم تزد زياراتى لهذا القصر على اثنتين . مع ذلك أعترف بأننى بلغ منى الإعجاب به والغبطة بالساعات التى قضيتها بين جدرانه وفى حدائق جنة العريف المتصلة به أعظم مبلغ حتى لا أستطيع أن أقول أكثر مما قال . لكنى اكتفى بهذا المقال الذى أكتبه الآن عن غرناطة ومعها قصر الحمراء وجنة العريف.

فقد أقلتنا عربة الأوتوكار فى بكرة الصباح من قرطبة فبلغنا غرناطة بعد سبع ساعات من مسيرنا، وفى هذه الأثناء كان يتداولنا الإعجاب بمناظر السفوح والوديان الجميلة وبغراس الزيتون القائم عليها والوجل لاضطراب العربة فى تصعيدها فوق الجبال وانحدارها أحيانا مع الطريق. فلما جاوزنا الساعة الواحدة بعد الظهر استقام الطريق وانطلقت العربة مسرعة فيه وقيل لى: إننا أصبحنا فى مجاورات غرناطة. وبعد نصف الساعة بلغنا غايتنا وأوينا إلى فندقنا حيث نلنا حظا من الراحة. واتصلت ابنتى بمديرة الآثار فى غرناطة لتوصل إليها خطاب الأستاذ الكبير جارسيا جومز فقيل لها: إنها لاتحضر إلى مكتبها إلا فى الصباح وأنهم سيبلغونها أمر هذا الخطاب فإذا مرت بالفندق تناولته. وخرجت مع ابنتى نريد الكاتدرائية، فالكنائس والمعابد فى إسبانيا جديرة بأن تزار لجمال عمارتها وللثروة الفنية التى تحتويها ولما تدل عليه من اتجاه التفكير القومى فى كثير من النواحى.

وخرجنا نسير على أقدامنا، يا عجبا ما أشبه غرناطة بمدريد، إنها مدينة حديثة لم يبق فيها من آثار الماضى ما بقى من اشبيلية وقرطبة. شوارعها فسيحة، والحياة فيها بادية النشاط وتبدو على وجوه أهلها سيما الغبطة والمسرة. وجلنا فى أرجاء الكاتدرائية فلم يكن بها غيرنا إلا قليلون. أترى الأسبان هنا أكثر انصرافا إلى الدنيا من أبناء جلدتهم فى طليطلة وفى

غيرها من المدن الأسبانية.

وكاتدرائية غرناطة لا تقاس في جمالها إلى كاتدرائية طليطلة، ولا إلى كاتدرائية اشبيلية وإن كان بها مع ذلك من آثار الفن الشيء الكثير الذى يقف النظر.

وفى صبح الغداة من وصولنا حدثتنا مديرة الآثار، وقد علمت أنها آنسة تدور سنها حول الخمسين، وضربت لنا موعدا بمكتبها فى الساعة الحادية عشرة صباحا، وذهبنا لموعدها فقيل لنا: إنها ترجونا أن ننتظرها بمكتبها لأنها استدعيت على عجل لمقابلة طارئة، والمكتب غرفة من دار أثرية، وأمام هذه الغرفة مكتبة بها عدد ضخم من الكتب التى تتحدث عن الآثار. أما بقية الدار والطابق الأعلى منها بنوع خاص فمعرض لبقايا أثرية من العهد الإسلامى ومن غير العهد الإسلامى.

وقرابة الظهر جاءت الآنسة المديرة فاعتذرت بأن سيدة من جزر الكنارى تمت بصلة نسب إلى قائد منطقة غرناطة جاءت إلى الأندلس تشهد آثارها، وان حرم القائد دعتها لتحدث التعارف بينها وبين هذه السيدة لنزور معها قصر الحمراء، وسألتنا إن كنا نرى بأسا بأن نكون جميعا معا فى هذه الزيارة.

ولم نر بطبيعة الحال بأسا بذلك. بل لقد سمعت من قبل عن جزر الكنارى هذه ما جعلنى حريصا على أن أرى هذه

السيدة. فقد قيل لي: إن الناس يتداولون أن الذين زاروا جزر الكنارى من الرجال خرجوا منها جميعا متزوجين لجمال نسائها.

وضربت الآنسة المديرة موعدا بعد الظهر لنزور قصر الحمراء، وفى الموعد أقبلت وذكرت لنا أن السيدة الكنارية تنتظرنا فى عربة الجنرال. وخرجت وأنا أريد أن أتحقق صدق ما يقال. وأحدثت المديرة التعارف بيننا فحدقت بالسيدة فإذا هى تجاوز الأربعين، وتحدثنا فنمّ حديثها ونمّ احترامها لذاتها عن أنها من أسرة كريمة. وزرنا القصر هذا اليوم ثم زرناه الغداة وحانت فرصة تركتنا المديرة أثناءها وذهبت ابنتى تشترى لى كتبا عن غرناطة فسألت السيدة الكنارية إن كانت أما لأولاد، وحجب هذا السؤال بعض النور الذى كان يشيع فى وجهها وأخرجت من حافظتها صورتين أرتنى إياهما فإذا هما لشابين فى الحادية عشرة والثانية عشرة وقالت: لقد ماتا فى حادث غرق وقع بين جزرنا. وسألتها عن سائر أبنائها فعلمت أن لها غير هذين الابنين سبعة أطفال أرتنى صورهم جميعا. وقد أشاع منظر هذه الصور روح البهجة فى نفسها من جديد. قلت فى نفسي، ترى أى أثر تركته هذه الحوادث فى حياة هذه السيدة المهذبة وفى جمالها، ثم حاولت ما استطعت أن أهون عليها ما بدا من ألمها حين ذكرت حادث ولديها اللذين ماتا.

زرنا قصر الحمراء في يومين متعاقبين ولا أظن مع ذلك أننا احطنا بكل جوانبه، والقصر يقع على هضبة عالية تتحكم في غرناطة من كل نواحيها، فأنت تصعد إليه في السيارة دائرا حول جوانبه متلويا كما تتلوى حين تصعد الجبل. فلما وقفنا أمامه اليوم الأول أسرعت المديرة فنبهتنا إلى أن هذا البناء الذى نراه ليس من بناء المسلمين، وإنما بناه الملوك المسيحيون من بعد، كما فعلوا في جميع المباني التي تركها المسلمون بأسبانيا. وقد تخطينا هذا البناء مسرعين وأخذنا ندور في جوانب القصر الإسلامى البارع البديع، لا تستطيع كلمات الدهشة والإعجاب والبهر وما إليها أن تعبر عما تشعر به وأنت تنتقل بين أبهائه وأفنيته وردهاته وما إلى ذلك من إيواناته وبواوينه التي لا يحصيها العد. وأول ما يلفت نظرك روح البهجة التي يتضوع بها هذا البناء خصوصا إذا قارنته إلى المباني القوطية المسيحية في القصور والمعابد. فقصر الحمراء كله ضياء. وارتفاعه فوق الهضبة ونوافذه الواسعة تزيده ضياء ونورا. وقد عنيت الحكومة الأسبانية بتعهده وصيانته عناية فائقة، بعد أن كادت بعض العهود السابقة تدك جدرانه إذ أصبح فيها نهبا للصوص وقطاع الطرق. وإن من أبهائه وأفنيته وايواناته لما يقف النظر حتى لا يكاد الإنسان ينصرف عما سواه، ثم إذا ما سواه لا يقل عنه بهاء. من ذلك بهو السفراء، ومنه فناء الريحان وفناء الريحان هذا تجرى في

وسطه المياه ويحيط به غراس من الريحان يشيع فيه بهجة وغبطة. ومجارى المياه فى قصر الحمراء بديعة التنسيق حتى لتشك فى أنها كانت كذلك يوم إنشائه وتحسب أنها أدخلت عليها من آثار الصناعة الحديثة أسباب الدقة والجمال.

ولست أستطيع أن أقف عند كل بهو أو ردهة أو فناء من هذا القصر البديع الساحر. وحسبى أن أذكر أننا قضينا اليوم ساعات فى أرجائه. فلما أذن النهار أن يولى قالت لنا مديرة الآثار أنا يجب إننا نعود الغداة لنرى بقية القصر ولنرى كذلك حماماته فهى طراز جدير بالتفرج عليه.

وقضينا صبح الغد نجوس خلال غرناطة متنقلين بين أسواقها ومقاهيها وكنائسها ونحن نمرح فى جوها البديع يزيدنا متاعا بجمالها ورقة أهلها. فلما كنا بعد الظهر جاءت مديرة الآثار فى مثل موعدها بالأمس فذهبنا نتم دورتنا في قصر الحمراء، ولم تقف عند شيء مما رأينا من قبل، بل تقدمتنا المديرة فى طرق من حولها آثار جدران تشهد بأن المباني التي كانت هناك هدمت، وأن هذه المبانى كانت بعض ما خلّفه المسلمون. وها هنا وهناك جعلنا نقف أمام بناء تقص مديرة الآثار من أخباره ما يشوق، ولعل للتاريخ فى شأنه رأيا آخر. فهذا البيت الأنيق الصغير كان للملكة غضبت أن تزوج عليها الملك فبنى لها هذه الدار تتبتل فيها بقية حياتها، وهذا

البناء كان لبعض الأمراء ممن تغير عليهم صدر الملك فاتخذوه ملجأ من غضبه حتى يعود إلى رضاه. وبين كل واحد من هذه المبانى والآخر فسحة من الأرض تذكرك بما يقوله المؤرخون من أن قصر الحمراء وملحقاته كان يتسع لجيش عدته أربعون ألفا يستعين بهم الملك على أعدائه وعلى الثائرين به من أمراء العرب أنفسهم.

وانحدرنا ثم انحدرنا وإذانا ندخل أسفل القصر حيث الحمامات. فلما جلنا خلالها ونظرت إلى مغاطسها ومتكآتها ورفعت بصرى إلى سقفها المقوسة المفرغة أحجارها ليوضع الزجاج فيها فيضمها ابتسمت وذكرت حمامات القاهرة العامة فى أوائل هذا القرن العشرين، وما لعله لايزال باقيا من مثل هذه الحمامات التى يسميها الناس الحمام التركى.

على أن حمامات قصر الحمراء تمتاز بالسعة وبالتعدد، فبعضها للملك أو للأمير وبعضها لزوجته وبعضها مزدوج حتى يرى كل واحد منهما الآخر فى مغطسه. وكذلك بلغ الترف من بناة هذا القصر ذلك المبلغ العجيب.

وتركنا الحمامات والقصر وذهبت بنا السيارة إلى جنة العريف. والفينا حرم قائد المنطقة تنتظرنا فتركنا السيارة وفتحت أمامنا أبواب الجنة وجعلنا نصعد فيها ثم نصعد ونحن فى كل خطوة نخطوها فى نشوة بل فى ذهول. فهى جنة حقا.

مياه جارية، وشذى يتضوع من نبات شتى، وأشجار باسقة تحيط بهذا النبات، وجو منعش يحتمل هذا كله. وهذا كله يتدرج ثم يتدرج وأنت تقف منه فى مرحلة بعد مرحلة فتشعر كأنك في حلم من الأحلام أو فى ليلة من ليالي ألف ليلة. كل ما حولك يتضوع جمالا ورقة وطيبا وما شئت فقل من هذه المعانى المحسوسة التى تبعث إلى النفس الصبوة وتجعلك تقدر ما للطبيعة من ساحر البهاء والجلال.

قيل لى ونحن فى هذا الجو: إن بعض الشعراء والمؤلفين المسيحيين كانوا يجيئون إلى جنة العريف يقضون فيها الأيام يستلهمون وحيها لشعرهم ولموسيقاهم. ولعمرى لقد اهتدوا إلى خير مكان ينزل فيه هذا الوحى وينبعث منه هذا الإلهام. إن هذه الجنة لتريك من طيب الحياة وبديع انعمها مايزيدك تعلقا بها وحبا لها وإمساكا عليها.

وتركنا جنة العريف بعد مغيب الشمس بساعة وعدنا أدراجنا إلى غرناطة ننتظر فيها صبح الغد لنستقل الطائرة عائدين منها إلى مدريد.

وكذلك قضيت فى غرناطة ثلاثة أيام متعت بها خير متاع ثم عدت بعدها إلى مدريد لأعود منها إلى مصر فانهض بأعباء الحياة بعد أن قضيت شهرين فى ربوع أوروبا استمتعت فيهما بخير أنعم الحياة.

خان الخليلى فى طليطلة

نزلت مدريد فى منتصف سبتمبر الماضى، وكانت زيارة الأندلس على رأس برنامجي لأسبانيا إذ كنت حريصا على أن أقف فيها على الآثار الإسلامية فى المدن التى كانت عواصم فى العهد الذى كان فيه الحكم للعرب، أمثال اشبيلية وقرطبة وغرناطة. لكني علمت غداة نزولى مدريد أن بينها وبين كل واحدة من هذه المدن خمسمائة كيلومتر أو تزيد، وأنى يجب أن أضع لزيارتها نظاما خاصا، وأن أستعين بمن يرشدنى فيها إلى أسرار الآثار التى أريد الوقوف عليها . قال صاحبى بعد أن قضيت فى العاصمة الأسبانية أياما. وما لنا لا نذهب إلى توليدو ـ طليطلة ـ كما كان العرب يسمونها. إن بينها وبين مدريد مائة كيلو متر أو نحوها ونستطيع أن نصل إليها بالسيارة فى أقل من ساعتين، وبها من الآثار ما لا يقل عما بالأندلس. وقد كانت زمنا غير قليل عاصمة الحكم فى عهد المسلمين. وقد احتفظت إلى اليوم بطابعها القديم أكثر مما احتفظت به غيرها من بلاد الأسبان. هذا إلى أن الطريق إليها جدير بأن يرسم أمامك صورة من الريف الأسبانى أكثر مما يرسمه الطريق إلى الأندلس إذا جال بخاطرك أن تذهب إليها بالطائرة. وأقنعتنى أقواله واتفقنا على الذهاب إلى طليطلة

الغد. وأقلتنا السيارة فى طريق جميل استمر كذلك زهاء عشرين كيلومترا بعد خروجنا من مدريد، ثم استمر جميل الرصف إلى توليدو، لكنه كان فى كثير من أجزائه يخترق صحراء جرداء شبيهة بصحارينا، كما أن القرى الواقعة على جانبيه كانت تشبه القرى المصرية، وإن كانت أغلب أمرها أحسن نظاما وأجمل بناء.

وبلغنا توليدو، أو طليطلة ووقفت بنا السيارة فى ميدان استوقف نظرى، ما أشبه المبانى المحيطة به بالمبانى التى كانت فى القاهرة القديمة أوائل هذا القرن العشرين، والتى اندثرت أو هى فى طريق الاندثار لأن المبانى الحديثة تحل محلها. أما توليدو فبقيت على حالها لم يحل جديد فيها محل القديم، بل ظلت مبانيها اليوم وكأنها هى هى التى كانت قائمة منذ مائة سنة أو مائتى سنة أو أكثر من ذلك. وجلسنا إلى مقهى فى جانب من الميدان فذكرت ونحن فى مجلسنا مقاهى قديمة كانت حول مسرح الأوبرا بالقاهرة وكان الناس يجلسون إليها وكان آباؤنا وأعمامنا يذكرون لنا أن السيد جمال الدين الأفغاني كان يجلس في أحدها. فما تناولنا قهوتنا وغادرنا المقهى وقع نظرنا على متجر به أوان نحاسية كالتى يراها السائحون بخان الخليلى بحى سيدنا الحسين، وبه أسلحة بيضاء صغيرة. وتقدم منا غلام لا تزيد سنه على الثانية عشرة يقول بالأسبانية: إن

بضاعة هذا المتجر متهاودة الثمن، وأنه يستطيع أن يعاوننا فى تخفيض هذا الثمن المتهاود. لكن صاحبى كان يعرف توليدو وكان يطمئن بها إلى متجر خاص اشترى منه غير مرة أشياء لنفسه ولأهله، فآثر هذا المتجر الذى يعرفه ودعانا لنذهب إليه بعد أن نشهد دارا قريبة من الميدان استحالت اليوم متحفا فيه معروضات من العهد الإسلامى ولعلها كانت فى ذلك العهد مصحة أو مستشفى.

وذهبنا إلى هذا المتحف فإذا به فناء كبير يطل عليه بهو طويل به معروضات عربية إسلامية ومعروضات أخرى قيل: إنها من قرطاجنة أو من بلاد المغرب. ومعظم الآثار الإسلامية فى هذا المعرض لوحات من الجبس أو الحجر نقشت عليها آيات قرآنية أو حكم عربية قديمة بالخط الكوفى، وبعض هذه الآثار لوحات وجدت على قبور كانت للمسلمين وعليها أسماء أصحابها وتاريخ ميلادهم ووفاتهم وتمتاز هذه الآثار الإسلامية جميعا بالبساطة غاية البساطة. وقد كان معنا دليل يشرح ما تدل عليه فإذا ما كنا نقرؤه مكتوبا فيها أفصح دلالة مما كان يذكره.

وصعدنا إلى الطابق الأعلى ودرنا فى أرجائه فإذا معظم معروضاته لا تتصل بالعرب ولا بالمسلمين بل جيء بها من عهود مختلفة فى نظام يفضله بعضهم على نظام البهو

الذى اشتمل الآثار العربية الإسلامية.

وغادرنا هذا المتحف وقد تخطت الشمس الزوال واجتازت بنا السيارة المدينة ووقفت بنا عند المتجر الذى يؤثره صاحبي فإذا على بابه فتاة صبوحة الوجه واسعة العينين حلوة النظرات قمحية اللون ترتسم على ثغرها ابتسامة رقيقة كأنها ابتسامة الجوكندا وقد إئتزرت بمئزر من حرير مطرز ووضعت على رأسها شالا أسبانيا جميلا. قال صاحبي: إن لباسها هذا هو لباس أهل توليدو القومي منذ عصور خلت، بل منذ العصر الإسلامي. ثم إننا رأينا على مقربة من الفتاة فتى يلبس سراويل ضيقة وقبعة من الجوخ عالية قيل لنا: إنهما لباس أهل المدينة القومي. وعلمنا أن الفتاة والفتى هما ابنا صاحب المتجر، وأنه ألبسهما هذا اللباس لأنه يبيع هذه الألوان من الأقمشة المزركشة فهما نوع من الإعلان عن بعض ما عندهم من صناعة توليدو.

وذهبنا نتناول غداءنا فإذا طرق المدينة تشهد بقدمها أكثر مما يشهد الميدان الذى وقفنا به أول وصولنا إليها. فهى طرق ضيقة لا تتسع لمرور السيارة بها، فكنا نضطر إلى الدوران حول المدينة لنتمكن من بلوغ المكان الذى نقصد إليه. والمبانى فى هذه الطرق الضيقة قديمة الطراز فكأنها شيدت من مئات سنين خالية.

وكنا بعد الغداء نريد أن نزور ما بقى من آثار المدينة فزرنا دارا قيل: إنها كانت مسجدا إسلاميا ثم أضيفت إليها مبان لتجعلها كنيسة. لكنا حين دخلنا المكان ألفيناه أدنى إلى أن يكون أطلالا تثير فى النفس حسرة، منه إلى أن يكون مسجدا أو كنيسة.

وزرنا كذلك معبدا لليهود لم يبق معبدا، بل صار متحفا أثريا يزوره السائحون ثم لا يجدون به الشىء الكثير.

فأما مايقف النظر ويستحق التسجيل فالكاتدرائية وبيت الجريكو.

والجريكو مصور مشهور ولد بكريت من جزر شرق البحر الابيض المتوسط ثم ذهب إلى ايطاليا واستقر به المقام بعد ذلك فى أسبانيا ثم بقى اسمه الجريكو نسبة إلى الجريك أى الإغريق وقد تبنت أسبانيا هذا المصور كما انتسب هو إليها، وأصبح اسمه علما من أعلام مصوريها أمثال جويا وفلاسكيز وأمثالهما من كبار المصورين. وللجريكو صور كثيرة معروضة فى مدريد. ولعل له كذلك صور فى مدن أخرى.

فأما بيته فى توليدو فمتحف صغير بديع بالفعل، تعهدته السلطات الأسبانية خير تعهد، فعنيت بحدائقه عناية تامة، وعنيت كذلك بصيانته وصيانة أثاثه حتى يبقى أمام زائره وكأن ساكنه غائب عنه فإذا عاد إليه وجده مستعدا للقياه أحسن

اللقيا. تدخل من بابه إلى فنائه فترى به غرفا عدة إحداها مرسم يحسب الإنسان أن الجريكو كان يعمل به منذ قليل، وطائفة أخرى من الغرف فى الطابقين الأسفل والأعلى أصغرها لنوم المصور مما يدل على أنه لم يكن متزوجا، وبعضها لراحته وبعضها لأعوانه وسعة البيت تدل على أن الجريكو قد بلغ حين مقامه فيه حظا من الثراء غير قليل.

وفى جانب من البيت بهو فسيح عرضت فيه صور بارعة من ريشة صاحبه. ولست أدرى أشيد هذا البهو من بعد ليكون متحفا تعرض فيه هذه الصور، أم كان البهو مشيدا فى حياة الجريكو ليعرض فيه ما تنتجه ريشته، أقول هذا لأننى رأيت بمدريد فى بيت الرسام الكبير الأستاذ كوماندادور، وفى طابقه السفلى بهوين معروضة فيهما تماثيله وهو يغتبط إذ يقف أمام هذه التماثيل مع زواره بين حين وحين.

هذا بيت الجريكو. فأما الكاتدرائية فتحفة فى فن العمارة بعظمتها وجلال ظاهرها ومهابة داخلها. وقد وقفنا طويلا فجعلت أجيل النظر فى بابها الفخم وفى نقوشه البارعة وأقواسه الجميلة. أما داخلها فرهيب بضخامة عمده وبزجاج نوافذه البديع التصوير والتلوين وبما ترى فى جوانبه المتعددة من صور وتماثيل وآثار دينية لها فى الكنائس الكاثوليكية نظائر، وإن كانت هنا أكثر عددا وأغلى قيمة. وتلك لعمرى ثروة

بل هى ترف يؤاخذ البروتستنت الكاثوليك بالغلو فيه لأنهم يرون أن الدين ينهى عن الترف ويدعو إلى التقشف.

على أن بكاتدرائية توليدو من هذه المظاهر ما يبهر النظر ويدعو إلى التفكير الطويل. فهناك أكثر من غرفة بها ملابس كبار القسيسين طرزت من أبدع صنوف الحرير، وزركشت بالجواهر الكريمة الغالية الثمن حتى لتتمنى أجمل حسناء أن يكون فى ثوبها بعض هذه الجواهر وأن يطرز من هذا الحرير. وليس ذلك كل ما هنالك. ولقد نبهت أصحابى إلى أن الوقت يمسى فقيل لى: إننا يجب أن نزور غرفة الكنوز. وألقيت بنظرى إلى باب هذه الغرفة الفسيحة فإذا صدرها يلمع بالذهب الخالص صيغ فى أشكال مختلفة من الصلبان والتماثيل وغيرها. فلما جاء دورنا ودخلنا الغرفة ودرت إلى جانب جدرانها الأربعة لم أكن أصدق نظرى فى بعض الأحيان. فالثروة الضخمة التى احتوتها هذه الغرفة تجعلها غرفة الكنوز بالفعل. والذهب والماس والجواهر الكريمة المختلفة الدقيقة الصنع تزيدها قيمة وقدرا من الناحية المادية ومن الناحية الفنية.

وغادرناها ثم غادرنا الكنيسة وغادرنا توليدو عائدين إلى مدريد. ولا يزال الكثير من صور الآثار التى رأيتها يتبدى لناظرى ويثير إعجابى. ولا تزال عمارة توليدو وقدمها وضيق

طرفها اشد إثارة لعجبى، كيف لم تغير الحضارة الحديثة هذه الصورة مع ما لهذه الحضارة من بأس وسلطان، لابد أن يكون لماضى توليدو سلطان أقوى من سلطان الحاضر هو الذى يحفظ عليها جلال قدمها وبراعة آثارها والطابع الفذ الذى تمتاز به على غيرها.

أسبانيا .. شرقية أم غربية

أقلتنى الطائرة من لندن إلى مدريد فى منتصف شهر سبتمبر الماضى، والطائرة تقطع ما بين لندن ومدريد فى ثلاث ساعات وربع الساعة، وتقطع ما بين لندن وروما فى مثل هذا الوقت، كذلك الحال بين مدريد وروما. فكأنما لندن ومدريد وروما ثلاثتها على رؤوس مثلث متساوى الأضلاع . ومع ذلك فما أكبر الفرق بين هذه العواصم الثلاث فى لغاتها، وجنس سكانها، ولونهم، وفى تصورهم الحياة والنعمة بها.

ومدريد أقرب هذه العواصم إلى حياتنا الشرقية، وكذلك يقول الأوروبيون أنفسهم. بل أخبرنى أحد الأسبان أن بعض هؤلاء الأوروبيين يعتبرون أسبانيا جزءا من افريقيا، ويرون أن جبال البرانس تفصل بين أوروبا وأفريقيا كما تفصل جبال الأورال بين أوروبا وآسيا إذ تفصل بين روسيا وسيبيريا وأن مضيق جبل طارق لا يضيف أسبانيا إلى أوروبا وإن كان مضيق دو فر لا يفصل فى نظرهم انجلترا عن أوروبا.

أما الأسبان فلا يرون إلا أنهم أوروبيون كما أن إيطاليا أوروبية، ولذلك تنزع فنونهم فى التصوير والموسيقى والغناء فى الوقت الحاضر المنزع الغربى بعد أن كان لها طابعها القومى الخاص الذى لم تتخلص إلى اليوم منه ، ولا أحسبها تتخلص منه أبدا.

وهذا الخلاف بين أوروبية الأسبان وأفريقيتهم، أو بين شرقيتهم وغربيتهم إن شئت، قائم اليوم كما كان قائما منذ أجيال، أخبرتنى سيدة أسبانية فاضلة أنها ذهبت مع زوجها العالم إلى الدانمرك فلما رآها أهل كوبنهاجن وعرفوا أنها أسبانية أبدوا لها عجبهم من صفاء لونها وبياض بشرتها لأنهم يظلنون الأسبان جميعا سمر الألوان كالأفريقيين. وأجابتهم السيدة بأن في أسبانيا من هم وهن أكثر صفاء فى بشرتهم منها. ولا تدرى السيدة أصدقها الذين سمعوها أم حسبوها تقول هذه العبارة حرصا منها على أن تكون بلادها غربية أوروبية.

والواقع أن فى أسبانيا كما رأيتها شيئا من طابع الشرق غير قليل، وفى لغتها ألفاظ كثيرة تمت بأصلها إلى العربية لست أعلم أأحصاها علماء اللغة الأسبانية أم لم يحصها منهم أحد؟ ولهجتهم في الحديث تشبه بعض لهجاتنا الشرقية حتى لتظن إذ تسمع بعضهم أنه يتكلم العربية.

ولا عجب فى هذا وقد أقام العرب المسلمون فى أسبانيا ثمانية قرون حتى تألبت عليهم المسيحية فأجلتهم عنها وأعادت أسبانيا كاثوليكية كما كانت قبل الفتح العربى. وكانت أسبانيا كلها، ولم تكن الأندلس وحدها فى حكم المسلمين زمنا طويلا. ولعلهم كانوا يستطيعون البقاء بها رغم تألب المسيحية عليهم لو

لم يدب بين أمرائهم دبيب الشقاق ولم تقم بينهم حروب أهلية تذهب بريحهم وتزيدهم ضعفا وتمكن خصومهم منهم. لكن هكذا شاءت المقادير، شاءت أن يتخاذل المسلمون وأن تتحد كلمة المسيحية، أن ترتد أسبانيا عن الإسلام وأن تعود أشد تمسكا بالكاثوليكية من إيطاليا نفسها، وأشد لذلك عناية بكنائسها وأماكن العبادة فيها، لا يبزها فى ذلك إلا مدينة الفاتيكان مستقر البابا صاحب القداسة فى العالم الكاثوليكى كله.

ولقد طالما ساءلت نفسى وأنا فى أسبانيا، وأنا أزور أشبيلية وقرطبة وغرناطة، وأنا أشاهد مابقى من آثار المسلمين. ترى لو أن الإسلام بقى فى أسبانيا، وكان الأسبان اليوم مسلمين، فماذا عسى تكون صورة العالم الحاضر. وكان هذا السؤال يزداد ترددا فى نفسى حين أذكر أن جلاء المسلمين عن أسبانيا عاصر اكتشاف كريستوف كولمب أمريكا واستقرار الأسبان فيها استقرارا لايزال له مظهره الواضح إلى اليوم إذ تتكلم بلاد أمريكا الجنوبية كلها الأسبانية فيما خلا البرازيل. وكنت بطبيعة الحال لاأجد جوابا على تساؤلى إلا أن أقول. هكذا شاءت الأقدار، ولله فى كل شىء حكمة وكم عادت إلى ذاكرتى وأنا بالأندلس أبيات من مرثية الأندلس التى مطلعها.

لكل شىء إذا ماتم نقصان   فلا يغر بطيب العيش إنسان.

والتى يقول فيها الشاعر:

يـارب أم وطــفل حيـل بينهمـــا   كما تفرق أرواح وأبــــدان

وطفلة مثل حسن الشمس إذا طلعت   كأنما هى ياقوت ومرجــان

يقودهــا العلــج للمكــروه مكرهـــة   والعين باكيـة والقلب حزنــان

لمثل هذا يـذوب القلب من كمد إن   كان فى القلـب إسلام وإيمان

ثم أعود بعد هذا التذكر فأقول. هكذا شاءت المقادير. ولله فى كل شىء حكمة، ولو خلق الله الناس أمة واحدة لفسدت الأرض.

أقول هذا ثم لا تطاوعنى نفسى لأنصرف عن التفكير فيما كان العالم يصير إليه لو أن أسبانيا بقيت إسلامية فبقيت أمريكا الجنوبية وبقيت المكسيك اسلامية مثلها وتكلم الجميع اللغة العربية. ولقد تمكن هذا التفكير من نفسى حتى أفضيت به يوما إلى شاب أسبانى مهذب فقال مبتسما. ترى لو أن ذلك كان، أفكنت أنا اليوم أسعد مما أنا. إن استطعت أن تؤكد لى ذلك شاركتك فيما يدور بخاطرك. أما وأنت لا تستطيع أن تؤكده، وحوادث التاريخ تجرى بقدر لا سلطان لأحد عليه، فلا غناء فى هذا التفكير الذى يشغل بالك، ولا نتيجة له فى حياة الوجود.

وصدق الشاب فيما قال . لكننا فى كثير من الأحيان نفكر بعواطفنا أكثر مما نفكر بعقولنا. ونأبى رغم كل اعتبار أن نسلم أنفسنا لحكم الواقع، مع اعترافنا بالعجز عن تبديل هذا الواقع.

وأشد ما كان هذا التفكير يشغل خاطرى حين كنت أزور البلاد التى ترك المسلمون فيها من الآثار ما لا يزال يحدث عنهم. كان ذلك فى طليطلة وأشبيلية وقرطبة وغرناطة. كنت وأنا أزور هذه الآثار أحس كأن هذا الميراث الضخم كان لى، وأنه سلب منى. وكنت وأنا بمسجد قرطبة أجيل بصرى فى عمده المترامية أمام النظر فى أشكالها العربية التى تعيد أمام الذهن عمد الأزهر أو عمد المسجد الحسينى، ثم أرى جوانب عدة من المسجد استحالت كنائس يصلى فيها أهل قرطبة اليوم، أتخيل المؤذن ينادى الناس لصلاة المسلمين، فإذا مر بى هؤلاء المصلون فى الكنائس انقشعت عن عينى سحابة الخيال والوهم وعدت أواجه الواقع وأقول كرة أخرى. كذلك شاءت الأقدار، ولو خلق الله الناس أمة واحدة لفسدت الأرض.

فإذا أنا اختلطت بالناس تسليت عن هذا الذى يساورنى بما أرى فى الأسبان من مظاهر الشرق. ففى أهل هذه البلاد شمائل واضحة من شرقنا تبث إلى النفس من الطمأنينة مالا تجد مثله فى غير أسبانيا. فعند الأسبان من

حسن الحفاوة بالضيف، ومن الإسراع إلى معاونة الأجنبي عن بلادهم ومن التودد إليه، أكثر مما عند غيرهم من أهل الشمال الأوروبى، وما يجد الإنسان مثله فى بلاد الشرق، وفى أغانى الأسبان القومية شبه كبير بالأغانى الشرقية مما لا يرضاه الأوروبيون ولقد سمعت بمدريد أغانى أسبانية بحتة فكان يخيل إلى وأنا أسمع بعض أنغامها أنني أسمع أنغاما شرقية فى مصر أو سوريا أو العراق. والرقص الأسبانى (بالكاستانييت) يعيد إلى الذهن ولكن فى صورة مهذبة غاية التهذيب، الرقص (بالصاجات) مما كنا نشهده فيما مضى بالقاهرة أو بالريف المصرى، وقد قيل لى: إن هذا الغناء وهذا الرقص أكثر إثارة للمعانى الشرقية حين تسمعه أو تراه فى الأندلس منه فى مدريد وأن الموسيقى التى تصحب الغناء وتصحب الرقص تكاد تكون شرقية بحتة وقد حرصت على أن أرى من هذه الفنون الأسبانية القومية بمدريد ما يرضى شرقيتى. على أنني سرعان ما تبينت أن التيار الذى يجرفنا نحو الفنون الجميلة الغربية يجرف الأسبان كذلك وأن بعض مسارح العاصمة لا تكاد تعرض أثرا من الفنون القومية . ذهبت يوما إلى مسرح القصر – أو الكاثر كما يسميه الأسبان ـ فإذا الموسيقى والغناء والرقص والتمثيل ونظام المسرح غربى كله وإذا بى أشعر وكأنى في باريس أو في لندن، أو كأني أشهد بأوبرا القاهرة قطعة إيطالية أو فرنسية. ولم يدهشني ذلك والحضارة

الغالبة تجرف إليها في كل العصور كل ما سواها، لأن الناس يرون فى مظاهر هذه الحضارة أثرا من آثار القوة التى تتحكم فى الشعوب، ويحسبونها لذلك أرقى من غيرها من الفنون والآداب التى تخلفت وراء هذه الحضارة الغالبة.

وقد يكون للأسبان من العذر من اتجاههم نحو الغرب أكثر مما لنا، فهم يجاورون فرنسا وهم دولة مسيحية كاثوليكية كفرنسا وإيطاليا. وآدابهم وبعض فنونهم متجهة لذلك هذه الوجهة من أزمان بعيدة، ولهم من كبار المصورين ومن فحول الأدباء ما سلكهم فى سلك الغرب منذ عهد غير قليل. وأنت حين تزور متاحفهم بمدريد وبغير مدريد، وحين ترى آثارهم الفنية البارعة تشعر بأن بينهم وبين الغرب نسبا لا يقل عما بينهم وبين الشرق من نسب إن لم يزد عليه. وإذا كانت بعض مدنهم القديمة تحدث بتخطيطها وبمبانيها حديث الشرق فإن حياتهم الحديثة، ومدنهم الكبرى، ومظاهر عيشهم المختلفة تجرى على سنن الغرب وتتعلق به.

ولقد كنت أشعر بالحيرة حين أحاول التقريب بين هذين اللونين من ألوان الحياة يتجاوران فى البلاد الأسبانية وفى النفس الأسبانية. وبقيت فى هذه الحيرة طيلة مقامى بين القوم ولم ينجنى منها إلا أن عدت إلى مصر.

الفهرس



صدر حديثا عن

دار الهلال

- من إعجاز القرآن ... رءوف أبو سعدة
- يوميات باحثة مصرية فى حلايب .... د. نادية بدوى
- طوق الحمامة .. للأمام الفقيه : ...ابن حزم الأندلسى
- عرب وأكراد .. خصام أم وئام .... درية عونى

مع الباعة أهم إصدارات عام ١٩٩٤

دار الهلال

رقم الإيداع : ٤٢٧٩ / ١٩٩٣
I . S . B . N
977 - 07 - 0257-9

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ٣٠ جنيها فى ج م ع
تسدد مقدماً نقداً او بحوالة بريدية غير حكومية ـ
البلاد العربية ٢٥ دولاراً ـ أمريكا وأوربا وآسيا
وافريقيا ٣٠ دولاراً ـ باقى دول العالم ٤٠ دولاراً
القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة
دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية
بالبريد .

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

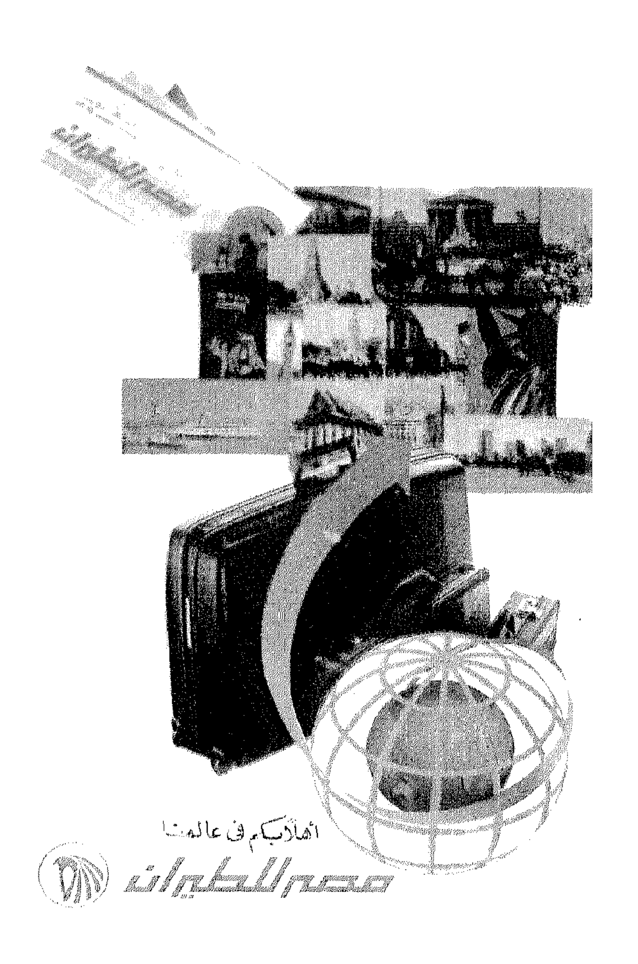
الكويت السيد / عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة ـ ص ب رقم ٢١٨٣٣
للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس 92703 Hilal V.N

هذا الكتاب

حياة المفكر رحلة دائمة، ورحلاته كقراءاته مصدر معرفة ومتعة. وقراءة كتاب الحياة ضرورة مستمرة ما استمرت الحياة. ومهما تطورت وسائل الاتصال من اذاعة وتليفزيون وأقمار صناعية، أو وسائل الانتقال من سيارات وطيارات وغيرها، ومهما كان لها من أثر في تقريب أجزاء العالم وتعريف بعضها بالبعض الآخر، فإنه سيظل للرحلة الفعلية سحرها وسيظل للمعايشة الواقعية أثرها الذى لابديل عنه من أجل معرفة صادقة بأحوال الأمم الأخرى وتفتحها العقلى تجاه غيرها.

وللرحلات والأسفار فى حياة الرائد الكبير الدكتور محمد حسين هيكل (١٨٨٨ - ١٩٥٦) مكان خاص. فبقدر ما تعددت أسفاره وتنوعت ما بين ثقافية ودينية وسياسية وترفيهية تعددت وتنوعت ثمارها فى مؤلفات لها منزلتها الكبرى فى الأدب العربى وفى مقدمتها كتاباه الشهيران «في منزل الوحي» و «ولدى».

وها هى ذى دار الهلال تحقق فتحا جديدا بتقديمها لمجموعة من مقالات الدكتور هيكل التى لم تصدر من قبل فى كتاب عن رحلاته فى الشرق والغرب جمعها وأعدها للنشر نجله الأستاذ أحمد هيكل المحامى، وقدم لها شيخ الصحفيين الأستاذ حافظ محمود، وهى على تنوعها واختلاف زمانها شديدة الصلة بما نشاهده اليوم فى بقاع العالم المختلفة وفى علاقة بعض أقطاره ببعض. وهى فضلا عن ذلك ارتباط وثيقا بالمراحل الفكرية المختلفة للدكتور هيكل وثقافته العميقة المتعددة الاتجاهات .



أهلاً بكم في عالمنا
مصر للطيران